بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة البقرة (٢٥٣-٢٦٠) من تفسير السعدي

{تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}.

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض بما خصهم من بين سائر الناس بإيحائه وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا صلى الله عليه وسلم الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين {وآتينا عيسى ابن مريم البينات} الدالات على نبوته وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه {وأيدناه بروح القدس} أي: بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل أيده بجبريل عليه السلام يلازمه في أحواله {ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات} الموجبة للاجتماع على الإيمان {ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر} فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعاداة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبة للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلهذا قال {ولكن الله يفعل ما يريد} فإرادته غالبة ومشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه وأخبر به عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من الاستواء والنزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية.

فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالمون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزرية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحيه، فلهذا وجب الإيمان بهم

وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق.

ثم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخرا وأجرا موفرا في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلهذا قال تعالى: {والكافرون هم الظالمون} وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم}.

ثم قال تعالى: {اللهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}.

هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلهذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها وردا للإنسان في أوقاته صباحا ومساء وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأن {لا إله إلا هو} أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبدا لربه، ممتثلا أوامره مجتنبا نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقا ناقصا مدبرا فقيرا من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئا من أنواع العبادة، وقوله: {الحي القيوم} هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمنا ولزوما، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره،

وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيوميته أن {لا تأخذه سنة ولا نوم} والسنة النعاس {له ما في السماوات وما في الأرض} أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مدبر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض فلهذا قال: {من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه} أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدئ الشافع قبل الإذن، ثم قال {يعلم ما بين أيديهم} أي: ما مضى من جميع الأمور {وما خلفهم} أي: ما يستقبل منها، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: {ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض} وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتهما وعظمة من فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فلهذا قال: {ولا يؤوده} أي: يثقله {حفظهما وهو العلي} بذاته فوق عرشه، العلي بقهره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته {العظيم} الذي تتضائل عند عظمته جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلا.

ثم قال تعالى: {لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}.

يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة أثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالموفق إذا نظر أدنى نظر إليه آثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه صحيحا، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيمانا تاما أوجب له عبادة ربه وطاعته {فقد استمسك بالعروة الوثقى} أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي {لا انفصام لها} وأما من عكس القضية فكفر بالله وآمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل مآله إلى الجحيم {والله سميع عليم} فيجازي كلا منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها.

{اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: {الله ولي الذين آمنوا} وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يبغون عنه بدلا ولا يشركون به أحدا، قد اتخذوه حبيبا ووليا، ووالوا أولياءه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومنَّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت} فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله وليا ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤزونهم إلى المعاصي أزا، ويزعجونهم إلى الشر إزعاجا، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل

والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأولياءه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى: {أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} .

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} .

يقول تعالى: {ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه} أي: إلى جرائته وتجاهله وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما حمله على ذلك إلا {أن آتاه الله الملك} فطغى وبغى ورأى نفسه مترئسا على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم {ربي الذي يحيي ويميت} أي: هو المنفرد بأنواع التصرف، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المحاج: {أنا أحيي وأميت} ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلا عن كونه حجة، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم: {فإن الله يأتي بالشمس من المشرق} أي: عيانا يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر {فأت بها من المغرب} وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه، فلما قال له أمرا لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحا يقدح في سبيله {بهت الذي كفر} أي: تحير فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: {والله لا يهدي القوم الظالمين} بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جدا، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدل بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له ربا قادرا قاهرا متصرفا فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف

يكون إلها حتى يتخذ الصنم على صورته، ويعبد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحس هذه الشمس وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله. "من مفتاح دار السعادة"

ثم قال تعالى: {أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

وهذا أيضا دليل آخر على توحد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، فقال: {أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها} أي: قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجبا و {قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها} استبعادا لذلك وجهلا بقدرة الله تعالى، فلما أراد الله به خيرا أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب، {فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم} استقصارا لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه وكان عهد حاله قبل موته، فقيل له {بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه} أي: لم يتغير بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادا {وانظر إلى حمارك} وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتثرت عظامه، وتفرقت أوصاله {ولنجعلك آية للناس} على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجا محسوسا مشاهدا بالأبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل {وانظر إلى العظام كيف ننشزها} أي: ندخل بعضها في بعض، ونركب بعضها ببعض {ثم نكسوها لحما} فنظر إليها عيانا كما وصفها الله تعالى، {فلما تبين له} ذلك وعلم قدرة الله تعالى {قال أعلم أن الله على كل شيء قدير} والظاهر من سياق الآية أن هذا رجل منكر للبعث أراد الله به خيرا، وأن يجعله آية ودليلا للناس لثلاثة أوجه أحدها قوله {أنى يحيي هذه الله بعد موتها} ولو كان نبيا أو عبدا صالحا لم يقل ذلك، والثاني: أن الله أراه آية في طعامه وشرابه وحماره ونفسه ليراه بعينه فيقر بما أنكره، ولم يذكر في الآية أن القرية المذكورة عمرت وعادت إلى حالتها، ولا في السياق ما يدل على ذلك، ولا في ذلك كثير فائدة، ما الفائدة الدالة على إحياء الله للموتى في

قرية خربت ثم رجع إليها أهلها أو غيرهم فعمروها؟! وإنما الدليل الحقيقي في إحيائه وإحياء حماره وإبقاء طعامه وشرابه بحاله، والثالث في قوله: {فلما تبين له} أي: تبين له أمر كان يجهله ويخفى عليه، فعلم بذلك صحة ما ذكرناه، والله أعلم. ثم قال تعالى:

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}.

وهذا فيه أيضا أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه ببصره كيف يحيي الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عيانا ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلهذا قال الله له: {أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي} وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان ويكمل به الإيقان ويسعى في نيله أولو العرفان، فقال له ربه {فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك} أي: ضمهن ليكون ذلك بمرأى منك ومشاهدة وعلى يديك. {ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا} أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي: من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء {ثم ادعهن يأتينك سعيا} أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين} ثم قال: {واعلم أن الله عزيز حكيم} أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي منقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئا عبثا.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة البقرة (٢٥٣-٢٦٠)

الكلمة	المعنى
بروح القدس	بجبريل عليه السلام
لا بيعٌ فيه	لا فديةَ فيه
ولا خُلّة	ولا صداقةَ تنفع فيه
الحي	الذي له الحياة الكاملة الدائمة
القيوم	القائم بنفسه المقيم لغيره
سِنَة	نُعاس
كُرسِيُّه	الكرسي: موضع قدمي الرب سبحانه
ولا يؤُوده	ولا يُثقِله ولا يشقّ عليه
بالطاغوت	بعبادة ما سوى الله
بالعروة الوثقى	بالدين القويم
لا انفصام لها	لا انقطاع ولا زوال لها
فبُهِت	فتحيّر وانقطعت حجّته
خاوِية	فني سكانها وسقطت حيطانها
أنّى	كيف؟ للاستبعاد
لم يتسنّه	لم يتغيّر
نُنشِزُها	نركّب بعضها على بعض
فصُرْهنّ إليك	فضمّهنّ إليك
عزيز	له القوة والغلبة والامتناع
حكيم	يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة البقرة ٢٥٣-٢٦٠

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة البقرة من الآية الثالثة والخمسين بعد المائتين وحتى الآية الستين بعد المائتين.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى (تلك الرسل) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي وحده دون غيره من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله تعالى (فضلنا بعضهم على بعض) جملةٌ في محل رفع خبر المبتدأ (تلك)، و(الرسل) بدلٌ من اسم الإشارة، ولا يصح الفصل بين المبتدأ وخبره، فالأصح عدم الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فضلنا بعضهم على بعض)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ومنهم من جعل الوقف هنا لازمًا كما نص عليه السجاوندي، وهي علامة الوقف في مصحف المدينة، وسبب جعلهم له لازمًا أنه لو وصل لأوهم معنًى فاسدًا، ما الذي يوهمه؟ يوهم أن المفضل عليهم (منهم من كلم الله) فيصير من كلمه الله مفضولاً لا فاضلاً، وهذا خلاف المقصود من الآية، بل بين الله سبحانه وتعالى أنه فضل بعضهم على بعض، ومن أولئك الذين فُضلوا على غيرهم (من كلم الله).

والوقف هنا صحيحٌ من حيث مراعاة عدم إيهام المعنى الفاسد، ومن حيث أن الكلام قد انتهى، يعني أن الله سبحانه وتعالى قد بين أنه فضل بعض الرسل على بعض، ثم استأنف كلامًا جديدًا في منازل الأنبياء حين قال (منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجاتٍ وآتينا عيسى ابن مريم البينات) فهذا كلامٌ جديدٌ ليس له علاقةٌ بمجمل التفضيل، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (منهم من كلم الله)؟

نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (ورفع بعضهم درجات) جملةٌ مستأنفةٌ، يعني أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه قد رفع بعض الرسل درجاتٍ بعد أن أخبر أن منهم من كلمه الله تكليمًا، فالتقدير: ورفع الله بعض الرسل درجات، فيصح الوقف بناءً على ذلك، ومنهم من جعل (ورفع بعضهم

درجاتٍ) معطوفًا على (كلّم) أي قال: منهم من كلم الله ومنهم من رفع بعضهم درجات، وبناءً عليه لا وقف، والوجه الأول يعني كون الجملة مستأنفة هو الأصح، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ورفع بعضهم درجات)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (ورفع بعضهم درجات) قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً جديدةً في بيان منزلة عيسى عليه السلام، وعطف على منزلته جملةً في تأييده بروح القدس، بالإضافة إلى أن هذه الجملة أعني قول الله تعالى (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) صارت بصيغة المتكلم بعد أن كانت الجمل السابقة بصيغة الخبر، يعني قال (ورفع) الله (بعضهم درجات) صيغة خبر (منهم من كلم الله)، ثم قال (وآتينا) صيغة المتكلم (عيسى ابن مريم البينات) فلما انتقل إلى صيغة المتكلم صح الفصل بين الجملتين، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وآتينا عيسى ابن مريم البينات)؟

نص على أن الوقف هنا حسن الأشموني فقط دون غيره من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن جملة (وأيدناه بروح القدس) جملةٌ معطوفةٌ على جملة (آتينا)، وهي وثيقة الصلة بها؛ لأنها كلامٌ عن عيسى نفسه وعن تأييده بروح القدس بعد تأييده بالبينات، فالأصح هنا عدم الوقف، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأيدناه بروح القدس)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الكلام عن منزلة عيسى عليه السلام قد انتهى، ثم ابتدأ جملةً جديدةً متضمنةً معنى الشرط بقوله (ولو شاء الله) فهذا ابتداءٌ بالشرط مع واو الاستئناف.

وهل يصح الوقف على قوله (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات)؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن بعدها (لكن) التي هي للاستدراك، ولا يصح الوقف قبل (لكن) دائمًا.

وهل يصح الوقف على قوله (ولكن اختلفوا)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (فمنهم من آمن ومنهم من كفر) هي جملةٌ بيانيةٌ للاختلاف الذي ذكره الله، يعني أنهم اختلفوا بإيمان بعضهم وكفر بعضهم، فهي جملةٌ بيانيةٌ متفرعةٌ عن جملة (ولكن اختلفوا) فالأصح عدم الوقف على قوله (ولكن اختلفوا)، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فمنهم من آمن ومنهم من كفر)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي بعده قد تضمنت معنى الشرط في قوله (ولو شاء الله ما اقتتلوا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولو شاء الله ما اقتتلوا)؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن بعدها (ولكن الله يفعل ما يريد) التي هي للاستدراك، ولا يصح الوقف قبل الاستدراك، والله أعلم.

أنتقل للآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله بعدها (من قبل أن يأتي يوم) جار ومجرور متعلقٌ بقوله (أنفقوا)، يعني: أنفقوا من قبل أن يأتي يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خلةٌ ولا شفاعةٌ، فلا يصح الفصل بين الجار والمجرور وبين متعلقه، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا شفاعة)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، والواو في قوله (والكافرون) واوٌ استئنافيةٌ، وجملة (والكافرون هم الظالمون) جملةٌ مستأنفةٌ مكونةٌ من مبتدأ وخبر، فهي جملةٌ مستقلةٌ بنفسها، فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

أنتقل إلى آية الكرسي: في آية الكرسي عشرة مواضع للوقف، بعضها محل اختلاف وبعضها محل اتفاق.

الموضع الأول: في قوله تعالى (الله لا إله إلا هو) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوزه السجاوندي، وجعله الأنصاري صالحًا، والأشموني جعله محتملاً، وإذا تأملنا فإن قوله تعالى (الحي القيوم) قد اختلف العلماء في إعرابها، فمنهم من جعلها مبتدأ وخبرًا، ومنهم من جعلها خبرًا لمبتدأ محذوفٍ تقديره: هو الحي القيوم، ومنهم من جعلها صفةً للمبتدأ الذي هو (الله) في بداية الآية، ومنهم من جعلها خبرًا ثانيًا وثالثًا، وأصح الأقوال ما رجحه أبو حيان الأندلسي والأشموني كذلك من كونها صفة للمبتدأ الذي هو (الله)، أو أنها خبرٌ ثان وثالث، وعلى كلا القولين لا يصح الوقف قبلها، والله تعالى أعلم.

الموضع الثاني: (الحي القيوم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنها جملة إثبات أعقبت بجملة نفي، ويصح الفصل بينهما، (الحي القيوم) إثبات، (لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ) نفي، فصح الفصل بينهما.

الموضع الثالث: (لا تأخذه سنةٌ ولا نومٌ) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي قد انتهت، ثم ابتدأ الله ذكر أمرٍ جديدٍ وخبر جديدٍ بأنه سبحانه يملك ما في السماوات وما في الأرض، فهي جملةٌ مستأنفةٌ لا علاقة لها بما قبلها.

الموضع الرابع: قوله تعالى (له ما في السماوات وما في الأرض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة استفهام (من ذا الذي) ويصح الابتداء بالاستفهام عادةً.

الموضع الخامس: (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الاستفهام قد انتهى، وابتدأ بعدها بذكر خبرٍ جديدٍ بقوله (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم).

الموضع السادس: قوله تعالى (يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ما أخبر الله به عن نفسه سبحانه قد انتهى، ثم بدأ الإخبار بضعف الخلق وضعف علمهم وقصورهم بقوله (ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شاء) وهي كذلك جملة نفيٍ يصح الابتداء بها، فصح الوقف على قوله (وما خلفهم).

الموضع السابع: (ولا يحيطون بشيءٍ من علمه إلا بما شاء) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي المتعلقة بالمخلوق قد انتهت، ثم ابتدأ بعدها بجملةٍ إثباتيةٍ متعلقةٍ بسعة كرسيه سبحانه وتعالى، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الموضع الثامن: (وسع كرسيه السماوات والأرض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الإخبار عن سعة الكرسي قد انتهى، ثم ابتدأ جملة نفيٍ بين فيه أنه لا يشق عليه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

الموضع التاسع: (ولا يؤوده حفظهما) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (وهو العلي العظيم) جملةٌ مستأنفةٌ أو هي معطوفةٌ عطف جملٍ، وهي من قبيل الإثبات بعد النفي، فصح الفصل، والله أعلم.

والموضع العاشر هو رأس الآية، والوقف على رؤوس الآي سنةٌ متبعةٌ.
هذا خلاصة ما في آية الكرسي.
أنتقل إلى الآية التي تليها: (لا إكراه في الدين) هل يصح الوقف هنا؟
نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، وجملة (قد تبين الرشد من الغي) هي في الحقيقة جملةٌ تعليليةٌ لعدم الإكراه في الدين، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قد بين أنه لا يكره أحدٌ على الدخول في الدين لأنه قد تبين الرشد من الغي، واتضح سبيل الحق من سبل الضلال، فصارت جملة (قد تبين) جملةٌ بيانيةٌ تعليلةٌ مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بجملة (لا إكراه في الدين) فالأوجه هنا عدم الوقف، والله أعلم.
وهل يصح الوقف على قوله (قد تبين الرشد من الغي)؟
الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد انتهى من بيان حكم الإكراه في الدين وتعليله، ثم ابتدأ جملةً شرطيةً بقوله (فمن يكفر بالطاغوت) فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.
وهل يصح الوقف على قوله (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى)؟
الجواب: لا، لماذا؟ لأن قوله: (لا انفصام لها) في محل حال للعروة أي: فقد استمسك بالعروة الوثقى غير منفصمة، فلا يصح الوقف هنا، والله أعلم.
وهل يصح الوقف على قوله (لا انفصام لها)؟
الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (والله سميع عليم) جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف قبلها والابتداء بها.
الآية التي تليها: (الله ولي الذين آمنوا) هل يصح الوقف هنا؟
الجواب: لا، نص على المنع منه السجاوندي والأشموني، لأن قوله (يخرجهم من الظلمات إلى النور) جملةٌ في محل نصب حال، والتقدير: الله يلي الذين آمنوا مخرجًا لهم من الظلمات إلى النور.
وهل يصح الوقف على قوله (إلى النور)؟
الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء حتى يتم الفصل بين الفئتين المتضادتين، لأنه أخبر أنه ولي الذين آمنوا، وأنه يخرجهم من الظلمات إلى النور، وانتهت الجملة، ثم أخبر أن الذين كفروا أولياؤهم الطاغوت وأنهم يخرجونهم من النور إلى الظلمات، فحتى يفصل بين الفئتين المتضادتين يوقف على قوله (إلى النور).

وهل يصح الوقف على قوله (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت)؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن (يخرجونهم) أيضًا في محل نصب حال، يعني حالهم أنهم يخرجونهم من النور إلى الظلمات.

وهل يصح الوقف على قوله (يخرجونهم من النور إلى الظلمات)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى قد انتهى من بيان حال الذين كفروا وحال أوليائهم الذين يخرجونهم من النور إلى الظلمات، ثم استأنف بقوله (أولئك أصحاب النار).

وهل يصح الوقف على قوله: (أولئك أصحاب النار)؟

نص على الوقف هنا السجاوندي والأشموني تجويزًا، ووضعت هنا علامة الوصل أولى في مصحف المدينة، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وجملة (هم فيها خالدون) هي جملةٌ مليئةٌ بالضمائر (هم) يعني الكفار (فيها) يعني النار (خالدون) فالأوجَه عدم الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن جملة (أن آتاه الله الملك) هي جملةٌ في محل مفعول لأجله، يعني إنما حاج إبراهيم لأن آتاه الله الملك، فلا يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (أن آتاه الله الملك)؟

صحح الوقف هنا الداني، وجوزه الأنصاري والأشموني، وجعله السجاوندي لازمًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن الله سبحانه وتعالى قد أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم أن هذا الذي آتاه الله الملك قد حاج إبراهيم في ربه، ثم بدأ بذكر المحاجة وتفصيلها، فصح الوقف عند الانتهاء من ذكر خبر أنه قد حصلت محاجة بين هذا الملِك وبين إبراهيم، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت)؟

جعل الأنصاري الوقفَ هنا صالحًا، وجعله الأشموني حسنًا، ومنع منه السجاوندي، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قول إبراهيم قد انتهى عند قوله (ربي الذي يحيي ويميت) ثم ابتدأ قول الملك حين قال (أنا أحيي وأميت)، والأصل أنه يصح الفصل بين قول المتخاطبَين كما سبق ذلك في أمثلة كثيرة، لكن الإشكال هنا أنه قد جاءت (إذ) في بداية القصة (إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت)

يعني كأنه قال: لما قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال الملك أنا أحيي وأميت، فصار قول الملك متصلاً اتصالاً لفظيًا، فهذه نظرة من منع من الوقف هنا، أما من جوزه فقد نظر إلى أنه قولٌ قد انتهى وبدأ قول الطرف الآخر، والأمر في هذا محتمل، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قال أنا أحيي وأميت)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جواب الملك لإبراهيم قد انتهى هنا، ثم انتقل إبراهيم عليه السلام إلى حجةٍ أخرى فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب)؟

الجواب: لا، لبيان موقف الملك الكافر من هذه الحجة القاطعة.

وهل يصح الوقف على قوله (فبُهت الذي كفر)؟

الجواب، نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (والله لا يهدي القوم الظالمين) جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والجملة التي قبلها قد انتهت بحجة إبراهيم عليه السلام وتحير وانقطاع الملك الكافر، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (أو كالذي مر على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها) هل يصح الوقف هنا؟

جوزه السجاوندي والأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها) هي من تتمة بيان موقف هذا الذي مر على قريةٍ، يعني أن الله سبحانه وتعالى أخبر فقال: ألم تر إلى الذي مر على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها فقال أنى يحيي هذه الله بعد موتها، ثم ذكر مصيره وما قدره الله سبحانه وتعالى عليه، فالأوجه عدم الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها)؟

الجواب: نعم، جوزه السجاوندي، وجعله الأشموني حسنًا، ووضعت علامة الوصل أولى هنا في مصحف المدينة، ووجهه أن قوله قد انتهى، يعني لما قال (أنى يحيي هذه الله بعد موتها) ثم بدأ بذكر ما قدره الله سبحانه وتعالى عليه، وابتدأه بفاء الجواب (فأماته الله مائة عام) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فأماته الله مائة عامٍ ثم بعثه)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد انتهى من ذكر الخبر، خبر ما فعله الله به وقدّره عليه من الموت مائة عام ثم بعثه، ثم ابتدأ الخطاب بقوله (قال كم لبثت) فصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (قال كم لبثت)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قول الله وكلامه له قد انتهى، وبدأ جوابه بقوله (قال لبثت يومًا أو بعض يوم).

وهل يصح الوقف على قوله (أو بعض يوم)؟

الجواب: نعم، ونص عليه علماء الوقف والابتداء ووجهه أن قوله قد انتهى وابتدأ جواب الله له بقوله (قال بل لبثت مائة عام).

وهل يصح الوقف على قوله (قال بل لبثت مائة عام)؟

جوزه الأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الخبر قد انتهى هنا، بمعنى أن الله سأله كم لبثت فقال يومًا أو بعض يوم، فأخبره أنه لبث مائة عام، ثم ابتدأ بذكر آية الله سبحانه وتعالى في إحيائه بعد المائة عام مع حفظ طعامه وشرابه وموت حماره، فالوقف هنا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى أمره بأن ينظر إلى ثلاثة أمور، وعطفت بعضها على بعضٍ من باب عطف الجمل فصح الفصل بينها.

الأمر الأول: أن ينظر إلى طعامه وشرابه وأنه لم يتغير مع مرور مائة عام عليه، والأمر الثاني أن ينظر إلى حماره، والأمر الثالث أن ينظر إلى العظام كيف يركبها الله بعضها على بعض ثم يكسوها لحمًا، فهذه ثلاث جملٍ يصح الفصل بينها والعطف فيها من باب عطف الجمل، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثم نكسوها لحمًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى أمره بأن ينظر إلى أمورٍ وقد انتهت الأمور هنا، ثم ابتدأ جملةً متضمنةً معنى الشرط بقوله (فلما تبين له) وقد تضمنت موقفه مما أراه الله من هذه الآيات أنه قال (أعلم أن الله على كل شيءٍ قديرٌ).

وهل يصح الوقف على قوله (فلما تبين له)؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ (فلما) فعله (تبين له) جوابه (قال أعلم أن الله على كل شيءٍ قديرٌ).

الآية الأخيرة: (وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن كلام إبراهيم وطلبه قد انتهى هنا، وبدأ جواب الله عليه، فصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (قال أو لم تؤمن)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قول الله قد انتهى وابتدأ جواب إبراهيم عليه.

وهل يصح الوقف على قوله (قال بلى)؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن بعدها (لكن) التي للاستدراك هذا من وجهٍ، ولأن قول إبراهيم لم ينته بعد، لأنه قال (بلى ولكن ليطمئن قلبي).

وهل يصح الوقف على قوله (ليطمئن قلبي)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قول إبراهيم قد انتهى، وبدأ كلام الله له.

وهل يصح الوقف على قوله (قال فخذ أربعةً من الطير فصرهن إليك)؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن قول الله لم ينتهِ بعد، ولأن بعدها (ثم) العاطفة فلم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (ثم ادعهن يأتينك سعيًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، مع أن قوله (واعلم أن الله عزيزٌ حكيمٌ) من تتمة قول الله سبحانه وتعالى، لكن ذكروا هنا وجهًا لطيفًا وهو أنه قد اعترض بين الجمل المعطوفة جواب الأمر، أين جواب الأمر؟

تأمل معي، قال له (خذ) ثم قال (اجعل) ثم قال (ادعهن) ثم قال (واعلم) لكن هي أوامر تخلل بينها جواب الأمر، أين؟ في قوله (يأتينك سعيًا) تأمل معي، قال (خذ أربعةً من الطير فصرهن إليك) يعني قطعهن (ثم اجعل على كل جبلٍ منهن جزءًا ثم ادعهن) (واعلم) هذا كله أوامر له، لكن قوله (يأتينك سعيًا) يعني سيأتينك سعيًا إذا دعوتهن، فلما اعترض جواب الأمر بين هذه الجمل المعطوفات وهذه الأوامر التي هي كلها من قول الله سبحانه وتعالى صحح بعض علماء الوقف والابتداء الوقف هنا، وله وجهٌ، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

لطائف سورة البقرة ٢٥٣-٢٦٠

فضائل آية الكرسي:

عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟» قال: قلت: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} . قال: فضرب في صدري، وقال: «والله ليهنك العلم أبا المنذر» صحيح مسلم (١/ ٥٥٦).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته، وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إني محتاج، وعلي عيال ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة»، قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة، وعيالا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك، وسيعود»، فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال، لا أعود، فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك»، قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة، وعيالا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود»، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات، أنك تزعم لا تعود، ثم تعود قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} ، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما فعل أسيرك البارحة»، قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: «ما هي»، قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} ، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء

على الخير - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة»، قال: لا، قال: «ذاك شيطان». صحيح البخاري (٣/ ١٠١).

عن أبي بن كعب رضي الله عنه، أنه كان له جرين تمر فكان يجده ينقص فحرسه ليلة، فإذا هو بمثل الغلام المحتلم فسلم عليه فرد عليه السلام، فقال: أجني، أم إنسي؟ فقال: بل جني، فقال: أرني يدك فأراه، فإذا يد كلب وشعر كلب، فقال: هكذا خلق الجن، فقال: لقد علمت الجن إنه ليس فيهم رجل أشد مني، قال: ما جاء بك، قال: أنبئنا أنك تحب الصدقة فجئنا نصيب من طعامك، قال: ما يجيرنا منكم؟ قال: تقرأ آية الكرسي من سورة البقرة {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} قال: نعم، قال: إذا قرأتها غدوة أجرت منا حتى تمسي، وإذا قرأتها حين تمسي أجرت منا حتى تصبح، قال أبي: فغدوت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك، فقال: «صدق الخبيث». المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٧٤٩).

أخرج الترمذي والحاكم من حديث أبي هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لكل شيء سناما، وإن سنام القرآن البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن آية الكرسي).
أخرج ابن حبان والنسائي من حديث أبي أمامة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من قرأ آية الكرسي دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت). الإتقان في علوم القرآن (٤/ ١٢٧).

قال ابن العربي: إنما صارت آية الكرسي أعظم لعظم مقتضاها، فإن الشيء إنما يشرف بشرف ذاته ومقتضاه ومتعلقاته وهي في آي القرآن ك {قل هو الله أحد} في سوره. البرهان في علوم القرآن (١/ ٤٤٢).

وقال ابن المنيّر: اشتملت آية الكرسي على ما لم تشتمل عليه آية من أسماء الله تعالى، وذلك أنها مشتملة على سبعة عشر موضعا، فيها اسم الله تعالى ظاهرا في بعضها ومستكنا في بعض وهي: الله، هو، الحي، القيوم، ضمير {تأخذه}، و"له"، و"عنده"، و"بإذنه"، و"يعلم"، و"عِلمِه"، و"شاء"، و"كرسيه"،

و"يؤوده"، وضمير "حفظهما" المستتر الذي هو فاعل المصدر، وهو العلي، العظيم. الإتقان في علوم القرآن (٤/ ١٤٢).

اسم الله الأعظم:

عن أسماء بنت يزيد، قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: في هذه الآيتين {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} و {الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم} (إن فيهما اسم الله الأعظم). مسند أحمد (٤٥/ ٥٨٤).

عن أسماء بنت يزيد، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}، {وإلهكم إله واحد}). سنن الدارمي (٤/ ٢١٣٣).

عن أبي أمامة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " إن اسم الله الأعظم لفي ثلاث سور من القرآن: في سورة البقرة، وآل عمران، وطه " فالتمستها فوجدت في سورة البقرة آية الكرسي: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}، وفي سورة آل عمران: {الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم}، وفي سورة طه: {وعنت الوجوه للحي القيوم}. المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٦٨٦).

سبب نزول: (لا إكراه في الدين):

عن ابن عباس، قال: " كانت المرأة تكون مقلاتا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}. قال أبو داود: المقلات: التي لا يعيش لها ولد. سنن أبي داود (٣/ ٥٩).

(الله ولي الذين آمنوا) (والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت):

قال ابن عثيمين: {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت}؛ إذا تأملت هذه الجملة، والتي قبلها تجد فرقا بين التعبيرين في الترتيب: ففي الجملة الأولى قال تعالى: {الله ولي الذين آمنوا} لأمور ثلاثة؛ أحدها: أن هذا الاسم الكريم إذا ورد على القلب أولا استبشر به؛ ثانيا: التبرك بتقديم ذكر اسم الله عز وجل؛ ثالثا: إظهار

المنة على هؤلاء بأن الله هو الذي امتن عليهم أولا، فأخرجهم من الظلمات إلى النور؛ أما الجملة الثانية: {والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت} ؛ ولو كانت الجملة على سياق الأولى لقال: «والطاغوت أولياء الذين كفروا» ؛ ومن الحكمة في ذلك: أولا: ألا يكون الطاغوت في مقابلة اسم الله؛ ثانيا: أن الطاغوت أهون، وأحقر من أن يبدأ به، ويقدم؛ ثالثا: أن البداءة بقوله تعالى: {والذين كفروا} أسرع إلى ذمهم مما لو تأخر ذكره. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٧٢).

(ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك...):

قال ابن عثيمين: و {حاج} : هذه صيغة مفاعلة؛ وصيغة المفاعلة لا تكون غالبا إلا بين اثنين، كـ «قاتل»، و «ناظر»، و «دافع» – أقول: غالبا؛ لئلا يرد علينا مثل: «سافر» ؛ فإنها من واحد. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٧٨).

(أو كالذي مرّ على قرية):

قال ابن الجوزي: وفي الذي مر عليها ثلاثة أقوال: أحدها: أنه عزير، قاله علي بن أبي طالب، وأبو العالية، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وناجية بن كعب، وقتادة، والضحاك، والسدي، ومقاتل. والثاني: أنه أرمياء، قاله وهب، ومجاهد وعبد الله بن عبيد بن عمير. والثالث: أنه رجل كافر شك في البعث، نقل عن مجاهد أيضا. زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٣٣).

قال ابن كثير: وذكر غير واحد أنه مات وهو ابن أربعين سنة؛ فبعثه الله وهو كذلك، وكان له ابن فبلغ من السن مائة وعشرين سنة، وبلغ ابن ابنه تسعين وكان الجد شابا وابنه وابن ابنه شيخان كبيران قد بلغا الهرم... وأما القرية: فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها. تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٧).

(أو كالذي مر على قرية):

قال ابن عثيمين: «القرية» مأخوذة من القري؛ وهي الجمع؛ وتطلق على الناس المجتمعين في البلد؛ وتطلق على البلد نفسها – حسب السياق – فمثلا في قوله تعالى: {قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية}

المراد بـ «القرية» هنا المساكن؛ لأنه تعالى قال: {أهل هذه القرية}؛ وأما في قوله تعالى: {فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة} فالمراد بـ «القرية» هنا أهلها؛ والدليل قوله تعالى: {أهلكناها} ، وقوله تعالى: {وهي ظالمة}: وهذا لا يوصف به البلد.

فتبين أن القرية يراد بها أحيانا البلد التي هي محل مجتمع الناس؛ ويراد بها القوم المجتمعون – على حسب السياق؛ وكما قال أولاد يعقوب لأبيهم: {واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها}: فالمراد بـ «القرية» هنا أهلها؛ والدليل قوله تعالى: {واسأل القرية} ؛ لأن السؤال لا يمكن أن يوجه إلى القرية التي هي البناء. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٨٨).

(قال أولم تؤمن):

قال ابن عثيمين: {قال أو لم تؤمن}: هذا الاستفهام للتقرير؛ وليس للإنكار، ولا للنفي؛ فهو كقوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك}؛ يعني: قد شرحنا لك. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٩٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد سورة البقرة ٢٥٣-٢٦٠

(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض):

قال ابن تيمية: ومعلوم أن المرسلين يتفاضلون، تارة في الكتب المنزلة عليهم، وتارة في الآيات والمعجزات الدالة على صدقهم، وتارة في الشرائع وما جاءوا به من العلم والعمل وتارة في أممهم. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ١٣٣).

وقال ابن عثيمين: فضل الله يؤتيه من يشاء؛ حتى خواص عباده يفضل بعضهم على بعض؛ لأن الرسل هم أعلى أصناف بني آدم، ومع ذلك يقع التفاضل بينهم بتفضيل الله.

ويتفرع عليها فائدة أخرى: أن الله يفضل أتباع الرسل بعضهم على بعض، كما قال تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس}، وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «خير الناس قرني» [متفق عليه]؛ كما أن من كان من الأمم أخلص لله، وأتبع لرسله فهو أفضل ممن دونه من أمته؛ لأن الرسل إذا كانوا يتفاضلون فأتباعهم كذلك يتفاضلون؛ فإن قلت: كيف نجمع بين هذه الآية المثبتة للتفاضل بين الرسل؛ وبين قوله صلى الله عليه وسلم: «لا تخيروني على موسى» [متفق عليه]، ونهيه صلى الله عليه وسلم أن يفاضل بين الأنبياء؟

فالجواب: أن يقال: في هذا عدة أوجه من الجمع؛ أحسنها أن النهي فيما إذا كان على سبيل الافتخار والتعالي: بأن يفتخر أتباع محمد صلى الله عليه وسلم على غيرهم، فيقولوا: محمد أفضل من موسى مثلا؛ أفضل من عيسى؛ وما أشبه ذلك؛ فهذا منهي عنه؛ أما إذا كان على سبيل الخبر فهذا لا بأس به؛ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» [أحمد والترمذي]. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٣٩).

(منهم من كلّم الله):

قال ابن تيمية: وقال تعالى: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا} إلى آخر السورة. فقد بين سبحانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة: إما وحيا وإما من وراء حجاب وإما أن يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء؛ فجعل الوحي غير التكليم، والتكليم من وراء حجاب كان لموسى، وقد أخبر في غير موضع أنه ناداه كما قال: {وناديناه من جانب الطور} الآية. وقال: {فلما أتاها نودي من شاطئ الوادي الأيمن} الآية. والنداء باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا صوتا مسموعا فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم. مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٩).

وقال ابن عثيمين: {منهم من كلم الله} ؛ وكلام الله عز وجل عند أهل السنة والجماعة من صفاته الذاتية الفعلية؛ فباعتبار أصله من الصفات الذاتية؛ لأنه صفة كمال؛ والله عز وجل موصوف بالكمال أزلا، وأبدا؛ أما باعتبار آحاده – أنه يتكلم إذا شاء – فهو من الصفات الفعلية؛ لأنه يتعلق بمشيئته. قال الله تعالى: {إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون}، وقال تعالى: {ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه}؛ حصل الكلام بعد مجيئه لميقات الله؛ ولهذا حصل بينهما مناجاة: {قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني}؛ فقال تعالى: {لن تراني} بعد أن قال موسى: {رب أرني أنظر إليك}؛ هذا هو الحق في هذه المسألة. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٤٠)

وقال أيضا: كلام الله للإنسان يعتبر رفعة له؛ لأن الله تعالى ساق قوله: {منهم من كلم الله} على سبيل الثناء، والمدح. ومنه يؤخذ علو مقام المصلي؛ لأنه يخاطب الله عز وجل، ويناجيه كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم: فإذا قال المصلي: {الحمد لله رب العالمين}، قال الله: «حمدني عبدي»؛ وإذا قال المصلي: {الرحمن الرحيم} قال الله: «أثنى علي عبدي» إلى آخر الحديث [مسلم]. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٤٠).

(ورفع بعضهم درجات):

قال ابن تيمية: فضل محمد صلى الله عليه وسلم ثبت بالنصوص الدالة على ذلك، كقوله صلى الله عليه وسلم: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر). وقوله: (آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك)، وليلة المعراج رفع الله درجته فوق الأنبياء كلهم فكان أحقهم بقوله تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات} إلى غير ذلك من الدلائل...
محمد صلى الله عليه وسلم، لم يكن في نبوته محتاجا إلى غيره، فلم تحتج شريعته إلى سابق ولا إلى لاحق؛ بخلاف المسيح أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة، وجاء المسيح فكملها؛ ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح: كالتوراة والزبور... وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدّثين؛ بخلاف أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الله أغناهم به فلم يحتاجوا معه إلى نبي ولا إلى محدّث؛ بل جمع له من الفضائل والمعارف والأعمال الصالحة ما فرّقه في غيره من الأنبياء؛ فكان ما فضّله الله به من الله بما أنزله إليه وأرسله إليه لا بتوسط بشر. مجموع الفتاوى (١١/ ٢٢٤).

وفي حديث الإسراء المتفق على صحته أنه لما جاوز موسى قال: رب لم أظن أن ترفع علي أحدا، ثم علا فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاوز سدرة المنتهى.

وفي صحيح مسلم من حديث عمرو بن العاص أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى علي صلاة واحدة صلى الله عليه عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة).

وقال ابن عثيمين: وفي المعراج وجد النبي صلى الله عليه وسلم إبراهيم في السماء السابعة؛ وموسى في السادسة؛ وهارون في الخامسة؛ وإدريس في الرابعة [البخاري]؛ وهكذا؛ وهذا من رفع الدرجات. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٣٦).

وقال أيضا: كذلك مراتب أهل الجنة درجات: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن أهل الجنة يتراءون أصحاب الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم؛ قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين». تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٤١).

(وأيّدناه بروح القدس):

قال ابن عثيمين: الرد على النصارى في زعمهم أن عيسى إله؛ لقوله تعالى: {وأيدناه بروح القدس}؛ أي: قوّيناه؛ ولازم ذلك أنه يحتاج إلى تقوية؛ والذي يحتاج إلى تقوية لا يصلح أن يكون ربا، وإلها. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٤٢).

(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم):

قال ابن عثيمين: الإنفاق من مقتضى الإيمان، وأن البخل نقص في الإيمان؛ ولهذا لا يكون المؤمن بخيلا؛ المؤمن جواد بعلمه؛ جواد بجاهه؛ جواد بماله؛ جواد ببدنه. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٤٧).

وقال أيضا: «من» يحتمل أن تكون بيانية؛ أو تبعيضية؛ والفرق بينهما أن البيانية لا تمنع من إنفاق جميع المال؛ لأنها بيان لموضع الإنفاق؛ والتبعيضية تمنع من إنفاق جميع المال؛ وبناء على ذلك لا يمكن أن يتوارد المعنيان على شيء واحد لتناقض الحكمين. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٤٥).

(ولا شفاعة):

قال ابن تيمية: واحتج هؤلاء المنكرون للشفاعة بقوله تعالى: {واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل} وبقوله: {ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة} وبقوله: {من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة} وبقوله: {ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع} وبقوله: {فما تنفعهم شفاعة الشافعين} . وجواب أهل السنة أن هذا لعله يراد به شيئان:

أحدهما: أنها لا تنفع المشركين، كما قال تعالى في نعتهم: {ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين} فهؤلاء نفى عنهم نفع شفاعة الشافعين لأنهم كانوا كفارا.

والثاني: أنه يراد بذلك نفي الشفاعة التي أثبتها أهل الشرك، ومن شابههم من أهل البدع، من أهل الكتاب والمسلمين، الذين يظنون أن للخلق عند الله من القدر أن يشفعوا عنده بغير إذنه، كما يشفع الناس بعضهم عند بعض فيقبل المشفوع إليه شفاعة الشافع لحاجته إليه رغبة ورهبة، كما يعامل المخلوق المخلوق بالمعاوضة. قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (١/ ١٢).

وقال أيضا: وأما سلف الأمة وأئمتها، ومن تبعهم من أهل السنة والجماعة، فأثبتوا ما جاءت به السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم، من شفاعته لأهل الكبائر من أمته، وغير ذلك من أنواع شفاعاته، وشفاعة غيره من النبيين والملائكة. وقالوا: إنه لا يخلد في النار من أهل التوحيد أحد، وأقروا بما جاءت به السنة من انتفاع الإنسان بدعاء غيره وشفاعته، والصدقة عنه، بل والصوم عنه في أصح قولي العلماء، كما ثبتت به السنة الصحيحة الصريحة، وما كان في معنى الصوم.

وقالوا: إن الشفيع يطلب من الله ويسأل، ولا تنفع الشفاعة عنده إلا بإذنه. قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ} {وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى} . {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} . اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (٢/ ٣٦٠).

(الله لا إله إلا هو الحي القيوم...):

قال ابن تيمية: ومع هذا فقد جرّب المجرّبون الذين لا يحصون كثرة أن لها من التأثير في دفع الشياطين وإبطال أحوالهم ما لا ينضبط من كثرته وقوته فإن لها تأثيرا عظيما في دفع الشيطان عن نفس الإنسان وعن المصروع وعن من تعينه الشياطين مثل أهل الظلم والغضب وأهل الشهوة والطرب وأرباب السماع المكاء والتصدية إذا قرئت عليهم بصدق دفعت الشياطين وبطلت الأمور التي يخيلها الشيطان ويبطل ما عند إخوان الشياطين من مكاشفة شيطانية وتصرف شيطاني إذ كانت الشياطين يوحون إلى أوليائهم بأمور يظنها الجهال من كرامات أولياء الله المتقين وإنما هي من تلبيسات الشياطين على أوليائهم المغضوب عليهم والضالين. مجموع الفتاوى (١٩/ ٥٥).

(الحي القيوم):

قال ابن عثيمين: إثبات صفة الحياة لله عز وجل؛ وهي حياة كاملة: لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، ولا توصف بنقص، كما قال تعالى: {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم}، وقال تعالى: {وتوكل على الحي الذي لا يموت}، وقال تعالى: {ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام}.

ومنها: إثبات القيومية لله عز وجل؛ لقوله تعالى: {القيوم}؛ وهذا الوصف لا يكون لمخلوق؛ لأنه ما من مخلوق إلا وهو محتاج إلى غيره: فنحن محتاجون إلى العمال، والعمال محتاجون إلينا؛ ونحن محتاجون إلى النساء، والنساء محتاجة إلينا؛ ونحن محتاجون إلى الأولاد، والأولاد يحتاجون إلينا؛ ونحن محتاجون إلى المال، والمال محتاج إلينا من جهة حفظه، وتنميته؛ والكل محتاج إلى الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد}؛ وما من أحد يكون قائما على غيره في جميع الأحوال؛ بل في دائرة ضيقة؛ ولهذا قال الله تعالى: {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت}؛ يعني الله؛ فلا أحد سواه قائم على كل نفس بما كسبت. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٥٦-٢٥٧).

(لا تأخذه سنة ولا نوم):

في الصحيح عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات فقال: "إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور -أو النار-لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

(له ما في السماوات وما في الأرض):

قال ابن عثيمين: الله تعالى غني عما سواه؛ وأن كل شيء مفتقر إليه تعالى؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا، وبين قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم}، وقوله تعالى: {ولينصرن الله من ينصره}؛ فأثبت أنه يُنصر؟ فالجواب: أن المراد بنصره تعالى نصر دينه. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٥٧).

(من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه):

قال ابن كثير: وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه له في الشفاعة. تفسير ابن كثير (١/ ٦٧٩)

وقال ابن عثيمين: حتى أعظم الناس جاها عند الله لا يشفع إلا بإذن الله؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم يوم القيامة - وهو أعظم الناس جاها عند الله؛ ومع ذلك لا يشفع إلا بإذن الله لكمال سلطانه جل وعلا، وهيبته؛ وكلما كمل السلطان صار أهيب للملك، وأعظم. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٥٢).

وقال أيضا: إثبات الشفاعة بإذن الله؛ لقوله تعالى: {إلا بإذنه}؛ وإلا لما صح الاستثناء. ومنها: إثبات الإذن وهو الأمر؛ لقوله تعالى: {إلا بإذنه}؛ وشروط إذن الله في الشفاعة: رضى الله عن الشافع؛ وعن المشفوع له؛ لقوله تعالى: {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى}، وقوله تعالى: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى}. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٦٠).

(وسع كرسيه السماوات والأرض):

قال ابن عثيمين: والكرسي: هو موضع قدمي الله عز وجل؛ وهو بين يدي العرش كالمقدمة له؛ وقد صح ذلك عن ابن عباس موقوفا [الحاكم والطبراني]، ومثل هذا له حكم الرفع؛ لأنه لا مجال للاجتهاد فيه؛ وما قيل من

أن ابن عباس رضي الله عنهما يأخذ عن بني إسرائيل فلا صحة له؛ بل الذي صح عنه في البخاري أنه كان ينهى عن الأخذ عن بني إسرائيل؛ فأهل السنة والجماعة عامتهم على أن الكرسي موضع قدمي الله عز وجل. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٥٤).

وفي حديث أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش مثل تلك الحلقة في الفلاة، والعرش لا يقدر أحد قدره إلا الله) [ابن حبان].

(ولا يؤوده حفظهما):

قال ابن عثيمين: السماوات والأرض تحتاج إلى حفظ؛ لقوله تعالى: {ولا يؤوده حفظهما}؛ ولولا حفظ الله لفسدتا؛ لقوله تعالى: {إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليما غفورا}. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٦٢)

(لا إكراه في الدين...):

قال ابن تيمية: وجميع المهاجرين والأنصار آمنوا به طوعا واختيارا، قبل أن يؤمر أحد بقتال. فإنه مكث بمكة بضع عشرة سنة لا يقاتل أحدا، ولم يؤمر بقتال، بل كان لا يكره أحدا على الدين كما قال تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}. وكانوا خلقا كثيرا، ومعلوم أن الخلق الكثير الذين اتبعوا شخصا قد جاء بدين لا يوافقه عليه أحد، وطلب منهم أن يؤمنوا به ويتبعوه، ويفارقوا دين آبائهم، ويصبروا على عداوة الناس وأذاهم، ويهجروا لأجله ما ترغب النفوس فيه من الأهل والمال والوطن، وهو - مع ذلك - لم يعط أحدا منهم مالا، ولا كان له مال يعطيهم إياه، ولا ولى أحدا ولاية، ولم يكن عنده ولاية يوليهم إياها، ولا أكره أحدا، ولا بقرصة في جلده، فضلا عن سوط أو عصا أو سيف. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ٣٩٢-٣٩٣).

وقال ابن القيم: لما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم استجاب له ولخلفائه بعده أكثر أهل الأديان طوعا واختيارا، ولم يكره أحدا قط على الدين، وإنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله ولم يكرهه على الدخول في دينه امتثالا لأمر ربه سبحانه وتعالى حيث يقول: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد

من الغي)، وهذا نفي في معنى النهي، أي لا تكرهوا أحدا على الدين. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (١/ ٢٣٧).

(قد تبين الرشد من الغي):

قال ابن عثيمين: وتبين الرشد من الغي بعدة طرق:

أولا: بالكتاب؛ فإن الله سبحانه وتعالى فرق في هذا الكتاب العظيم بين الحق، والباطل؛ والصلاح، والفساد؛ والرشد، والغي، كما قال تعالى: {ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء} ؛ فهذا من أقوى طرق البيان.

ثانيا: بسنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنها بينت القرآن، ووضحته؛ ففسرت ألفاظه التي تشكل، ولا تعرف إلا بنص؛ وكذلك وضحت مجملاته، ومبهماته؛ وكذلك بينت ما فيه من تكميلات يكون القرآن أشار إليها، وتكملها السنة، كما قال تعالى: {وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون} .

الطريق الثالث: هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وسلوكه في عبادته، ومعاملته، ودعوته؛ فإنه بهذه الطريقة العظيمة تبين للكفار، وغير الكفار حسن الإسلام؛ وتبين الرشد من الغي.

الطريق الرابع: سلوك الخلفاء الراشدين؛ وفي مقدمتهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي؛ فإن بطريقتهم بان الإسلام، واتضح؛ وكذلك من كان في عصرهم من الصحابة على سبيل الجملة لا التفصيل؛ فإنه قد تبين بسلوكهم الرشد من الغي. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٦٥).

وقال أيضا: ليس هناك إلا رشد، أو غي؛ لأنه لو كان هناك ثالث لذكر؛ لأن المقام مقام حصر؛ ويدل لهذا قوله تعالى: {فماذا بعد الحق إلا الضلال} ، وقوله تعالى: {وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين} تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٦٧).

(فمن يكفر بالطاغوت):

قال ابن عثيمين: «الطاغوت» فسره ابن القيم بأنه كل ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع؛ مشتق من «الطغيان»؛ وهو تجاوز الحد: قال تعالى: {إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية}؛ لأن الماء الذي أغرق الله به الكفار بنوح تجاوز الحد حتى وصل إلى ما فوق قمم الجبال. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٦٦).

(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور):

قال ابن تيمية: وقال: {الله ولي الذين آمنوا} الآية. وقال: {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور} . والآيات في ذلك كثيرة. وهذا النور الذي يكون للمؤمن في الدنيا على حسن عمله واعتقاده يظهر في الآخرة كما قال تعالى: {نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم} الآية. مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٨٥).

وقال ابن القيم: ترى صاحب اتباع الأمر والسنة قد كسي من الروح والنور وما يتبعهما من الحلاوة والمهابة والجلالة والقبول ما قد حرمه غيره، كما قال الحسن: (إن المؤمن رزق حلاوة ومهابة). اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٤٢).

وقال ابن عثيمين: إثبات الولاية لله عز وجل؛ أي أنه سبحانه وتعالى يتولى عباده؛ وولايته نوعان؛ الأول: الولاية العامة؛ بمعنى أن يتولى شؤون عباده؛ وهذه لا تختص بالمؤمنين، كما قال تعالى: {وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا يفترون} يعني الكافرين؛ والنوع الثاني: ولاية خاصة بالمؤمنين، كقوله تعالى: {ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم}، وكما في قوله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا} ؛ ومقتضى النوع الأول أن لله تعالى كمال السلطان، والتدبير في جميع خلقه؛ ومقتضى النوع الثاني: الرأفة، والرحمة، والتوفيق. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٧٤).

(يخرجهم من الظلمات إلى النور):

قال البغوي: سمي الكفر: ظلمة لالتباس طريقه، وسمي الإسلام نورا لوضوح طريقه. تفسير البغوي (١/ ٣٥٠).

وقال ابن كثير: وحّد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال: {وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون} وقال تعالى: {وجعل الظلمات والنور} وقال تعالى: {عن اليمين والشمائل} إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق، وانتشار الباطل وتشعبه. تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٥).

(يخرجونهم من النور إلى الظلمات):

قال البغوي: فإن قيل: كيف يخرجونهم من النور إلى الظلمات وهم كفار لم يكونوا في نور قط؟ قيل: هم اليهود وكانوا مؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث لما يجدون في كتبهم من نعمته، فلما بعث كفروا به، وقيل: هو على العموم في حق جميع الكفار، وقالوا: منعهم إياهم من الدخول فيه: إخراج، كما يقول الرجل لأبيه: أخرجتني من مالك، ولم يكن فيه كما قال الله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام: إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله، ولم يكن قط في ملتهم. تفسير البغوي (١/ ٣٥١).

وقال ابن القيم: أولياؤهم يعيدونهم إلى ما خلقوا فيه، من ظلمة طبائعهم وجهلهم وأهوائهم، وكلما أشرق لهم نور النبوة والوحي وكادوا أن يدخلوا فيه منعهم أولياؤهم منه وصدوهم، فذلك إخراجهم إياهم من النور إلى الظلمات. اجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ٤٢).

وقال ابن عثيمين: إما أن يراد بهذا من كانوا على الإيمان أولا، ثم أخرجوا كما هو ظاهر اللفظ؛ أو يقال: هذا باعتبار الفطرة؛ فإن كل مولود يولد على الفطرة؛ فكانوا على الفطرة السليمة، والإيمان، ثم أخرجوهم، كقوله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه» [متفق عليه]. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٧٣).

(أن آتاه الله الملك):

قال ابن عثيمين: النعم قد تكون سببا للطغيان؛ لأن هذا الرجل ما طغى وأنكر الخالق إلا لأن الله آتاه الملك؛ ولهذا أحيانا تكون الأمراض نعمة من الله على العبد؛ والفقر والمصائب تكون نعمة على العبد؛ لأن الإنسان إذا دام في نعمة، وفي رغد، وفي عيش هنيء فإنه ربما يطغى، وينسى الله عز وجل. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٨١).

(قال أنا أحيي وأميت):

قال ابن كثير: قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي وغير واحد: وذلك أني أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل، وبالعفو عن الآخر فلا يقتل. فذلك معنى الإحياء والإماتة.

والظاهر -والله أعلم-أنه ما أراد هذا؛ لأنه ليس جوابا لما قال إبراهيم ولا في معناه؛ لأنه غير مانع لوجود الصانع. وإنما أراد أن يدعي لنفسه هذا المقام عنادا ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذي يحيي ويميت، كما اقتدى به فرعون في قوله: {ما علمت لكم من إله غيري}. تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٦).

(قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب):

قال ابن الجوزي: فإن قيل: لم انتقل إبراهيم إلى حجة أخرى، وعدل عن نصرة الأولى؟ فالجواب: أن إبراهيم رأى من فساد معارضته أمرا يدل على ضعف فهمه، فإنه عارض اللفظ بمثله، ونسي اختلاف الفعلين، فانتقل إلى حجة أخرى، قصدا لقطع المحاج لا عجزا عن نصرة الأولى. زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٣٣).

قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها وطلب إبراهيم من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى:

قال ابن تيمية: قصّ هذه القصة التي فيها موت البشر مائة عام، وموت حماره، ومعه طعامه وشرابه، ثم إحياء هذا الميت وإحياء حماره وبقاء طعامه وشرابه لم يتغير ولم يفسد، وهو في دار الكون والفساد التي لا يبقى فيها في العادة طعام وشراب بدون التغير بعض هذه المدة، وهذا يبين قدرته على إحياء الآدميين والبهائم، وإبقاء الأطعمة والأشربة لأهل الجنة في دار الحيوان بأعظم الدلالات.

وذكر بعد ذلك قول إبراهيم: {رب أرني كيف تحيي الموتى...}، فأمره بخلط الأطيار الأربعة مثلاً مضروباً لاختلاط الأخلاط الأربعة، ثم أحيى الأطيار، وميز بين هذا وهذا، وجعلهن يأتين سعياً إجابة لدعوة الداعي، فكان في ذلك من الدليل ما لا يخفى على ذي تحصيل. درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٣٧٦).

(وانظر إلى حمارك):

قال ابن عثيمين: جواز الانتفاع بالحمر؛ لقوله تعالى: {وانظر إلى حمارك}.

ومنها: ثبوت الملكية فيها: لأن الله أضاف الحمار إلى صاحبه؛ فقال تعالى: {حمارك}؛ فإن قلت: كيف تجمع بين هذا وبين قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله عز وجل إذا حرم أكل شيء حرم ثمنه»؛ وإثبات الملكية يقتضي حل الثمن؟

فالجواب: أنها إذا بيعت للأكل فهو حرام؛ لأنه هو المحرم؛ وأما إذا بيعت للانتفاع فهذا حلال؛ لأن الانتفاع بها حلال؛ إذا فهذا لا يعارض الحديث؛ فإذا اشترى الحمار للأكل فالثمن حرام؛ وإن اشتراه للمنفعة فالمنفعة حلال، وثمنها حلال. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٩٥).

(ولنجعلك آية للناس):

قال الطبري: وإنما عنى بقوله: (ولنجعلك آية)، ولنجعلك حجة على من جهل قدرتي، وشكَّ في عظمتي، وأنا القادر على فعل ما أشاء من إماتة وإحياء، وإنشاء، وإنعام وإذلال، وإقتار وإغناء، بيدي ذلك كلُّه، لا يملكه أحد دوني، ولا يقدر عليه غيري. وكان بعض أهل التأويل يقول: كان آية للناس، بأنه جاء بعد مائة عام إلى ولده وولد ولده، شابًّا وهم شيوخ. تفسير الطبري (٥/ ٤٧٤).

(وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى...):

قال أبو سليمان الخطابي: ليس في قوله صلى الله عليه وسلم: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» [متفق عليه] اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم، لكن فيه نفي الشك عنهما بقول: إذا لم أشك أنا في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك، وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس... وفيه الإعلام أن المسألة من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك، لكن من قبل زيادة العلم بالعيان، فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة ما لا يفيد الاستدلال. تفسير البغوي (١/ ٣٥٨).

قال ابن القيم: طلب إبراهيم أن يكون اليقين عيانا، والمعلوم مشاهدا، وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالشك في قوله: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» حيث قال {رب أرني كيف تحيي الموتى} وهو صلى الله عليه وسلم لم يشك ولا إبراهيم، حاشاهما من ذلك، وإنما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٤٦٩).

وقال ابن عثيمين: والسؤال هنا عن الكيفية لا عن الإمكان؛ لأن إبراهيم لم يشك في القدرة؛ ولا عن معنى الإحياء؛ لأن معنى الإحياء عنده معلوم؛ لكن أراد أن يعلم الكيفية: كيف يحيي الله الموتى بعد أن أماتهم، وصاروا ترابا وعظاما. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٢٩٩).

وقال أيضا: لا حرج على الإنسان أن يطلب ما يزداد به يقينه، لقوله تعالى: {أرني كيف تحيي الموتى} ؛ لأنه إذا رأى بعينه ازداد يقينه.

ومنها: أن عين اليقين أقوى من خبر اليقين؛ لقوله تعالى: {أرني كيف تحيي الموتى} ؛ لأن إبراهيم عليه السلام عنده خبر اليقين بأن الله قادر؛ لكن يريد عين اليقين؛ ولهذا جاء في الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة» [أحمد وابن حبان والحاكم]؛ وقد ذكر العلماء أن اليقين ثلاث درجات: علم؛ وعين؛ وحق؛ كلها موجودة في القرآن؛ مثال «علم اليقين» قوله تعالى: {كلا لو تعلمون علم اليقين} ؛ ومثال «عين اليقين» قوله تعالى: {ثم لترونها عين اليقين} ؛ ومثال «حق اليقين» قوله تعالى: {إن هذا لهو حق اليقين} .

نضرب مثالا يوضح الأمر: قلت: إن معي تفاحة حلوة – وأنا عندك ثقة؛ فهذا علم اليقين: فإنك علمت الآن أن معي تفاحة حلوة؛ فأخرجتها من جيبي، وقلت: هذه التفاحة؛ فهذا عين اليقين؛ ثم أعطيتك إياها، وأكلتها وإذا هي حلوة؛ هذا حق اليقين. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٠٣-٣٠٤).

(ولكن ليطمئنّ قلبي):

قال ابن عثيمين: إثبات زيادة الإيمان في القلب؛ لقوله تعالى: {بلى ولكن ليطمئن قلبي} ؛ ففيه رد على من قال: إن الإيمان لا يزيد، ولا ينقص؛ ولا ريب أن هذا القول ضعيف؛ لأن الواقع يكذبه؛ والنصوص تكذبه أيضا: ففي القرآن قال الله تعالى: {ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم}، وقال تعالى: {فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون} ؛ وفي السنة: «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن» [متفق عليه]؛ فالإيمان يزيد كمية، وكيفية؛ فمثال زيادة الكمية: أن الذي يسبح عشرا أزيد إيمانا من الذي يسبح خمسا؛ والذي يصلي عشر ركعات أزيد إيمانا من الذي يصلي ستا؛ وأما زيادة الكيفية فمثالها: رجل صلى ركعتين بطمأنينة، وخشوع، وتأمل فإيمانه أزيد ممن صلاهما بسرعة؛ كذلك يزداد الإيمان بحسب إقرار القلب: كلما كثرت الآيات لدى الإنسان فلا شك أن إيمانه يزداد قوة، ورسوخا. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٠٥-٣٠٦).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة البقرة ٢٥٣-٢٦٠

١- الرسل أفضل البشر على الإطلاق، وهم مع ذلك متفاضلون فيما بينهم، ومن أفضلهم محمد وموسى وعيسى عليهم السلام (تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلّم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البيّنات وأيّدناه بروح القدس).

٢- احرص على الإنفاق في وجوه الخير كلها من إطعام مسكين وكسوة يتيم وحفر بئر وبناء مسجد، فإنه من أكبر أسباب النجاة يوم القيامة (يا أيها الذين آمنوا أنقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة).

٣- أعظم الظلم وأكبره وأشنعه: الكفر بالله، فاحرص على سلامة دينك من الكفر وشعبه ووسائله، واسأل الله السلامة من ذلك، ولا تأمن على نفسك، فإن الفتن مدلهمّة (والكافرون هم الظالمون)، (والله لا يهدي القوم الظالمين).

٤- احرص على قراءة آية الكرسي قبل النوم وفي أدبار الصلوات وفي الصباح والمساء، وارقِ بها نفسك عند المرض، متأملا معانيها، مستشعرا ما تضمنته من عظمة الله وجلاله وكبريائه سبحانه وتعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم).

٥- من عظمة الله جل جلاله أنه: الإله المعبود الذي لا يستحق العبادة إلا هو، وأنه الحي حياة كاملة من كل وجه، وأنه القائم بنفسه المقيم لشؤون خلقه، وأنه لا يصيبه النعاس ولا النوم، وأنه يملك ما في السماوات وما في الأرض، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا بعد إذنه له، وأنه يعلم كل شيء مما كان ويكون، وأن الخلق لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء، وأن موضع قدميه سبحانه وسع السماوات والأرض، وأنه لا يشق عليه حفظ السماوات والأرض، وأنه العليّ بذاته وقهره وقدْره، وأنه العظيم في ذاته وملكه وجبروته وكبريائه وسلطانه سبحانه وتعالى (الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم) فما أعظمها من آية في بيان عظمة الله جلّ جلاله.

٦- دين الإسلام واضح بيّن، فلا حاجة إلى إكراه أحد لاعتناقه، بل كل عاقل اطّلع عليه يعلم علم اليقين أنه دين الله الحق (لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ).

٧- لا يتم إيمانك إلا بالكفر بالطاغوت مع الإيمان بالله، فمن آمن بالله ولم يكفر بالطاغوت فقد أخلّ بإيمانه (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها).

٨- راقب الله في جميع أقوالك وأفعالك وإراداتك، فإن الله سميع لأقوالك عليم بأفعالك وما تضمره في قلبك (والله سميع عليم).

٩- افرح بولاية الله لك، حيث سلّمك من ظلمات الكفر والشرك والنفاق والهوى إلى نور الإيمان والطاعة والهداية والاستسلام، واحمد الله أن اختارك لذلك واصطفاك وأكرمك من بين كثير من الناس الذين يرتعون في الضلالة والشقاء (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور).

١٠- احذر من أن تطغى إذا كثرت نعم الله عليك، ولا تكن ممن إذا أكرمه الله بمنصب أو جاه أو مال استكبر وطغى وتجبّر، بل كن شكورا لربك، خاضعا بين يديه، معترفا بالفضل له، مستكينا لقدرته (ألم تر إلى الذي حاجّ إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك).

١١- الله سبحانه وتعالى قادر قدير مقتدر، فهو الذي يحيي ويميت من شاء متى شاء كيف شاء، ويأتي بالشمس من المشرق، ويحفظ ما شاء ويُفسد ما شاء، ويدبّر أمور الكون كيف شاء، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون، فاسأله حاجاتك كلها، ولا تتعاظم شيئا من مسألتك (إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت)، (قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق)، (قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير).

١٢- الله سبحانه قادر على أن يبعث الناس بعد الموت، فهو الذي خلقهم أول مرة، والإعادة أهون من الابتداء، وقد ذكر الله لنا أحداثا عديدة لإحياء الموتى في الدنيا لتكون آية ودلالة على قدرة الله تعالى (وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما)، (قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا).

١٣- احرص على أن يصل قلبك إلى درجة الاطمئنان بجميع أخبار الله عن نفسه وعن الدار الآخرة وعمّا كان وسكون، وبجميع أحكام الله الشرعية، فذلك سبب لثبات قلبك في زمن الفتن (قال بلى ولكن ليطمئن قلبي).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة البقرة (٢٦١-٢٧١) من تفسير السعدي

{مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة} وهنا قال: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله} أي: في طاعته ومرضاته، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله {كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة} وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتنقاد النفس مذعنة للإنفاق سامحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، {والله يضاعف} هذه المضاعفة {لمن يشاء} أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون {والله يضاعف} أكثر من هذه المضاعفة {لمن يشاء} فيعطيهم أجرهم بغير حساب {والله واسع} الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاظمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو {عليم} بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

{الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ}

أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه ويطلب منه مقابلته، ولا أذية له قولية أو فعلية، فهؤلاء لهم أجرهم اللائق بهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندفع عنهم الشر لأنهم عملوا عملا خالصا لله سالما من المفسدات.

{قول معروف} أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له {ومغفرة} لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة إحسان أيضا بترك المؤاخذة، وكلاهما إحسان ما

فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمنّ أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المنّ بالصدقة مفسدا لها محرما، لأن المنّة لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمنّ بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضا فإن المانّ مستعبِدٌ لمن يمنّ عليه، والذّل والاستعباد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم، {والله غني} عنها، ومع هذا فهو {حليم} على من عصاه لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرّف لهم الآيات لعلهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم تعالى أنه لا خير فيهم ولا تغني عنهم الآيات ولا تفيد بهم المثلات أنزل بهم عقابه وحرمهم جزيل ثوابه.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}.

ينهى عباده تعالى لطفا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمنّ والأذى ففيه أن المنّ والأذى يبطل الصدقة، ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: {ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون} فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى {ولا تبطلوا أعمالكم} حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضيع العمل سدى، وقوله: {كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر} أي: أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنة والأذى مبطلان لأعمالكم، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراءاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وسعيه غير مشكور، فمثله المطابق لحاله {كمثل صفوان} وهو الحجر الأملس الشديد {عليه تراب فأصابه وابل} أي: مطر غزير {فتركه صلدا} أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرائي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه

غير صالح لنبات الزرع وزكائه عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله، فلهذا {لا يقدرون على شيء} من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضررا ولا نفعا وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهذا قال: {والله لا يهدي القوم الكافرين} .

{وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} .

هذا مثل المنفقين أموالهم على وجه تزكو عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم فقال تعالى: {ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله} أي: قصدهم بذلك رضى ربهم والفوز بقربه {وتثبيتا من أنفسهم} أي: صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس سخية به، لا على وجه التردد وضعف النفس في إخراجها وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان إما أن يقصد الإنسان بها محمدة الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتثبيتا من أنفسهم، فمثل نفقة هؤلاء {كمثل جنة} أي: كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، من الاجتنان وهو الستر، لستر أشجارها ما فيها، وهذه الجنة {بربوة} أي: محل مرتفع ضاح للشمس في أول النهار ووسطه وآخره، فثماره أكثر الثمار وأحسنها، ليست بمحل نازل عن الرياح والشمس، فـ {أصابها} أي: تلك الجنة التي بربوة {وابل} وهو المطر الغزير {فآتت أكلها ضعفين} أي: تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك، وحصول الماء الكثير الذي ينميها ويكملها {فإن لم يصبها وابل فطل} أي: مطر قليل يكفيها لطيب منبتها، فهذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمى له ما أنفق أتم تنمية وأكملها والمنمي لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها، فيالله لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم وتزاحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتها وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر فيه أنواع المسرات والفرحات، ومع هذا تجد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خامدة، أترى ذلك زهدا في الآخرة ونعيمها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو تيقن العبد ذلك حق اليقين وباشر الإيمان به بشاشة قلبه لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات، ولهذا

قال تعالى: {والله بما تعملون بصير} فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل، فيجازيه عليه أتم الجزاء ثم قال تعالى:

{أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}.

وهذا المثل مضروب لمن عمل عملا لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها ثم عمل أعمالا تفسده، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاء وقوتا وفاكهة وحلوى، وتلك الجنة فيها الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كل عليه، ونفقته ونفقتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجو، وفي ذلك الإعصار نار فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملا لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباء منثورا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه.

والله سريع الحساب فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية حسرته ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيما وخطره جسيما، فلهذا أمر تعالى بالتفكر وحثَّ عليه، فقال: {كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون}.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلا وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}.

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض فكما منَّ عليكم بتسهيل تحصيله فأنفقوا منه شكرا لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيرا لأموالكم،

واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة {واعلموا أن الله غني حميد} فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نصحا لكم، بل هذا غاية الغش {إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير} بل أطيعوا ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو {يعدكم مغفرة} لذنوبكم وتطهيرا لعيوبكم {وفضلا} وإحسانا إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانشراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة، وليس هذا عظيما عليه لأنه {واسع} الفضل عظيم الإحسان {عليم} بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، فلينظر العبد نفسه إلى أي الداعيين يميل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أمورا عظيمة منها: الحث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من النقدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: {من طيبات ما كسبتم} ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله {أخرجنا لكم} فمن أخرجت له وجبت عليه ومنها: أن الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصوب ونحوهما إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نمائها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدورا عليها فليس فيها هذا المعنى، ومنها: أن الرديء ينهى عن إخراجه ولا يجزئ في الزكاة ثم قال تعالى:

{يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الألْبَابِ} .

لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرا كثيرا وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتهما! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوتيه العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير

وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلهذا قال تعالى: {وما يذكر إلا أولو الألباب} .

{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ} .

وهذا فيه المجازاة على النفقات، واجبها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات ولم يوف ما أوجبه على نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره، فلهذا قال: {وما للظالمين من أنصار} .

{إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} .

أي: {إن تبدوا الصدقات} فتظهروها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله {فنعما هي} أي: فنعم الشيء {هي} لحصول المقصود بها {وإن تخفوها} أي: تسروها {وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم} ففي هذا أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات الفقراء فمفهوم الآية أن السر ليس خيرا من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الاقتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار، ودل قوله: {وتؤتوها الفقراء} على أنه ينبغي للمتصدق أن يتحرى بصدقته المحتاجين، ولا يعطي محتاجا وغيره أحوج منه، ولما ذكر تعالى أن الصدقة خير للمتصدق ويتضمن ذلك حصول الثواب قال: {ويكفر عنكم من سيئاتكم} ففيه دفع العقاب {والله بما تعملون خبير} من خير وشر، قليل وكثير والمقصود من ذلك المجازاة.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة البقرة (٢٦١-٢٧١)

الكلمة	المعنى
منًّا	تَعدادا للإحسان وإظهارًا له
حليم	لا يعاجل بالعقوبة
رئاء الناس	طلبا لرؤيتهم ومدحهم
صفوان	حجر أملس
وابِل	مطر غزير
صَلْدا	لا تراب عليه
وتثبيتا من أنفسهم	وتصديقا بثواب الله
جنة بِربْوة	بستان بمكان مرتفع
أُكُلَها	ثمرتها
فطلّ	فمطر خفيف
إعصار	ريح قوية مستديرة
ولا تيمّموا	ولا تقصدوا
الخبيث	الرديء
تُغمِضوا فيه	تتغاضوا عنه وتتسامحوا في أخذه
الحكمة	معرفة أسرار الشريعة، ووضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها
الألباب	العقول
من نَذر	من إلزام لأنفسكم بشيء
فنعمّا هي	فنعم الشيء هي

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة البقرة ٢٦١-٢٧١

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة البقرة من الآية الحادية والستين بعد المائتين وحتى الآية الحادية والسبعين بعد المائتين.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن المثل لم يأتِ بعد، مثلهم كمثل حبة، فلم يأتِ ذكر المثل بعد، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

(كمثل حبةٍ أنبتت سبع سنابل) هل يصح الوقف هنا؟

صحح الوقف هنا الهبطي، وجوزه النحاس والأشموني على وجه، وهو على أن ما بعده مستأنفٌ، يعني في كل سنبلةٍ مائة حبةٍ لو اعتبرناها جملةً مستأنفةً مكونةً من خبرٍ مقدمٍ ومبتدأٍ مؤخرٍ فإنه يصح الوقف هنا، وليس بوقفٍ إن جُعلت في محل نصب صفة للسبع سنابل، وهذا هو الأقرب، أنها صفةٌ للسنابل السبعة أن في كل سنبلةٍ منها مائة حبة، فالأوجه هنا عدم الوقف، والله أعلم.

(في كل سنبلةٍ مائة حبة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي بعده جملةٌ مستأنفةٌ (والله يضاعف لمن يشاء).

وهل يصح الوقف على قوله (لمن يشاء)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ إما مستأنفةٌ أو معطوفةٌ على الجملة المستأنفة، وهي من قبيل عطف الجمل، لما قال (والله يضاعف لمن يشاء)، قال (والله واسعٌ عليمٌ)، فهما جملتان كل واحدةٍ منهما مستأنفةٌ، ويصح أن تكون الجملة الثانية معطوفةٌ على الجملة الأولى، وهي قائمةٌ بنفسها، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن ما بعده معطوفٌ عليه بحرف العطف (ثم) وهو من تتمة وصفهم، يعني لم يوصفوا بمجرد أنهم ينفقون أموالهم في سبيل الله، إنما جمعوا مع هذا الوصف أنهم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًى، فلا يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًى)؟

الجواب: لا يصح، منع منه النحاس والسجاوندي، وسببه أن (الذين) في أول الآية مبتدأٌ، خبره (لهم أجرهم عند ربهم) فقوله (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله) جملةٌ في محل رفع مبتدأ، (ثم لا يتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذًى) جملةٌ معطوفةٌ على جملة المبتدأ، (لهم أجرهم عند ربهم) هذا هو خبر المبتدأ، ولا يصح الوقف قبل مجيء الخبر.

وهل يصح الوقف على قوله (لهم أجرهم عند ربهم)؟

صحح الوقف هنا الأنصاري والأشموني، وجوزه السجاوندي، وعلل التجويز بأنه من باب عطف الجملتين المختلفتين، وقصده بالجملتين المختلفتين (لهم أجرهم عند ربهم) جملة إثباتٍ، (ولا خوفٌ عليهم) جملة نفيٍ، فأثبت لهم شيئًا ونفى عنهم شيئًا، وهو من قبيل عطف الجمل، فالوقف هنا له وجهٌ، والله أعلم.

الآية التي تليها: (قولٌ معروفٌ) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا النحاس والأشموني، ووجهه عندهم أنه مرفوعٌ على إضمار المبتدأ أو إضمار الخبر، إضمار المبتدأ أن يقال تقديره: الذي يؤمرون به قولٌ معروفٌ، وإضمار الخبر تقديره: قولٌ معروفٌ أولى بكم، لكن الأصح أن (قولٌ معروفٌ) مرفوعٌ بالابتداء، وعطف عليه (ومغفرةٌ) وخبره (خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذًى) فهي جملةٌ لم تكتمل بعد، وبالتالي لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذًى)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (والله غنيٌّ حليمٌ) جملة مستأنفةٌ فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا، منع منه النحاس والسجاوندي والأشموني، ووجهه أن بعدها (كالذي ينفق ماله) وكاف التشبيه هنا متعلقةٌ بالجملة التي قبلها، فكأنه قال: لا تبطلوا صدقاتكم كإبطال الذين ينفق ماله رئاء الناس، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن التشبيه وجملة التشبيه قد انتهت، ثم ابتدأ بعدها جملةً تعليلةً مستأنفةً فيها بيان مثلٍ لهؤلاء الذين يبطلون صدقاتهم سواءً بالمن والأذى أو بالرياء، قال (فمثله كمثل صفوانٍ عليه ترابٌ).

وهل يصح الوقف على قوله (فأصابه وابلٌ فتركه صلدًا)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ومنع منه آخرون، وسبب الاختلاف النظر إلى قوله تعالى (لا يقدون على شيءٍ مما كسبوا) هل هي جملةٌ من تتمة المثل وتتمة وصف هؤلاء أو هي جملةٌ مستأنفةٌ، فمن اعتبرها جملةً مستأنفةً صحح الوقف على قوله (فتركه صلدًا) ومن اعتبرها من تتمة المثل لم يصحح الوقف هنا كما نص عليه النحاس، والوقف هنا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لا يقدرون على شيءٍ مما كسبوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ وهي قوله تعالى (والله لا يهدي القوم الكافرين) فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتًا من أنفسهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن ذكر المثل لم يأتِ بعد، قال (ومثل الذين ينفقون أموالهم) إلى أن قال (كمثل جنةٍ بربوةٍ) فلم يتم المثل بعد، فلذلك لم يصح الوقف هنا.

ثم قال (كمثل جنةٍ بربوةٍ أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين) هذا كله من تتمة المثل، فلا وقف فيه، والله أعلم، ومن أراد أن يقف هنا وقفًا حسنًا فإنه يصح له أن يقف أولاً على قوله (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتًا من أنفسهم)، ثم يعود فيقول (وتثبيتًا من أنفسهم كمثل جنةٍ بربوةٍ أصابها وابلٌ)، ثم يعود فيقول (أصابها وابلٌ فآتت أكلها ضعفين).

أما قوله (ضعفين) فنص على تجويز الوقف عليه السجاوندي والأشموني ونظروا إلى أن بعدها أداة شرطٍ (فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌّ) فهي جملةٌ شرطيةٌ، لكن هذه الجملة الشرطية إذا تأملناها فإنها من تتمة المثل، وليست جملةً شرطيةً مستقلةً بذاتها، فالأوجه هنا عدم الوقف، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فإن لم يصبها وابلٌ فطلٌ)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ وهي قوله تعالى (والله بما تعملون بصير).

الآية التي تليها: (أيود أحدكم أن تكون له جنةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات فأصابه الكبر وله ذريةٌ ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيها نارٌ فاحترقت) لا وقف في الآية إلا هنا، والسبب أن كل ما سبق عبارةٌ عن مثلٍ واحدٍ وصفةٍ واحدةٍ لا تكتمل إلا بارتباطها كاملةً، فلا وقف فيها إلا في نهايتها عند قوله (فاحترقت)، كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، وهنا ينتهي مقصود الاستفهام الذي ابتدئت به الآية في قوله (أيود أحدكم).

ولو أراد أن يقف هنا وقفًا حسنًا فإن له أن يقف أولاً على قوله (أيود أحدكم أن تكون له جنةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ)، ثم يعود فيقول (جنةٌ من نخيلٍ وأعنابٍ تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات)، ثم يعود فيقول (له فيها من كل الثمرات وأصابها الكبر وله ذرية ضعفاء)، ثم يعود فيقول (وله ذريةٌ ضعفاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت).

ومثل هذه الآيات التي لا يكون فيها موضعٌ للوقف إلا بعد ثلاثة أسطر أو أربعة يتدرب الإنسان فيها على مراعاة الوقف الحسن والربط الصحيح والابتداء الحسن بعد ذلك.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن ما بعده معطوفٌ على قوله (من طيبات ما كسبتم) فهو داخلٌ فيما أُمر بالإنفاق منه، فالله سبحانه وتعالى قال: أنفقوا من طيبات ما كسبتم وأنفقوا مما أخرجنا لكم من الأرض، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومما أخرجنا لكم من الأرض)؟

الجواب: نعم، نص عليه بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن المأمور بالإنفاق منه قد انتهى، ثم نبه على أمرٍ آخر بجملةٍ مبدوءةٍ بالنهي، فصح الوقف قبلها والابتداء بها.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون)؟

نص على الوقف هنا الإمام نافع وحسنه الأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله تعالى (ولستم بآخذيه) جملةٌ حاليةٌ، يعني: والحال أن هذا الخبيث يعني الرديء لو عُرض عليكم لم تأخذوه إلا أن تتغاضوا عنه، فالأوجه هنا عدم الوقف، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النهي وما ارتبط بها قد انتهى، ثم ابتدأ بعدها بأمرٍ عام بقوله (واعلموا أن الله غنيٌ حميدٌ) فالجملة هنا جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

الآية التي تليها: (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإن كانت جملة (والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً) معطوفةً عليها من باب عطف الجمل إلا أنه يراد بالوقف هنا الفصل بين تخويف الشيطان الباطل ووعد الله الحق، فالشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً، والفصل بينهما حسنٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (والله يعدكم مغفرةً منه وفضلاً)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ وهي قوله (والله واسعٌ عليمٌ).

الآية التي تليها: (يؤتي الحكمة من يشاء) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بالشرط، أو هي جملةٌ معطوفةٌ مبدوءةٌ بالشرط، وفي كلتا الحالتين يصح الابتداء بها والوقف قبلها.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت بأداة الشرط وفعل الشرط وجوابه، ثم ابتدأ بعدها جملةً مستأنفةً مبدوءةً بالنفي في قوله (وما يذّكر إلا أولوا الألباب).

الآية التي تليها: (وما أنفقتم من نفقةٍ أو نذرتم من نذرٍ فإن الله يعلمه) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة مبدوءة بالنفي في قوله (وما للظالمين من أنصار) فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة شرطية مبدوءة بأداة الشرط، وهذه الجملة الشرطية هي من قبيل ذكر الأقسام، فذكر في البداية قسمًا متعلقًا بإظهار الصدقة، ثم ذكر قسمًا آخر متعلقًا بإخفاء الصدقة، لكن كل قسمٍ منهما ورد في جملةٍ شرطيةٍ تامةٍ، فصح الوقف على كل جملةٍ، فنقرأ (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) جملةٌ شرطيةٌ قد انتهت، ثم (وإن تخفوها وتأتوها الفقراء فهو خيرٌ لكم).

وهل يصح الوقف على قوله (فهو خيرٌ لكم)؟

يختلف الوقف هنا باختلاف القراءات الواردة في قوله (ويكفر عنكم من سيئاتكم)، من جزم فقرأ (ونكفرْ عنكم من سيئاتكم) لم يقف هنا، لأن الجملة صارت معطوفةً على جواب الشرط، وجواب الشرط مجزومٌ، الذي هو (فهو خيرٌ لكم)، فصارت جملة (ونكفر عنكم) من تتمة جملة الشرط لأنها معطوفةٌ على جوابها فهي جزءٌ منها، فلا وقف على هذه القراءة.

وأما من قرأ برفع (ويكفرُ) سواء قرأها بالنون (ونكفرُ) أو بالياء (ويكفرُ) على استئناف هذه الجملة فإنه صحح الوقف على قوله (فهو خيرٌ لكم)؛ لأنه نهاية الجملة الشرطية، وقوله (ويكفرُ عنكم) جملةٌ مستأنفةٌ.

وهل يصح الوقف على قوله (ويكفرُ عنكم من سيئاتكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ وهي قوله تعالى (والله بما تعملون خبير).

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

لطائف سورة البقرة ٢٦١-٢٧١

(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة...):

قال ابن عثيمين: يطلق المثل على الشبه؛ ويطلق على الصفة؛ فإن ذكر مماثل، فالمراد به الشبه؛ وإلا فالمراد به الصفة؛ ففي قوله تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن ... } المراد بالمثل الصفة؛ لأنه لم يذكر المماثل؛ أما إذا قيل: «مثل هذا كمثل هذا» فهذا يعني الشبه، كقوله تعالى: {مثلهم كمثل الذي استوقد نارا ... }، وكما في هذه الآية: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة} فهذا المراد به الشبه؛ يعني شبه هؤلاء كشبه هذا الشيء؛ والذي يظهر من الآية أنه لا يوجد فيها مطابقة بين الممثل، والممثل به؛ لأن «الممثل» هو العامل؛ و «الممثل به» هو العمل؛ فالحبة ليست بإزاء المنفق؛ لكنها بإزاء المنفق؛ والذي يكون بإزاء المنفق زارع الحبة؛ ولهذا قال بعض العلماء: إن الآية فيها تقدير: إما في المبتدأ؛ وإما في الخبر: فإما أن يقدر: مثل عمل الذين ينفقون أموالهم كمثل حبة؛ أو يقدر: مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل زارع حبة أنبتت سبع سنابل؛ والحكمة من هذا الطي أن يكون المثل صالحا للتمثيل بالعامل، والتمثيل بالعمل؛ وهذا من بلاغة القرآن. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٠٨).

(كمثل حبة أنبتت سبع سنابل):

قال ابن جماعة: قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ) الآية. وقال في سورة الأنعام: (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)

جوابه: أن هذه خاصة في النفقة في سبيل الله. وآية الأنعام: في مطلق الحسنات من الأعمال، وتطوع الأموال. كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١١٩-١٢٠).

(سبع سنابل):

قال ابن القيم: وأما خاصية السبع فإنها قد وقعت قدرا وشرعا، فخلق الله عز وجل السماوات سبعا، والأرضين سبعا، والأيام سبعا، والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار، وشرع الله سبحانه لعباده الطواف سبعا، والسعي بين الصفا والمروة سبعا، ورمي الجمار سبعا سبعا، وتكبيرات العيدين سبعا في الأولى.

وقال صلى الله عليه وسلم (مروهم بالصلاة لسبع)، وإذا صار للغلام سبع سنين خير بين أبويه... وأمر النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه أن يُصب عليه من سبع قرب، وسخر الله الريح على قوم عاد سبع ليال، ودعا النبي صلى الله عليه وسلم أن يعينه الله على قومه بسبع كسبع يوسف، ومثل الله سبحانه ما يضاعف به صدقة المتصدق بحبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والسنابل التي رآها صاحب يوسف سبعا، والسنين التي زرعوها دأَبا سبعا، وتضاعف الصدقة إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفا.

فلا ريب أن لهذا العدد خاصية ليست لغيره... وقد قال بقراط: كل شيء من هذا العالم فهو مقدر على سبعة أجزاء، والنجوم سبعة، والأيام سبعة، وأسنان الناس سبعة، أولها طفل إلى سبع، ثم صبي إلى أربع عشرة، ثم مراهق ثم شاب ثم كهل ثم شيخ ثم هرم إلى منتهى العمر، والله تعالى أعلم بحكمته وشرعه وقدره في تخصيص هذا العدد. زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٩٠-٩٢).

(لهم أجرهم عند ربهم)، (فلهم أجرهم عند ربهم):

قال ابن القيم: تأمل كيف جرد الخبر هنا عن الفاءِ فقال: {لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ}، وقرنه بالفاءِ في قوله تعالى: {الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلانِيَّةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ}، فإن الفاءَ الداخلة على خبر المبتدأ الموصول أو الموصوف تفهم معنى الشرط والجزاءِ، وأن الخبر مستحق بما تضمنه المبتدأُ من الصلة أو الصفة، فلما كان هنا يقتضي بيان حصر المستحق للجزاءِ دون غيره جرد الخبر عن الفاءِ، فإن المعنى أن الذي ينفق ماله لله ولا يمنّ ولا يؤذي، هو الذي يستحق الأجر المذكور، لا الذي ينفق لغير الله ولا من يمن ويؤذي بنفقته، فليس المقام مقام شرط وجزاءٍ بل مقام بيان للمستحق من غيره.

وفي الآية الأخرى ذكر الإنفاق بالليل والنهار سراً وعلانية، فذكر عموم الأوقات وعموم الأحوال، فأتى بالفاءِ في الخبر ليدل على أن الإنفاق في أي وقت وجد من ليل أو نهار، وعلى أية حالة وجد من سر وعلانية فإنه سبب للجزاء على كل حال، فليبادر إليه العبد ولا ينتظر به غير وقته وحاله، ولا يؤخر نفقة الليل إذا حضر إلى النهار ولا نفقة النهار إلى الليل، ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ولا بنفقة السر وقت العلانية، فإن نفقته في أي وقت وعلى أي حال وجدت سبب لأجره وثوابه. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٦٦).

(والله غني حليم):

قال ابن عثيمين: المناسبة في ختم هذه الآية الكريمة بهذين الاسمين؛ لأن في الآية إنفاقا؛ وإذا كان الله عز وجل هو الذي يخلف هذا الإنفاق فإنه لكمال غناه؛ كذلك المغفرة عمن أساء إليك: فإن المغفرة تتضمن الحلم، وزيادة؛ فختم الله الآية بالحلم؛ وقد يقال: إن فيه مناسبة أخرى؛ وهي أن المن بالصدقة كبيرة من كبائر الذنوب؛ والله سبحانه وتعالى حليم على أهل الكبائر؛ إذ لو يؤاخذ الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، والله أعلم. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣١٨)

(أيود أحدكم...):

قال ابن القيم: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ} أخرجه مخرج الاستفهام الإنكاري، وهو أبلغ من النفي والنهي، وألطف موقعـًا، كما ترى غيرك يفعل فعلاً قبيحـًا فتقول: لا يفعل هذا عاقل، لا يفعل هذا من يخاف الله والدار الآخرة. وقال تعالى: {أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ} بلفظ الواحد لتضمنه معنى الإنكار العام، كما تقول يفعل هذا أحد فيه خير؟ وهو أبلغ في الإنكار من أن يقول أيودون. وقوله: "أَيَوَدُّ" أبلغ في الإنكار من لو قيل: أَيريد، لأن محبة هذا الحال المذكورة وتمنيها أقبح وأنكر من مجرد إرادتها. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٧١).

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار):

قال السيوطي: قوله تعالى: {أيود أحدكم أن تكون له جنة} الآية فإنه تعالى لو اقتصر على قوله "جنة" لكان كافيا، فلم يقف عند ذلك حتى قال في تفسيرها: {من نخيل وأعناب} فإن مصاب صاحبها بها أعظم، ثم زاد {تجري من تحتها الأنهار} متمما لوصفها بذلك، ثم كمل وصفها بعد التتميمين فقال: {له فيها من كل الثمرات}، فأتى بكل ما يكون في الجنان ليشتد الأسف على إفسادها، ثم قال في وصف صاحبها: {وأصابه الكبر}، ثم استقصى المعنى في ذلك بما يوجب تعظيم المصاب بقوله بعد وصفه بالكبر: {وله ذرية}، ولم يقف عند ذلك حتى وصف الذرية بالضعفاء، ثم ذكر استئصال الجنة التي ليس لهذا المصاب غيرها بالهلاك في أسرع وقت حيث قال: {فأصابها إعصار}، ولم يقتصر على ذكره للعلم بأنه لا يحصل سرعة الهلاك فقال: {فيه نار}، ثم لم يقف عند ذلك حتى أخبر باحتراقها لاحتمال أن تكون النار ضعيفة لا تفي باحتراقها لما فيها

من الأنهار ورطوبة الأشجار، فاحترس عن هذا الاحتمال بقوله: {فاحترقت}، فهذا أحسن استقصاء وقع في كلام وأتمه وأكمله. الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٥٢-٢٥٣).

(من نخيل وأعناب):

قال ابن القيم: خص هذين النوعين من الثمار بالذكر لأنهما أشرف أنواع الثمار وأكثرها نفعًا، فإن منهما القوت والغذاءَ والدواءَ والشراب والفاكهة والحلو والحامض، ويؤكلان رطبًا ويابسًا، ومنافعهما كثيرة جداً.
وقد اختلف في الأنفع والأفضل منهما: فرجحت طائفة النخيل، ورجحت طائفة العنب، وذكرت كل طائفة حججًا لقولها، فذكرناها في غير هذا الموضع، وفصل الخطاب أن هذا يختلف باختلاف البلاد، فإن الله سبحانه وتعالى أجرى العادة بأن سلطان أحدهما لا يحل حيث يحل سلطان الآخر، فالأرض التي يكون فيها سلطان النخيل لا يكون العنب بها طائلاً ولا كثيراً، لأنه إنما يخرج في الأرض الرخوة اللينة المعتدلة غير السبخة فينمو فيها فيكثر، وأما النخيل فنموه وكثرته في الأرض الحارة السبخة، وهي لا تناسب العنب، فالنخل في أرضه وموضعه أنفع وأفضل من العنب فيها، والعنب في أرضه ومعدنه أفضل من النخل فيها، والله أعلم. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٧١).

(ومما أخرجنا لكم من الأرض):

قال ابن عثيمين: {مما}: لو قلنا: إن «من» للتبعيض يكون المعنى: أنفقوا بعض طيبات ما كسبتم، وبعض ما أخرجنا لكم من الأرض؛ وهناك احتمال أن «من» لبيان الجنس؛ فيشمل ما لو أنفق الإنسان كل ماله؛ وهذا عندي أحسن؛ لأن التي للجنس تعم القليل والكثير. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٣٩).

(من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض):

قال ابن عثيمين: اختلاف التعبير في قوله تعالى: {من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض}؛ فلماذا عبر في الأول تعبيرا يدل على أن ذلك من فعل العبد؛ وفي الثاني عبر تعبيرا يدل على أنه ليس من فعل العبد؟ الأمر في ذلك واضح؛ لأن نمو التجارة بالكسب، وغالبه من فعل العبد: يبيع، ويشتري، ويكسب؛ أما ما خرج

من الأرض فليس من فعل العبد في الواقع، كما قال تعالى: {أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون}. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٤٣).

سبب نزول: (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه):

أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن البراء بن عازب في قوله {ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون} قال: نزلت فينا معشر الأنصار، كنا أصحاب نخل، كان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته، وكان الرجل يأتي بالقنو والقنوين فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام، فكان أحدهم إذا جاع أتى القنو فضربه بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل، وكان ناس ممن لا يرغب في الخير يأتي الرجل بالقنو فيه الشيص والحفش وبالقنو قد انكسر فيعلقه، فأنزل الله: {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه} قال: لو أن أحدكم أهدي إليه مثل ما أعطى لم يأخذه إلا عن إغماض وحياء. قال: فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح ما عنده. الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ٥٨).

(الشيطان يعدكم الفقر):

قال الفراء: يقولون: وعدته خيرا، ووعدته شرا فإذا أسقطوا الخير والشر، قالوا: وعدته: في الخير، وأوعدته: في الشر، فإذا جاءوا بالباء، قالوا: وعدته بالشر. زاد المسير في علم التفسير (٢/ ١٣٧).

(ويكفر عنكم من سيئاتكم):

قال الزركشي: في البقرة: {ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير} وسائر ما في القرآن بإسقاط من. البرهان في علوم القرآن (١/ ١١٦).

وقال برهان الدين الكرماني: قوله: {ويكفر عنكم من سيئاتكم} في هذه السورة بزيادة {من} موافقة لما بعدها؛ لأن بعدها ثلاث آيات فيها {من} على التوالي، وهي قوله: {وما تنفقوا من خير} ثلاث مرات. البرهان في توجيه متشابه القرآن (ص: ٨٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد سورة البقرة ٢٦١-٢٧١

(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله...):

عن ابن عمر قال: لما نزلت: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم} قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رب زد أمتي) فنزلت: {من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة} قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رب زد أمتي) فنزلت: {إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب}. صحيح ابن حبان (١٠/ ٥٠٥)، المعجم الأوسط (٦/ ١٠)، شعب الإيمان (٥/ ٢٥).

(في سبيل الله):

قال ابن عثيمين: فيه الإشارة إلى الإخلاص لله في العمل؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله} بأن يقصدوا بذلك وجه الله عز وجل. والإشارة إلى موافقة الشرع؛ لقوله تعالى: {في سبيل الله}؛ لأن {في} للظرفية؛ والسبيل بمعنى الطريق؛ وطريق الله: شرعه؛ والمعنى: أن هذا الإنفاق لا يخرج عن شريعة الله؛ والإنفاق الذي يكون موافقا للشرع هو ما ذكره بقوله تعالى: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما}.

ومعنى إنفاقهم في شرع الله أن يكون ذلك إخلاصا لله، واتباعا لشرعه؛ فمن نوى بإنفاقه غير الله فليس في سبيل الله؛ مثل «المرائي»: رجل أنفق في الجهاد، أو أنفق في الصدقة على المساكين؛ لكنه أنفق ليقال: إن فلانا جواد؛ أو أنه كريم؛ هذا ليس في سبيل الله، لأنه مراء؛ لم يقصد وجه الله عز وجل؛ إذا لم يرد السبيل الذي يوصل إلى الله؛ ولا يهمه أن يقبل الله منه، أو لا يقبل؛ المهم عنده أنه يقال عند الناس: إنه رجل كريم، أو جواد.

وأما أن يكون على حسب شريعة الله: فإن أنفق في وجه لا يرضى به الله فليس في سبيل الله – وإن أخلص لله – كرجل ينفق على البدع يريد بذلك وجه الله – وهذا كثير: كبناء الرباط للصوفية المنحرفة، وبناء البيوت للأعياد الميلادية، وبناء القصور للمآتم، وطبع الكتب المشتملة على بدع؛ هذا قد يريد الإنسان بذلك وجه الله لكنه خلاف شريعة الله؛ فلا يكون في سبيل الله. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣١٠).

(كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة):

عن أبي مسعود الأنصاري، قال: جاء رجل بناقة مخطومة، فقال: هذه في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لك بها يوم القيامة سبع مائة ناقة كلها مخطومة». صحيح مسلم (٣/ ١٥٠٥).

(ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى...):

قال ابن القيم: ونبه بقوله: {ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلا أَذَى}، على أن المنَّ والأذى ولو تراخى عن الصدقة وطال زمنه ضر بصاحبه ولم يحصل له مقصود الإنفاق، ولو أتى بالواو وقال: ولا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى، لأوهمت تقييد ذلك بالحال، وإذا كان المن والأذى المتراخي مبطلاً لأثر الإنفاق مانعاً من الثواب فالمقارن أولى وأحرى. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٦٦).

وقال ابن عثيمين: هل مجرد إخبار المنفق بأنه أعطى فلانا دون منٍّ منه بذلك يعتبر من الأذى؟

الجواب: نعم؛ لأن المعطى تنزل قيمته عند من علم به؛ لكن لو أراد بالخبر أن يقتدي الناس به فيعطوه فليس في هذا أذى؛ بل هو لمصلحة المعطى؛ أما إن ذكر أنه أعطى، ولم يعين المعطى فهذا ليس فيه أذى؛ ولكن يخشى عليه الإعجاب، أو المراءاة. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣١٤).

(يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى...):

قال ابن عثيمين: في توجيه النداء للمؤمنين بوصف الإيمان فوائد؛ الفائدة الأولى: الحث على قبول ما يلقى إليهم، وامتثاله؛ وجه ذلك: أنه إذا علق الحكم بوصف كان ذلك الوصف علة للتأثر به؛ كأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا لإيمانكم افعلوا كذا، وكذا؛ أو لا تفعلوا كذا؛ الفائدة الثانية: أن ما ذكر يكون من مكملات الإيمان، ومقتضياته؛ الفائدة الثالثة: أن مخالفة ما ذكر نقص في الإيمان. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣١٩).

(لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى):

قال ابن القيم: قد دل القرآن والسنة والمنقول عن الصحابة أن السيئات تحبط الحسنات كما أن الحسنات يذهبن السيئات. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى}. {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا

تَشْعُرُونَ} . وقالت عائشة لأم زيد بن أرقم: أخبري زيدا أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن يتوب لما باع بالعينة. وقد نص الإمام أحمد على هذا فقال: ينبغي للعبد في هذا الزمان أن يستدين ويتزوج لئلا ينظر ما لا يحل فيحبط عمله. الصلاة وأحكام تاركها (ص: ٦٥).

وقال ابن عثيمين: المن والأذى بالصدقة كبيرة من كبائر الذنوب؛ وجه ذلك: ترتيب العقوبة على الذنب يجعله من كبائر الذنوب؛ وقد قال شيخ الإسلام في حد الكبيرة: «كل ذنب رتب عليه عقوبة خاصة، كالبراءة منه، ونفي الإيمان، واللعنة، والغضب، والحد، وما أشبه ذلك» ؛ وهذا فيه عقوبة خاصة؛ وهي إبطال العمل؛ ويؤيد ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٢١).

(كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر):

قال البغوي: هذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يمنّ بصدقته ويؤذي، ويرى الناس في الظاهر أن لهؤلاء أعمالا كما يُرى التراب على هذا الصفوان، فإذا كان يوم القيامة بطل كله واضمحل لأنه لم يكن لله تعالى، كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب فتركه صلدا لا شيء عليه. تفسير البغوي (١/ ٣٦١).

وقال ابن عثيمين: من راءى الناس بإنفاقه ففي إيمانه بالله، وباليوم الآخر نقص؛ لقوله تعالى: {ولا يؤمن بالله واليوم الآخر} ؛ لأن الذي يرائي لو كان مؤمنا بالله حق الإيمان لجعل عمله لله خالصا لله؛ ولو كان يؤمن باليوم الآخر حق الإيمان لم يجعل عمل الآخرة للدنيا؛ لأن مراءاة الناس قد يكسب بها الإنسان جاها في الدنيا فقط؛ مع أنه لا بد أن يتبين أمره؛ وإذا تبين أنه مراء نزلت قيمته في أعين الناس؛ يقول الشاعر: (ثوب الرياء يشف عما تحته *** فإذا اكتسيت به فإنك عاري). تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٢٢).

وقال أيضا: الرياء مبطل للعمل؛ وهو نوع من الشرك؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»؛ فإن قصد بعمله إذا رآه الناس أن يتأسى الناس به، ويسارعوا فيه فهي نية حسنة لا تنافي الإخلاص؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على المنبر، وقال: «إنما صنعت هذا لتأتموا بي، ولتعلموا صلاتي»؛ وفي الحج كان صلى الله عليه وسلم يقول: «لتأخذوا مناسككم»؛

وهو داخل في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة». تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٢٣).

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار). صحيح مسلم (٣/ ١٥١٣).

(لا يقدرون على شيء مما كسبوا):

قال ابن عثيمين: وعجز الإنسان عن الشيء بعد محاولة القدرة عليه أشد حسرة من عدمه بالكلية؛ ألم تر إلى قوله تعالى: {أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما}؛ وكونه حطاما ينظرون إليه أشد حسرة من كونه لم ينبت أصلا؛ وقوله تعالى: {أفرأيتم الماء الذي تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا}؛ وكونه بين أيديهم أجاجا لا يستسيغون شربه أشد مما لو لم يوجد أصلا؛ والإنسان العاقل يجعل العمل لله: لله؛ والعمل للناس: للناس؛ أنا قد أحب أن أخرج للناس في ثوب جميل: لا بأس أن أتجمل ليراني الناس على هذه الحال؛ لكن أصلي ليراني الناس أصلي: لا يصح؛ لأن العمل لله يجب أن يكون لله لا يشاركه فيه أحد. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٢٤).

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله...):

قال البقاعي: من راض نفسه بحملها على بذل المال الذي هو شقيق الروح وذلت له خاضعة وقل طمعها في اتباعه لشهواتها سهل عليه حملها على سائر العبادات، ومتى تركها وهي مطبوعة على النقائص زاد طمعا في اتباع الشهوات ولزوم الدناءات. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/ ٨٢-٨٣)

(وتثبيتا من أنفسهم):

قال البغوي: يخرجون الزكاة طيبة بها أنفسهم على يقين بالثواب من الله، وتصديق بوعد الله، ويعلمون أن ما أخرجوا خير لهم مما تركوا، وقيل: على يقين بإخلاف الله عليهم، وقال عطاء ومجاهد: يتثبتون أين يضعون أموالهم، قال الحسن: كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت، فإن كان لله أمضى، وإن خالطه شك أمسك. تفسير البغوي (١/ ٣٦٣).

عن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه يقول: (أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما أن نتصدق، فوافق ذلك مالا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أبقيت لأهلك؟»، قلت: مثله، قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما أبقيت لأهلك؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدا). سنن أبي داود (٢/ ١٢٩)، سنن الترمذي (٦/ ٥٦).

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار...):

قال عمر رضي الله عنه، يوما لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: فيم ترون هذه الآية نزلت: {أيود أحدكم أن تكون له جنة}؟ قالوا: الله أعلم، فغضب عمر فقال: «قولوا نعلم أو لا نعلم»، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، قال عمر: «يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك»، قال ابن عباس: ضربت مثلا لعمل، قال عمر: «أي عمل؟» قال ابن عباس: لعمل، قال عمر: «لرجل غني يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي حتى أغرق أعماله». صحيح البخاري (٦/ ٣١).

قال الحسن: هذا مثلٌ قلَّ والله من يعقله من الناس، شيخ كبير ضعف جسمه وكثر صبيانه أفقر ما كان إلى جنته، وإن أحدكم والله أفقر ما يكون إلى عمله إذا انقطعت عنه الدنيا. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٧٠).

قال ابن عباس: هذا مثل الذي يختم له بالفساد في آخر عمره. وقال مجاهد: هذا مثل المفرط في طاعة الله حتى يموت، وقال السدي: هذا مثل المرائي في نفقته الذي ينفق لغير الله، ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليه. إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٤١-١٤٢)

(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم):

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا، إني بما تعملون عليم} وقال: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم} ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟ صحيح مسلم (٢/ ٧٠٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل». صحيح البخاري (٢/ ١٠٨)، صحيح مسلم (٢/ ٧٠٢).

وعن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ولا يكسب عبد مالا من حرام، فينفق منه فيبارك له فيه، ولا يتصدق به فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكن يمحو السيئ بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث). مسند أحمد (٦/ ١٨٩).

قال ابن عثيمين: فإن قال قائل: عندي مال محرم لكسبه، وأريد أن أتصدق به فهل ينفعني ذلك؟

فالجواب: إن أنفقه للتقرب إلى الله به: لم ينفعه، ولم يسلم من وزر الكسب الخبيث؛ والدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا»؛ وإن أراد بالصدقة به التخلص منه، والبراءة من إثمه: نفعه بالسلامة من إثمه، وصار له أجر التوبة منه – لا أجر الصدقة.

ولو قال قائل: عندي مال اكتسبته من ربا فهل يصح أن أبني به مسجدا، وتصح الصلاة فيه؟

فالجواب: بالنسبة لصحة الصلاة في هذا المسجد هي صحيحة بكل حال؛ وبالنسبة لثواب بناء المسجد: إن قصد التقرب إلى الله بذلك لم يقبل منه، ولم يسلم من إثمه؛ وإن قصد التخلص سلم من الإثم، وأثيب – لا ثواب باني المسجد – ولكن ثواب التائب. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٢٨).

فإذا قال قائل: ماذا أصنع به إذا تبت؟ فالجواب: أنه يرده على صاحبه إن أخذه بغير اختياره؛ فإن كان قد مات رده على ورثته؛ فإن لم يكن له ورثة فعلى بيت المال؛ فإن تعذر ذلك تصدق به عمن هو له؛ أما إذا أخذه باختيار صاحبه كالربا، ومهر البغي، وحلوان الكاهن، فإنه لا يرده عليه؛ ولكن يتصدق به؛ هذا إذا كان حين

اكتسابه إياه عالما بالتحريم؛ أما إن كان جاهلا فإنه لا يجب عليه أن يتصدق به؛ لقوله تعالى: {فله ما سلف وأمره إلى الله} . تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٤٢).

(أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض):

قال ابن القيم: وخص سبحانه هذين النوعين- وهما الخارج من الأرض والحاصل بكسب التجارة دون غيرهما من المواشي- إما بحسب الواقع فإنهما كانا أغلب أموال القوم إذ ذاك، فإن المهاجرين كانوا أصحاب تجارة وكسب والأنصار كانوا أصحاب حرث وزرع، فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم إلى بيان حكمهما وعموم وجودهما، وإما لأنهما أُصول الأموال وما عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشأُ، فإن الكسب تدخل فيه التجارات كلها على اختلاف أصنافها وأنواعها من الملابس والمطاعم والرقيق والحيوانات والآلات والأمتعة وسائر ما تتعلق به التجارة، والخارج من الأرض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها، وهذان هما أصول الأموال وأغلبها على أهل الأرض فكان ذكرهما أهم. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٧٣).

وقال البغوي: والزكاة واجبة في مال التجارة عند أكثر أهل العلم، فبعد الحول يقوّم العرَض فيخرج من قيمتها ربع العشر إذا كان قيمتها عشرين دينارا أو مائتي درهم. تفسير البغوي (١/ ٣٦٦)

(ومما أخرجنا لكم من الأرض):

عن ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «فيما سقت السماء والعيون أو كان عثريا العشر، وما سقي بالنضح نصف العشر». صحيح البخاري (٢/ ١٢٦).

عن جابر بن عبد الله، يذكر أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «فيما سقت الأنهار، والغيم العشور، وفيما سقي بالسانية نصف العشر». صحيح مسلم (٢/ ٦٧٥).

قال ابن عثيمين: زكاة الخارج من الأرض لا تجب إلا في شيء معين جنسا، وقدرا؛ فلا تجب الزكاة في القليل؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة»؛ و «الوسق» هو الحمل؛ ومقدار خمسة أوسق: ثلاثمائة صاع بالصاع النبوي.

ولا تجب الزكاة إلا فيما يكال؛ وذلك من قوله صلى الله عليه وسلم: «ليس فيما دون خمسة أوسق»؛ و «الوسق» كما ذكرت هو الحمل؛ وهو ستون صاعا؛ وعليه فلا تجب الزكاة في الخضراوات مثل: التفاح، والبرتقال، والأترج، وشبهها، لأن السنة بينت أنه لا بد من أن يكون ذلك الشيء مما يوسق.

تنبيه: لم يبين في الآية مقدار الواجب إنفاقه من الكسب، والخارج من الأرض؛ ولكن السنة بينت أن مقدار الواجب فيما حصل من الكسب ربع العشر؛ ومقدار الواجب في الخارج من الأرض العشر فيما يسقى بلا مؤونة؛ ونصفه فيما يسقى بمؤونة. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٤٣).

وقال ابن تيمية: وأما (العُشر): فهو عند جمهور العلماء: كمالك والشافعي وأحمد وغيرهم على من نبت الزرع على ملكه كما قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض} فالأول يتضمن زكاة التجارة، والثاني يتضمن زكاة ما أخرج الله لنا من الأرض. فمن أخرج الله له الحب فعليه العشر، فإذا استأجر أرضا ليزرعها فالعشر على المستأجر عند هؤلاء العلماء كلهم... وإذا زارع أرضا على النصف فما حصل للمالك فعليه عشره، وما حصل للعامل فعليه عشره، على كل واحد منهما عشر ما أخرجه الله له. مجموع الفتاوى (٢٥/ ٥٤).

وقال ابن عثيمين: من فوائد الآية: وجوب الزكاة في المعادن؛ لدخولها في عموم قوله تعالى: {ومما أخرجنا لكم من الأرض} لكن العلماء يقولون: إن كان المعدن ذهبا أو فضة وجبت فيه الزكاة بكل حال؛ وإن كان غير ذهب، ولا فضة، كالنحاس، والرصاص، وما أشبههما ففيه الزكاة إن أعده للتجارة؛ لأن هذه المعادن لا تجب الزكاة فيها بعينها؛ إنما تجب الزكاة فيها إذا نواها للتجارة.

وهل يستفاد من الآية وجوب الزكاة في الركاز - والركاز هو ما وجد من دفن الجاهلية - أي مدفون الجاهلية؛ يعني ما وجد من النقود القديمة، أو غيرها التي تنسب إلى زمن بعيد بحيث يغلب على الظن أنه ليس لها أهل وقت وجودها؟ لا يستفاد؛ لكن السنة دلت على أن الواجب فيه الخمس. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٤٤).

(ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون):

قال ابن تيمية: قال الله تعالى: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} فما كان أحب إلى المرء إذا تقرب به إلى الله تعالى كان أفضل له من غيره؛ وإن استويا في القيمة؛ فإن الهدية والأضحية عبادة بدنية ومالية؛ ليست كالصدقة المحضة؛ بل إذا ذبح النفيس من ماله لله تعالى كان أحب إلى الله تعالى. قال بعض السلف: لا يهدي

أحدكم لله تعالى ما يستحي أن يهديه لكريمه. وقد قال تعالى: {ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه} وقد قرب ابنا آدم قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. وقد ذكر أن سبب ذلك أن أحدهما قرب نفيس ماله والآخر قرب الدون من ماله. مجموع الفتاوى (٣١/ ٢٥١).

وقال ابن عثيمين: إذا ضممت هذه الآية إلى حديث ابن عباس حين بعث النبي معاذا إلى اليمن، وقال: «إياك وكرائم أموالهم» تبين لك العدل في الشريعة الإسلامية؛ لأن العامل على الزكاة لو قصد الكرائم من الأموال صار في هذا إجحاف على أهل الأموال؛ ولو قصد الرديء صار فيه إجحاف على أهل الزكاة؛ فصار الواجب وسطا؛ لا نلزم صاحب المال بإخراج الأجود؛ ولا نمكنه من إخراج الأردأ؛ بل يخرج الوسط. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٤٤).

(ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه):

قال ابن عثيمين: الإشارة إلى قاعدة إيمانية عامة؛ وهي قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»؛ ووجه الدلالة أن الله سبحانه وتعالى قال: {ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه} ؛ فالإنسان لا يرضى بهذا لنفسه فلماذا يرضاه لغيره؟!! فإذا كنت أنت لو أعطيت الرديء من مال مشترك بينك وبين غيرك ما أخذته إلا على إغماض، وإغضاء عن بعض الشيء؛ فلماذا تختاره لغيرك، ولا تختاره لنفسك؟!! وهذا ينبغي للإنسان أن يتخذه قاعدة فيما يعامل به غيره؛ وهو أن يعامله بما يحب أن يعامله به؛ ولهذا جاء في الحديث الصحيح: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر؛ وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه»، هذه قاعدة في المعاملة مع الناس؛ ومع الأسف الشديد أن كثيرا من الناس اليوم لا يتعاملون فيما بينهم على هذا الوجه؛ كثير من الناس يرى أن المكر غنيمة، وأن الكذب غنيمة. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٤٥).

(واعلموا أن الله غني حميد):

قال ابن عثيمين: {حميد} : يحتمل أن تكون بمعنى حامد؛ وبمعنى محمود؛ وكلاهما صحيح؛ لأن «فعيلا» تأتي بمعنى فاعل؛ وبمعنى مفعول؛ إتيانها بمعنى فاعل مثل: «رحيم» بمعنى راحم؛ و «سميع» بمعنى سامع؛ وإتيانها بمعنى مفعول مثل: «قتيل»، و «جريح»، و «ذبيح»، وما أشبه ذلك؛ وهنا {حميد} تصح أن تكون

بمعنى حامد، وبمعنى محمود؛ أما كون الله محمودا فظاهر؛ وأما كونه حامدا فلأنه سبحانه وتعالى يحمد من يستحق الحمد من عباده؛ ولهذا أثنى على أنبيائه، ورسله والصالحين من عباده؛ وهذا يدل على أنه عز وجل حامد لمن يستحق الحمد. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٤٠).

وقال أيضا: ووجه المناسبة في ذكر «الحميد» بعد «الغني» أن غناه عز وجل غنى يحمد عليه؛ بخلاف غنى المخلوق؛ فقد يحمد عليه، وقد لا يحمد؛ فلا يحمد المخلوق على غناه إذا كان بخيلا؛ وإنما يحمد إذا بذله؛ والله عز وجل غني حميد؛ فهو لم يسألكم هذا لحاجته إليه؛ ولكن لمصلحتكم أنتم. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٤١).

(الشيطان يعدكم الفقر):

قال ابن القيم: وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه، ولا محبة في بقائه غنيـًا، بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته، وإنما وعده له بالفقر وأَمره إياه بالبخل ليسيء ظنه بربه ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه فيستوجب منه الحرمان. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٧٥).

وقال أيضا: وفي الحديث المشهور: "إن للمَلك بقلب ابن آدم لمة، وللشيطان لمة، فلمة الملك: إيعاد بالخير، وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان: إيعاد بالشر، وتكذيب بالوعد"، ثم قرأ: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ} الآية. [الترمذي]، فالملك والشيطان يتعاقبان على القلب تعاقب الليل والنهار، فمن الناس من يكون ليله أطول من نهاره، وآخر بضده، ومنهم من يكون زمنه نهاراً كله، وآخر بضده، نستعيذ بالله تعالى من شر الشيطان. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ١٠٨).

وقال أيضا: قيل: {يعدكم الفقر}: يخوفكم به، يقول: إن أنفقتم أموالكم افتقرتم، {ويأمركم بالفحشاء} قالوا: هي البخل في هذا الموضع خاصة، ويذكر عن مقاتل والكلبي: كل فحشاء في القرآن فهي الزنا إلا في هذا الموضع فإنها البخل. والصواب: أن الفحشاء على بابها، وهي كل فاحشة، فهي صفة لموصوف محذوف، فحذف موصوفها إرادة للعموم، أي بالفعلة الفحشاء والخلة الفحشاء، ومن جملتها البخل، فذكر سبحانه وعد الشيطان وأمره يأمرهم بالشر ويخوفهم من فعل الخير، وهذان الأمران هما جماع ما يطلبه الشيطان من الإنسان، فإنه إذا خوفه من فعل الخير تركه، وإذا أمره بالفحشاء وزينها له ارتكبها. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ١٠٧).

(والله يعدكم مغفرة منه وفضلا):

قال ابن عثيمين: فإن قال قائل: كيف يزيد الله تعالى المنفق فضلا ونحن نشاهد أن الإنفاق ينقص المال حسا؛ فإذا أنفق الإنسان من العشرة درهما صارت تسعة؛ فما وجه الزيادة؟

فالجواب: أما بالنسبة لزيادة الأجر في الآخرة فالأمر ظاهر؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة؛ ومن تصدق بما يعادل تمرة من طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يربيها له حتى تكون مثل الجبل؛ وأما بالنسبة للزيادة الحسية في الدنيا فمن عدة أوجه:

الوجه الأول: أن الله قد يفتح للإنسان باب رزق لم يخطر له على بال؛ فيزداد ماله.

الوجه الثاني: أن هذا المال ربما يقيه الله سبحانه وتعالى آفات لولا الصدقة لوقعت فيه؛ وهذا مشاهد؛ فالإنفاق يقي المال الآفات.

الوجه الثالث: البركة في الإنفاق بحيث ينفق القليل، وتكون ثمرته أكثر من الكثير؛ وإذا نزعت البركة من الإنفاق فقد ينفق الإنسان شيئا كثيرا في أمور لا تنفعه؛ أو تضره؛ وهذا شيء مشاهد. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٤٩).

(والله واسع عليم):

قال ابن عثيمين: إثبات اسمين من أسماء الله؛ وهما: {واسع}، و {عليم}؛ وما تضمناه من صفة؛ ويستفاد من الاسمين، والصفتين إثبات صفة ثالثة باجتماعهما؛ لأن الاسم من أسماء الله إذا قرن بغيره تضمن معنى زائدا على ما إذا كان منفردا مثل قوله تعالى: {فإن الله كان عفوا قديرا}؛ فالجمع بين العفو والقدرة لها ميزة: أن عفوه غير مشوب بعجز إطلاقا؛ لأن بعض الناس قد يعفو لعجز؛ فقوله تعالى: {واسع عليم}: فالصفة الثالثة التي تحصل باجتماعهما: أن علمه واسع. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٥٠).

(يؤتي الحكمة من يشاء...):

قال ابن القيم: الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة ومقترنة بالكتاب.

فالمفردة: فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه. ومقدمه ومؤخره. وحلاله وحرامه. وأمثاله.

وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه.

وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل.

وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها.

وقال الحسن: الورع في دين الله. كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما الحكمة المقرونة بالكتاب: فهي السنة. وكذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة. وقيل: هي القضاء بالوحي. وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة. قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به. والإصابة في القول والعمل. وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٤٤٨).

وقال ابن عثيمين: ما في الإنسان من العلم والرشد فهو فضل من الله عز وجل؛ لقوله تعالى: {يؤتي الحكمة من يشاء}؛ فإذا من الله سبحانه وتعالى على العبد بعلم، ورشد، وقوة، وقدرة، وسمع، وبصر فلا يترفع؛ لأن هذه الصفات من الله عز وجل؛ ولو شاء الله لحرمه إياها، أو لسلبه إياها بعد أن أعطاه إياها؛ فقد يسلب الله العلم من الإنسان بعد أن أعطاه إياه؛ وربما يسلب منه الحكمة؛ فتكون كل تصرفاته طيشا، وضلالا، وهدرا. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٥٢)

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا):

قال القرطبي: وقال بعض الحكماء: من أعطي العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه، ولا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم، فإنما أعطي أفضل ما أعطي أصحاب الدنيا، لأن الله تعالى سمى الدنيا متاعا قليلا فقال: (قل متاع الدنيا قليل) وسمى العلم والقرآن (خيرا كثيرا). تفسير القرطبي (٣/ ٣٣١).

(وما يذّكّر إلا أولوا الألباب):

قال ابن عثيمين: لا يتعظ بالمواعظ الكونية أو الشرعية إلا أصحاب العقول الذين يتدبرون ما حصل من الآيات سابقا، ولاحقا؛ فيعتبرون بها؛ وأما الغافل فلا تنفعه. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٥٣).

(وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم):

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه". صحيح البخاري (١/ ١٣٣)، صحيح مسلم (٢/ ٧١٥).

(فهو خير لكم):

قال ابن عثيمين: تفاضل الأعمال - أي أن بعض الأعمال أفضل من بعض؛ لقوله تعالى: {فهو خير لكم}؛ وتفاضل الأعمال يكون بأسباب:

أ - منها التفاضل في الجنس، كالصلاة - مثلا - أفضل من الزكاة، وما دونها.

ب - ومنها التفاضل في النوع؛ فالواجب من الجنس أفضل من التطوع؛ لقوله تعالى في الحديث القدسي: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه».

ج - ومنها التفاضل باعتبار العامل لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

د - ومنها التفاضل باعتبار الزمان، كقوله صلى الله عليه وسلم في العشر الأول من ذي الحجة: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»، وكقوله تعالى: {ليلة القدر خير من ألف شهر}.

هـ - ومنها التفاضل بحسب المكان، كفضل الصلاة في المسجد الحرام على غيره.

و- ومنها التفاضل بحسب جودة العمل وإتقانه، كقوله صلى الله عليه وسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة؛ والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران».

ز - ومنها التفاضل بحسب الكيفية، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ... » ، وذكر منهم: «ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وتفاضل الأعمال يستلزم تفاضل العامل؛ لأن الإنسان يشرف، ويفضل بعمله؛ وتفاضل الأعمال يستلزم زيادة الإيمان؛ لأن الإيمان قول، وعمل؛ فإذا تفاضلت الأعمال تفاضل الإيمان - أعني زيادة الإيمان، ونقصانه - وهو مذهب أهل السنة والجماعة. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٥٨-٣٦٠).

(ويكفر عنكم من سيئاتكم):

قال ابن عثيمين: الصدقة سبب لتكفير السيئات؛ لقوله تعالى: {ويكفر عنكم من سيئاتكم}؛ ويؤيد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار) [أحمد] تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٦٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة البقرة ٢٦١-٢٧١

١- كن منفقا في سبيل الله، مخلصا لله، متّبعا سنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم في الإنفاق، واجعل إنفاقك في وجوه الخير المتنوعة، وأبشر بحسنات أمثال الجبال (مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم).

٢- احذر من مبطلات الصدقة، وأهمها مراءاة الناس، وتعداد الإحسان على الفقير، وإيذاؤه بالقول أو الفعل، واعلم أن القول الحسن والمسامحة مع عدم الإنفاق خير من بذل المال مع الرياء والمنّ والأذى، فلا تكن ممن يبذل ماله في الدنيا ثم يأتي يوم القيامة فيجعله الله هباء منثورا (الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم...)، (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم)، (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر).

٣- تأمل الأمثال التي ذكرها الله للمنفق ماله رياء، وللمنفق ماله ابتغاء مرضاة الله، واجعلهما نصب عينيك، ليكون حافزا لك على النفقة ابتغاء مرضاة الله، ومحذرا لك من الرياء في الإنفاق (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)، قال في المرائي: (فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا)، وقال في المخلص: (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل).

٤- أعظم الحسرة أن تكون ذا طاعة وخير وبر وإحسان وفضل وجود وكرم وبذل وإنفاق ثم تأتي يوم القيامة أحوج ما تكون إلى حسنة واحدة فتجد أعمالك هباء منثورا، بسبب خلل في الإخلاص أو المتابعة، فاحفظ أعمالك، ولا تبطلها، تأمل هذا المثَل: (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت).

٥- الله سبحانه وتعالى طيب لا يقبل إلا طيبا، فلا يقبل الإنفاق من كسب حرام، واعلم أن النفقة من الكسب الحرام مردودة عليك، فلا تقبل، ولا يترتب عليها آثارها من العِوض والبركة والنماء والأجر الجزيل، فاحرص على أن يكون كسبك كله حلالا، حتى تكون صدقتك من حلال، فتجني ثمارها في الدنيا والآخرة (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم).

٦- أنفق من مالك أحبه إليك، ولا تنفق الرديء والسيّء الذي لا تقبله لو عُرِض عليك، واعلم أن الله غني عنك وعن صدقتك، وإنما ينظر إلى ما تبذله للفقراء وتتقرّب به إليه، فقدّم لله أفضل ما أكرمك الله به حتى تكون من أهل البر والتقوى (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تُغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد).

٧- استحضر في قلبك دائما عداوة الشيطان لك، حتى تسلم من حباله، فهو الذي يعدك الفقر إذا أنفقت، ويأمرك بالبخل والفحشاء، فاحذر من مكائده، وأيقن بوعد الله لك إذا أنفقت بالمغفرة والفضل، فهو سبحانه واسع الفضل والجود والكرم والعطاء والإحسان، عليم بمن يستحق ذلك (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم).

٨- اسأل الله أن يؤتيَك الحكمة، فهو الذي يملكها، وهو الذي يهبها لمن يشاء من عباده، واعلم أن من أوتي الحكمة فهو العاقل الذكي اللبيب الفطن، وهو المؤمن العالم العادل التقي الورع (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا).

٩- الله سبحانه يعلم كل شيء، فهو السميع البصير العليم الخبير الذي يعلم أعمالك وما تخفيه في صدرك، وهو الذي يجازيك على أعمالك الحسنة بالجزاء الأوفى (والله بما تعملون بصير)، (والله بما تعملون خبير)، (وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه).

١٠- إخفاء الصدقة وإسرارها خير لك في إخلاصك وفي إظهار صدق إيمانك، وخير للفقير في الستر عليه والحفاظ على كرامته، ولا بأس بإظهار الصدقة مع الإخلاص فيها إذا ترتّب على ذلك مصلحة كبرى (إن تبدوا الصدقات فنعمّا هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة البقرة (٢٧٢-٢٨١) من تفسير السعدي

{لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ} .

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ليس عليك هدي الخلق، وإنما عليك البلاغ المبين، والهداية بيد الله تعالى، ففيها دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على الكافر ولو لم يهتد، فلهذا قال: {وما تنفقوا من خير} أي: قليل أو كثير على أي شخص كان من مسلم وكافر {فلأنفسكم} أي: نفعه راجع إليكم {وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله} هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالى، لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الردية ويوجب لهم الإخلاص {وما تنفقوا من خير يوف إليكم} يوم القيامة تستوفون أجوركم {وأنتم لا تظلمون} أي: تنقصون من أعمالكم شيئا ولا مثقال ذرة، كما لا يزاد في سيئاتكم.

ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أولى الناس بها فوصفهم بست صفات أحدها الفقر، والثاني قوله: {أحصروا في سبيل الله} أي: قصروها على طاعة الله من جهاد وغيره، فهم مستعدون لذلك محبوسون له، الثالث عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال: {لا يستطيعون ضربا في الأرض} أي: سفرا للتكسب، الرابع قوله: {يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف} وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم. الخامس: أنه قال: {تعرفهم بسيماهم} أي: بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم، وهذا لا ينافي قوله: {يحسبهم الجاهل أغنياء} فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرس بها ما هم عليه، وأما الفطن المتفرس فمجرد ما يراهم يعرفهم بعلامتهم، السادس قوله: {لا يسألون الناس إلحافا} أي: لا يسألونهم سؤال إلحاف، أي: إلحاح، بل إن صدر منهم سؤال إذا احتاجوا لذلك لم يلحوا على من سألوا، فهؤلاء أولى الناس وأحقهم بالصدقات لما وصفهم به من جميل الصفات، وأما النفقة من حيث هي على أي شخص كان، فهي خير وإحسان وبر يثاب عليها صاحبها ويؤجر، فلهذا قال: {وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم} .

ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال فقال: {الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله} أي: طاعته وطريق مرضاته، لا في المحرمات والمكروهات وشهوات أنفسهم {بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم} أي: أجر عظيم من خير عند الرب الرحيم {ولا خوف عليهم} إذا خاف المقصرون {ولا هم يحزنون} إذا حزن المفرطون، ففازوا بحصول المقصود المطلوب، ونجوا من الشرور والمرهوب، ولما كمل تعالى حالة المحسنين إلى عباده بأنواع النفقات ذكر حالة الظالمين المسيئين إليهم غاية الإساءة فقال:

{الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ * وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ}.

يخبر تعالى عن أكلة الربا وسوء مآلهم وشدة منقلبهم، أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم {إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} أي: يصرعه الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارى سكارى مضطربين، متوقعين لعظيم النكال وعسر الوبال، فكما تقلبت عقولهم و {قالوا إنما البيع مثل الربا} وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازاهم الله من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين، ويحتمل أن يكون قوله: {لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس} أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم وضعفت آراؤهم، وصاروا في هيئتهم وحركاتهم يشبهون المجانين في عدم انتظامها وانسلاخ العقل الأدبي عنهم، قال الله تعالى رادا عليهم ومبينا حكمته العظيمة {وأحل الله البيع} أي: لما فيه من عموم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يرد ما يدل على المنع {وحرم الربا} لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، والربا نوعان: ربا نسيئة كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة،

ومنه جعل ما في الذمة رأس مال، سلم، وربا فضل، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلا وكلاهما محرم بالكتاب والسنة، والإجماع على ربا النسيئة، وشذ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها {فمن جاءه موعظة من ربه} أي: وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا على يد من قيضه الله لموعظته رحمة من الله بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه {فانتهى} عن فعله وانزجر عن تعاطيه {فله ما سلف} أي: ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة، دل مفهوم الآية أن من لم ينته جوزي بالأول والآخر {وأمره إلى الله} في مجازاته وفيما يستقبل من أموره {ومن عاد} إلى تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر على ذلك {فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون} اختلف العلماء رحمهم الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحا للخلود فيها بقطع النظر عن كفره.

ثم قال تعالى: {يمحق الله الربا} أي: يذهبه ويذهب بركته ذاتا ووصفا، فيكون سببا لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أنفق منه لم يؤجر عليه بل يكون زادا له إلى النار {ويربي الصدقات} أي: ينميها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها وهذا لأن الجزاء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده {والله لا يحب كل كفار} لنعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله {أثيم} أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته.

لما ذكر أكلة الربا وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيمانا ينفعهم لم يصدر منهم ما صدر ذكر حالة المؤمنين وأجرهم، وخاطبهم بالإيمان، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين، وهؤلاء هم الذين يقبلون موعظة ربهم وينقادون لأمره، وأمرهم أن يتقوه، ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي: المعاملات الحاضرة الموجودة، وأما ما سلف، فمن اتعظ عفا الله عنه ما سلف، وأما من لم ينزجر بموعظة الله ولم يقبل نصيحته فإنه مشاق لربه محارب له، وهو عاجز ضعيف ليس له يدان في محاربة العزيز الحكيم الذي يمهل للظالم ولا يهمله حتى إذا أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر {وإن تبتم} عن الربا {فلكم رءوس

أموالكم} أي: أنزلوا عليها {لا تظلمون} من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا {ولا تظلمون} بنقص رءوس أموالكم.

{وإن كان} المدين {ذو عسرة} لا يجد وفاء {فنظرة إلى ميسرة} وهذا واجب عليه أن ينظره حتى يجد ما يوفي به {وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون} إما بإسقاطها أو بعضها.

{واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون} وهذه الآية من آخر ما نزل من القرآن، وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي، لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل الشر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجلي والخفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة، أوجب له الرغبة والرهبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة البقرة (٢٧٢-٢٨١)

الكلمة	المعنى
يوفّ إليكم	يرجعُ إليكم وافيا كاملا
أُحصِروا في سبيل الله	حُبِسوا للجهاد في سبيل الله
ضرْبا في الأرض	سفرا في الأرض للتكسّب
التعفّف	التنزّه عن المسألة
بسيماهم	بعلامتهم وهيئتهم
إلحافا	إلحاحا
يتخبّطه الشيطان	يصرعُه
المسّ	الجنون
ما سلَف	ما تقدّم قبل بلوغه النهي
يَمحَق	يُفسد ويُذهب البركة
ويُربِي	ويزيد ويبارك
وذَرُوا	واتركوا
فأْذنُوا بِحَرب	فأيقنوا به
ذو عُسْرة	صاحب فقر لا يجد ما يسدد به دَينه
فنَظِرَة	فإمهال وتأخير
إلى ميْسرة	حتى يجد ما يسددُ به دَينه

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة البقرة ٢٧٢-٢٨١

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة البقرة من الآية الثانية والسبعين بعد المائتين وحتى الآية الحادية والثمانين بعد المائتين.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى (ليس عليك هداهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن بعدها (ولكن) للاستدراك، ولا يصح الوقف قبل الاستدراك.

وهل يصح الوقف على قوله (ولكن الله يهدي من يشاء)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ شرطيةٌ مبدوءةٌ بـ (ما) الشرطية في قوله (وما تنفقوا من خيرٍ فلأنفسكم)، و (ما) تأتي شرطيةً وتأتي نافيةً وتأتي موصولةً، فكيف علمنا أنها شرطيةٌ هنا؟ بدليل الفاء في جوابها في قوله (وما تنفقوا من خيرٍ فلأنفسكم) فهي شرطيةٌ فصح الابتداء بها.

وهل يصح الوقف على قوله (وما تنفقوا من خيرٍ فلأنفسكم)؟

نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت، ثم ابتدأ بعدها جملةً مبدوءةً بـ (ما) النافية في قوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله)، والدليل على أن (ما) هنا نافيةً مجيء (إلا) بعدها في قوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله)، ويصح الابتداء بالنفي عادةً.

وهل يصح الوقف على قوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله)؟

نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي باستثنائها قد انتهت، ثم ابتدأ بعدها جملةً شرطيةً مبدوءةً بـ (ما) الشرطية في قوله (وما تنفقوا من خيرٍ يوفَ إليكم) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وما تنفقوا من خيرٍ يوف إليكم)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (وأنتم لا تظلمون) جملةٌ حاليةٌ، والمعنى: ما تنفقونه من خيرٍ تجدونه وافيًا كاملاً وأنتم لا تظلمون منه شيئًا، يعني: والحال أنكم لا تظلمون منه شيئًا.

الآية التي تليها: قول الله تعالى (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله):

هذه الآية اشتملت على وصف هؤلاء الفقراء بخمس جملٍ، الجملة الأولى (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله) هذه الجملة الابتدائية، ثم جاءت بعضها (لا يستطيعون ضربًا في الأرض) هذه الثانية (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) هذه الثالثة (تعرفهم بسيماهم) هذه الرابعة (لا يسألون الناس إلحافًا) هذه الخامسة.

فهذه خمس جملٍ كلها تحتمل أن تكون في محل نصب حال من فاعل (أُحصروا)، وتحتمل أن تكون استئنافيةً، فإذا اعتبرناها حاليةً وهو الذي سار عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء فلا وقف في الآية إلى قوله (لا يسألون الناس إلحافًا)، وإذا اعتبرناها استئنافيةً فقد نص جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء على الوقف على هذه الجمل ماعدا الجملة الأولى، بمعنى أنهم لا يصححون الوقف على قوله (أحصروا في سبيل الله)، بينما صحح جماعةٌ منهم الوقف على قوله (ضربًا في الأرض) وعلى قوله (أغنياء من التعفف) وعلى قوله (بسيماهم).

ونص كثيرٌ من العلماء على الوقف على قوله (من التعفف) أكثر من الوقف على بقية الجمل، لماذا؟ نظروا نظرةً أخرى وهي أن جملة (لا يستطيعون ضربًا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) هي من وصف الفقراء أنفسهم، بينما جملة (تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافًا) هي من حالك أنت أيها المتصدق لمعرفتك بحالهم، فصح الوقف على قوله (من التعفف).

وهل يصح الوقف على قوله (لا يسألون الناس إلحافًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه انتهى من وصف حال الفقراء بهذه الجمل، بالإضافة إلى أنه جاء بعدها (ما) الشرطية، فما بعدها جملةٌ شرطيةٌ في قوله (وما تنفقوا من خيرٍ فإن الله به عليم) والدليل على أن (ما) هنا شرطيةٌ مجيء الفاء في جوابها في قوله (فإن الله به عليم).

الآية التي تليها: (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانيةً) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، كما نص عليه الأشموني، ووجهه أن قوله (فلهم أجرهم عند ربهم) في محل رفع خبر المبتدأ، المبتدأ هو قوله (الذين) ثم وصفهم بأنهم (ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرًّا وعلانيةً)، خبرها (لهم أجرهم عند ربهم).

وهل يصح الوقف على قوله (فلهم أجرهم عند ربهم)؟

جوز الوقف هنا السجاوندي والأنصاري والأشموني، ووجهه أن الجملة التي بعدها جملةٌ معطوفةٌ عليها، وبينهما اختلافٌ، ما نوع الاختلاف؟ أن هذه جملةٌ مثبِتةٌ وما بعدها جملةٌ نافيةٌ، فصح الوقف للفصل بين الإثبات والنفي، أين الإثبات؟ في قوله (لهم أجرهم عند ربهم) أثبت لهم أجرًا عند الله، والنفي في قوله (ولا خوفٌ عليهم) فنفى الخوف عنهم، فصح الفصل بين الإثبات والنفي.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا خوفٌ عليهم)؟

جوزه الأنصاري والأشموني ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ووجهه عندهم أنهما جملتان معطوفتان على بعض فصح الفصل بينهما، والأوجه عدم الوقف هنا لأنهما جملتان مرتبطتان ببعض بأنه لا خوفٌ عليهم في المستقبل ولا هم يحزنون على الماضي، فهذا عطفٌ وثيق الصلة، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الاسمية التي ابتدئت بقوله (الذين) قد انتهت هنا، ثم ابتدأ جملةً مستأنفةً تعليليةً بقوله (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى بين قولهم، ثم رد عليهم في الجملة التي تليها، فينبغي الفصل بين قولهم وبين رد الله عليهم في قوله (وأحل الله البيع وحرم الربا).

وهل يصح الوقف على قوله (وحرّم الربا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي رد الله بها عليهم قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً شرطيةً فيها استئناف معنًى جديدٍ، وذلك أنه ابتدأ في بيان حكم من جاءه الأمر من الله سبحانه وتعالى وقد سبق أن تعامل بالربا قبل ذلك بقوله (فمن جاءه موعظةٌ من ربه) فصح الوقف، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فمن جاءه موعظةٌ من ربه فانتهى)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ في قوله (من) فعله (جاءه موعظةٌ من ربه) أين جوابه؟ هل هو (فانتهى) أو (فله ما سلف)؟

الجواب: (فله ما سلف)، (فانتهى)جملةٌ معطوفةٌ على قوله (جاءه)، فهي جملةٌ معطوفةٌ على فعل الشرط وليست هي جواب الشرط، جواب الشرط أنه من جاءه موعظةٌ من ربه ما النتيجة؟ (له ما سلف وأمره إلى الله).

وهل يصح الوقف على قوله (فله ما سلف)؟

نص على الوقف هنا الهبطي والسجاوندي وحسنه الأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ووجهه عندهم أن الجزاء قد انتهى، وأن جملة الشرط في قوله (فمن جاءه موعظةٌ من ربه فانتهى فله ما سلف) قد انتهت هنا.

والحقيقة أن جملة (فأمره إلى الله) تحتمل أن تكون جملةً استئنافيةً فيصح الوقف على قوله (فله ما سلف)، وتحتمل أن تكون جملةً معطوفةً في محل جزم، لأنها معطوفةً على جواب الشرط (فله ما سلف)، وهذا هو الأقرب، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأمره إلى الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية وما عطف عليها قد انتهى، ثم جاءت جملةٌ شرطيةٌ جديدةٌ في قوله (ومن عاد) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن عاد فأولئك أصحاب النار)؟

جوز الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء ولم ينص عليه الأكثر، وإذا تأملنا فإن قوله (هم فيها خالدون) قد امتلأت هذه الجملة بالضمائر العائدة إلى الجملة السابقة، (هم) يعني الذين عادوا (فيها) يعني في النار (خالدون) فالأوجه هنا عدم الوقف، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (يمحق الله الربا ويربي الصدقات) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله لا يحب كل كفارٍ أثيمٍ).

الآية التي تليها: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن خبر (إنّ) لم يأت بعد، (إنّ) لها اسم وخبر، اسمها (الذين آمنوا) وما عطف عليها معطوفٌ على الاسم، خبرها (لهم أجرهم عند ربهم).

وهل يصح الوقف على قوله (لهم أجرهم عند ربهم)؟

سبق الكلام على شبيهتها قبل قليل، وقد ذكرت أن هناك من جوزه من أهل العلم لعلة الاختلاف بين الإثبات والنفي، (لهم أجرهم عند ربهم) إثبات (ولا خوفٌ عليهم) نفي، والأمر فيه محتملٌ، والله أعلم.

الآية التي تليها: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وذروا ما بقي من الربا) معطوفٌ على قوله (اتقوا الله) وهذا العطف وثيق الصلة، يعني كأنه قال: اتقوا الله وليكن تقواكم بترك ما بقي من الربا، فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وذروا ما بقي من الربا)؟

تأمل قوله (إن كنتم مؤمنين) (إن) هنا شرطيةٌ لكن لا يصح الابتداء بها، لماذا؟ لأن جواب الشرط محذوفٌ دل عليه ما قبلها، يعني كأنه قال: إن كنتم مؤمنين فذروا ما بقي من الربا، فلذلك لم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله ورسوله) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية المبدوءة بقوله (فإن لم تفعلوا) قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً شرطيةً أخرى في قوله (وإن تبتم) فصح الفصل بين الجملتين، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم)؟

جوزه بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه البقية، ووجهه أن جملة (لا تَظلمون ولا تُظلمون) هي من تتمة بيان الحال، يعني: إن تبتم فلكم رؤوس أموالكم، وهذا الحكم حتى لا تظلموا غيركم ولا تُظلموا من غيركم، فجملة (لا تَظلمون ولا تُظلمون) في محل نصب حال من الضمير في قوله (لكم)، فلكم لا تَظلمون ولا تُظلمون، فالأوجه عدم الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإن كان ذو عسرةٍ فنظرةٌ إلى ميسرة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة (وأن تصدقوا خيرٌ لكم) في موضع رفع بالابتداء، تقديره: والتصدق خيرٌ لكم أو: وتصدقكم خيرٌ لكم، فصح الوقف قبلها والابتداء بها.

وهل يصح الوقف على قوله (وأن تصدقوا خيرٌ لكم)؟

تأمل ما بعدها (إن كنتم تعلمون)، (إن) هنا شرطية فهل يصح الوقف قبلها؟ الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن (إن) الشرطية هذه مثل (إن) في قوله (إن كنتم مؤمنين) جوابها محذوفٌ دل عليه ما قبلها، فالتقدير: إن كنتم تعلمون لعلمتم أن تصدقكم خيرٌ لكم، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي وحسنه الأنصاري وجعل الأشموني الوقف هنا مختلفًا باختلاف القراءات، فعلى قراءة أبي عمرو (تَرجعون فيه إلى الله ثم تُوفى) يحسن الوقف، لماذا؟ لأن الفعلين فعل (تَرجعون) و (تُوفى) مختلفين في البناء، فذاك مبنيٌّ للمعلوم وهذا مبنيٌّ لما لم يسمّ فاعله.

وعلى قراءة الجمهور (تُرجعون فيه إلى الله ثم تُوفى) الفعلان مبنيان لما لم يسمّ فاعله، فلا وقف بناءً على ذلك، وهذا التفصيل الذي ذكره الأشموني لعله هو الأقرب، والله تعالى أعلم.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

لطائف سورة البقرة ٢٧٢-٢٨١

سبب نزول: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء):

أخرج النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني والحاكم وصححه عن ابن عباس قال: كانوا يكرهون أن يرضخوا (يعطوا مالا) لأنسابهم من المشركين فسألوا فنزلت هذه الآية {ليس عليك هداهم} إلى قوله {وأنتم لا تظلمون} فرخص لهم.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا أن لا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية {ليس عليك هداهم} إلى آخرها فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين. الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ٨٦).

كتابة (الربا) في القرآن:

قال محمد بن يزيد: كتب (الربا) في المصحف بالواو فرقا بينه وبين الزنا، وكان الربا أولى منه بالواو، لأنه من ربا يربو. تفسير القرطبي (٣/ ٣٥٣).

(يمحق الله الربا ويربي الصدقات):

قال ابن تيمية: قال سبحانه: {يمحق الله الربا ويربي الصدقات} فجعل الربا نقيض الصدقة؛ لأن المربي يأخذ فضلا في ظاهر الأمر يزيد به ماله، والمتصدق ينقص ماله في الظاهر، لكن يمحق الله الربا ويربي الصدقات، وقال سبحانه في الآية الأخرى: {وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون}.

فكما أن الشارع أوجب الصدقة التي فيها الإعطاء للمحتاجين حرم الربا الذي فيه أخذ المال من المحتاجين؛ لأنه سبحانه علم أن صلاح الخلق في أن الغني يؤخذ منه ما يعطى للفقير، وأن الفقير لا يؤخذ منه ما يعطى للغني. ثم رأيت هذا المعنى مأثورا على علي بن موسى الرضى رضي الله عنه وعن آبائه أنه سئل لم حرم الله الربا؟ فقال: لئلا يتمانع الناس المعروف، فهذا في الجملة ينبه على بعض علل الربا. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٦/ ١٦٩-١٧٠).

مناسبة: (والله لا يحب كل كفار أثيم):

قال ابن كثير: ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرابي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفي بما شرع له من التكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل. تفسير ابن كثير (١/ ٧١٥).

أقسام الناس وأحكامهم في الأموال:

قال ابن القيم: الله سبحانه قسم خلقه إلى غني وفقير، ولا تتم مصالحهم إلا بسد خلة الفقير، فأوجب سبحانه في فضول أموال الأغنياء ما يسد به خلة الفقراء، وحرم الربا الذي يضر بالمحتاج، فكان أمره بالصدقة ونهيه عن الربا أخوين شقيقين؛ ولهذا جمع الله بينهما في قوله: {يمحق الله الربا ويربي الصدقات} وقوله: {وما آتيتم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون}، وذكر الله سبحانه أحكام الناس في الأموال في آخر سورة البقرة، وهي ثلاثة: عدل، وظلم، وفضل؛ فالعدل البيع، والظلم الربا، والفضل الصدقة؛ فمدح المتصدقين وذكر ثوابهم، وذم المرابين وذكر عقابهم، وأباح البيع والتداين إلى أجل مسمى. إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢/ ١٤).

وقال ابن تيمية: وهو سبحانه دائما يحرم الظلم ويوجب العدل ويندب إلى الفضل، كما في آخر سورة البقرة لما ذكر حكم الأموال، والناس فيها إما محسن وإما عادل وإما ظالم؛ فالمحسن المتصدق، والعادل المعاوض كالبائع، والظالم كالمرابي.

فبدأ بالإحسان والصدقة فذكر ذلك ورغب فيه فقال: {مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل} الآيات. ثم ذكر تحريم الربا، فقال: {الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس}... ثم لما أحل البيع ذكر المداينات، وحكم البيع الحال والمؤجّل، وحفظ ذلك بالكتاب والشهود أو الرهن. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٥/ ٦٢).

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين):

قال ابن عثيمين: كيف يوجه الخطاب للمؤمنين، ويقول: {إن كنتم مؤمنين} ؛ أفلا يكون في هذا تناقض؟ فالجواب: ليس هنا تناقض؛ لأن معنى الثانية التحدي؛ أي إن كنتم صادقين في إيمانكم فاتقوا الله، وذروا ما بقي من الربا. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٨٣).

(وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم...):

قال ابن القيم: قوله: {وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون} تحريم للظلم. {وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة} عدل. {وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون} فضل. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٤٢٩).

وقال أيضا: فإن أبت نفوسكم وشحت بالعدل والواجب أو الفضل المندوب فذكّروها يوماً ترجعون فيه إلى الله وتلقون ربكم فيوفيكم جزاءَ أعمالكم أحوج ما أنتم إليه. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٧٨).

(وأن تصدقوا خير لكم):

قال ابن عثيمين: الإبراء سنة؛ والإنظار واجب؛ وهنا السنة أفضل من الواجب بنص القرآن؛ لقوله تعالى: {وأن تصدقوا خير لكم} ؛ ووجه ذلك أن الواجب ينتظم في السنة؛ لأن إبراء المعسر من الدين إنظار، وزيادة؛ وعلى هذا فيبطل إلغاز من ألغز بهذه المسألة، وقال: «لنا سنة أفضل من الواجب»، ومثل ذلك قول بعضهم في الوضوء ثلاثا: «إنه أفضل من الوضوء واحدة مع أن الواحدة واجب، والثلاث سنة»؛ فيلغز بذلك، ويقول: «هنا سنة أفضل من واجب» ؛ فيقال له: هذا إلغاز باطل؛ لأن هذه السنة مشتملة على الواجب؛ فهي واجب، وزيادة؛ وصدق الله حيث قال في الحديث القدسي: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه» [البخاري]؛ وهذا الحديث يبطل مثل هذه الألغاز التافهة. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٩٢-٣٩٣).

(واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله):

قال ابن عثيمين: التقوى قد تضاف لغير الله لكن إذا لم تكن على وجه العبادة؛ فيقال: اتق فلانا، أو: اتق كذا؛ وهذا في القرآن والسنة كثير؛ قال الله سبحانه وتعالى: {واتقوا الله لعلكم تفلحون * واتقوا النار التي أعدت للكافرين} ؛ لكن فرق بين التقويين؛ التقوى الأولى تقوى عبادة، وتذلل، وخضوع؛ والثانية تقوى وقاية فقط: يأخذ ما يتقي به عذاب هذا اليوم، أو عذاب النار؛ وفي السنة قال النبي صلى الله عليه وسلم: «اتق دعوة المظلوم» [متفق عليه]؛ فأضاف «التقوى» هنا إلى «دعوة المظلوم»؛ واشتهر بين الناس: اتق شر من أحسنت إليه؛ لكن هذه التقوى المضافة إلى المخلوق ليست تقوى العبادة الخاصة بالله عز وجل؛ بل هي بمعنى الحذر. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٩٧).

آخر آية نزلت من القرآن:

قال ابن عباس، وأبو سعيد الخدري، وسعيد بن جبير، وعطية، ومقاتل في آخرين: هذه آخر آية نزلت من القرآن (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله). قال ابن عباس: وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها بأحد وثمانين يوما. زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٤٩).

الرد على دعوى أن القرآن شعر:

قال الخطيب الإسكافي: من نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه شاعر وأن ما أتى به شعر فهو جاحد كافر، لأنه يعلم أن القرآن ليس بشعر لا في أوزان آياته ولا في تشاكل مقاطعه إذ منه آية طويلة، وأخرى إلى جنبها قصيرة كآية الدّين في طولها والآية التي قبلها في قصرها وهي: (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ). درة التنزيل وغرة التأويل (١/ ١٢٩٤).

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد سورة البقرة ٢٧٢-٢٨١

(ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء):

قال ابن تيمية: الرسول يدعو إلى الله ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وهو يهديهم بمعنى أنه يدعوهم ويبين لهم، وليس في قدرته أن يجعل الهدى ولا الضلالة في قلب أحد، بل ذلك لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى: (إنك لا تهدي من أحببت)، وقال تعالى: (إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل)، أي: من يضله الله لا يهدى، كما قال: (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا)، وقال: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء). ولهذا أمر الله عباده أن يقولوا (اهدنا الصراط المستقيم)، وهذه الهداية المطلوبة من الله، لا يقدر عليها إلا الله. جامع المسائل لابن تيمية (٢/ ٧٤).

وقال ابن عثيمين: الإنسان إذا بلغ شريعة الله برئت ذمته؛ لقوله تعالى: {ليس عليك هداهم}؛ ولو كانت ذمته لا تبرأ لكان ملزما بأن يهتدوا. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٦٣).

(ولكن الله يهدي من يشاء):

قال ابن عثيمين: هداية الخلق بمشيئة الله؛ ولكن هذه المشيئة تابعة للحكمة؛ فمن كان أهلا لها هداه الله؛ لقوله تعالى: {الله أعلم حيث يجعل رسالته}؛ ومن لم يكن أهلا للهداية لم يهده؛ لقوله تعالى: {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، ولقوله تعالى: {إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم}. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٦٤).

(وما تنفقوا من خير...):

قال ابن عثيمين: الإشارة إلى أن الإنفاق من الحرام لا يقبل؛ وذلك لقوله تعالى: {من خير}؛ ووجهه: أن الحرام ليس بخير؛ بل هو شر. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٦٦).

(للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله...)

قال ابن القيم: فهذه ست صفات للمستحقين للصدقة، فألغاها أكثر الناس ولحظوا منها ظاهر الفقر وزيه من غير حقيقته، وأما سائر الصفات المذكورة فعزيز أهلها، ومن يعرفهم أعز، والله يختص بتوفيقه من يشاءُ. فهؤلاء هم المحسنون في أموالهم. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٧٧-٣٧٨).

(لا يستطيعون ضربا في الأرض):

قال ابن عثيمين: لا يجوز أن نعطي من يستطيع التكسب؛ لقوله تعالى: {لا يستطيعون ضربا في الأرض}؛ لأنه علم منه أنهم لو كانوا يستطيعون ضربا في الأرض والتكسب فإنهم لا يعطون؛ ولهذا لما جاء رجلان إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يسألانه الصدقة صعّد فيهما النظر وصوبه، ثم قال: «إن شئتما أعطيتكما؛ ولا حظ فيها لغني، ولا لقوي مكتسب» [أحمد وأبو داود]؛ فإذا كان الإنسان يستطيع الضرب في الأرض والتجارة والتكسب، فإنه لا يعطى؛ لأنه وإن كان فقيرا بماله؛ لكنه ليس فقيرا بعمله. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٦٩).

(يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف):

قال ابن عثيمين: {من التعفف} أي بسبب تعففهم عن السؤال، وإظهار المسكنة؛ لأنك إذا رأيتهم ظننتهم أغنياء مع أنهم فقراء، كقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة، واللقمتان والتمرة، والتمرتان؛ ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس» [متفق عليه]. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٦٨).

(لا يسألون الناس إلحافا):

قال ابن عثيمين: الثناء على من لا يسأل الناس؛ لقوله تعالى: {لا يسألون الناس إلحافا}؛ وقد كان من جملة ما بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه: ألا يسألوا الناس شيئا؛ حتى إن الرجل ليسقط سوطه من على بعيره، فينزل، فيأخذه ولا يقول لأخيه: أعطني إياه [مسلم]؛ كل هذا بعدا عن سؤال الناس. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٧١).

(الذين ينفقون أموالهم):

عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فم امرأتك». صحيح البخاري (١/ ٢١).

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجرا الذي أنفقته على أهلك». صحيح مسلم (٢/ ٦٩٢).

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أنفق المسلم نفقة على أهله، وهو يحتسبها، كانت له صدقة» صحيح البخاري (٧/ ٦٢)، صحيح مسلم (٢/ ٦٩٥).

(الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية...):

قال الألوسي: وقدم الليل على النهار والسر على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار. روح المعاني (٢/ ٤٦).

(ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون):

قال ابن عثيمين: الإنفاق يكون سببا لشرح الصدر، وطرد الهم، والغم؛ لقوله تعالى: {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}؛ وهذا أمر مجرب مشاهد أن الإنسان إذا أنفق يبتغي بها وجه الله انشرح صدره، وسرت نفسه، واطمأن قلبه. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٧٣).

(الذين يأكلون الربا):

قال البغوي: {الذين يأكلون الربا} أي يعاملون به، وإنما خص الأكل لأنه معظم المقصود من المال. تفسير البغوي (١/ ٣٤٠).

(**لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ**):

قال ابن تيمية: وجود الجن ثابت بكتاب الله، وسنة رسوله، واتفاق سلف الأمة، وأئمتها. وكذلك دخول الجني في بدن الإنسان ثابت باتفاق أئمة أهل السنة والجماعة، قال الله تعالى: {الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس}، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم». وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل قلت لأبي: إن أقواما يقولون: إن الجني لا يدخل في بدن المصروع، فقال: يا بني يكذبون، هذا يتكلم على لسانه. وهذا الذي قاله أمر مشهور... وليس في أئمة المسلمين من ينكر دخول الجني في بدن المصروع وغيره، ومن أنكر ذلك وادعى أن الشرع يكذب ذلك، فقد كذب على الشرع، وليس في الأدلة الشرعية ما ينفي ذلك. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٣/ ١٢-١٣).

وقال ابن عثيمين: الشيطان يتخبط بني آدم فيصرعه؛ ولا عبرة بقول من أنكر ذلك من المعتزلة، وغيرهم؛ وقد جاءت السنة بإثبات ذلك؛ والواقع شاهد به؛ وقد قسم ابن القيم - رحمه الله - في زاد المعاد الصرع إلى قسمين: صرع بتشنج الأعصاب؛ وهذا يدركه الأطباء، ويقرونه، ويعالجونه بما عندهم من الأدوية، والثاني: صرع من الشيطان؛ وذلك لا علم للأطباء به؛ ولا يعالج إلا بالأدوية الشرعية كقراءة القرآن، والأدعية النبوية الواردة في ذلك. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٧٦).

(**ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا**):

قال ابن القيم: عارضوا تحريمه للربا بعقولهم التي سوت بين الربا والبيع، فهذا معارضة النص بالرأي، ونظير ذلك مما عارضوا به تحريم الميتة بقياسها على المذكى، وقالوا: تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون مما قتل الله، وفي ذلك أنزل الله: {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون}، وعارضوا أمره بتحويل القبلة بعقولهم، وقالوا إن كانت القبلة الأولى حقا فقد تركت الحق وإن كانت باطلا فقد كنت على باطل، وإمام هؤلاء شيخ الطريقة إبليس عدو الله، فإنه أول من عارض أمر الله بعقله وزعم أن العقل يقتضي خلافه. الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة (٣/ ٨٩٥-٨٩٦).

(وأحل الله البيع وحرم الربا):

قال ابن عثيمين: الحكم لله تبارك وتعالى وحده؛ فما أحله فهو حلال؛ وما حرمه فهو حرام، سواء علمنا الحكمة في ذلك، أم لم نعلم؛ لأنه تعالى رد قولهم: {إنما البيع مثل الربا} بقوله تعالى: {وأحل الله البيع وحرم الربا}؛ فكأنه قال: ليس الأمر إليكم؛ وإنما هو إلى الله. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٧٧).

(فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف):

قال ابن القيم: الأحكام إنما تثبت في حق العبد بعد بلوغه هو وبلوغها إليه، فكما لا يترتب في حقه قبل بلوغه، كذلك لا يترتب في حقه قبل بلوغها إليه، وهذا مجمع عليه في الحدود أنها لا تقام إلا على من بلغه تحريم أسبابها، وما ذكرناه من النظائر يدل على ثبوت ذلك في العبادات والحدود، ويدل عليه أيضا في المعاملات قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} فأمرهم تعالى أن يتركوا ما بقي من الربا وهو ما لم يقبض، ولم يأمرهم برد المقبوض لأنهم قبضوه قبل التحريم، فأقرهم عليه، بل أهل قباء صلوا إلى القبلة المنسوخة بعد بطلانها ولم يعيدوا ما صلوا، بل استداروا في صلاتهم وأتموها لأن الحكم لم يثبت في حقهم إلا بعد بلوغه إليهم. بدائع الفوائد (٤/ ١٦٨).

وقال ابن القيم: العقد الذي وقع في حال الكفر على هذا الوجه لا يحكم له بصحة، ولا فساد، بل يقرون عليه كما يقرون على كفرهم، فإن استمروا على الكفر لم نتعرض لعقودهم، وإن أسلموا حكم ببطلان ما يقتضي الإسلام بطلانه من حين الإسلام لا قبل ذلك، كالحكم في سائر عقودهم من بياعاتهم وغيرها، فما كان قبل الإسلام فهو عفو لا نحكم له بأحكام الإسلام، قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا}، فأمر بترك ما بقي دون رد ما قبض، ولم يكن صحيحا، بل كان عفوا، كما قال سبحانه: {فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف}، فجعل له ما سلف من الربا، وإن لم يكن مباحا له، وكذلك سائر العقود له ما سلف منها، ويجب عليه ترك ما يحرمه الإسلام، وهذه الآية هي الأصل في هذا الباب جميعه، فإنه تعالى لم يبطل ما وقع في الجاهلية على خلاف شرعه، وأمر بالتزام شرعه من حين قام الشرع، ومن تأمل حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في باب أنكحة الكفار إذا أسلموا عليها وجده مشتقا من القرآن مطابقا له. أحكام أهل الذمة (٢/ ٧١٠).

وقال ابن عثيمين: ما أخذه الإنسان من الربا قبل العلم فهو حلال له بشرط أن يتوب، وينتهي؛ لقوله تعالى: {فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف}.

ومنها: أنه لو تاب من الربا قبل أن يقبضه فإنه يجب إسقاطه؛ لقوله تعالى: {فانتهى}؛ ومن أخذه بعد العلم فإنه لم ينته؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في عرفة في حجة الوداع: «ألا وإن ربا الجاهلية موضوع؛ وأول ربا أضعه ربانا ربا العباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله» [مسلم]؛ فبين صلى الله عليه وسلم أن ما لم يؤخذ من الربا فإنه موضوع. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٧٧).

(ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون):

«فانطلقنا، فأتينا على نهر - حسبت أنه كان يقول - أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فيفغر له فاه فيلقمه حجرا فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فغر له فاه فألقمه حجرا» قال: " قلت لهما: ما هذان؟... وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجر، فإنه آكل الربا. صحيح البخاري (٩/ ٤٤).

(يمحق الله الربا):

قال ابن عثيمين: {يمحق الله الربا} «المحق» بمعنى الإزالة؛ أي يزيل الربا؛ والإزالة يحتمل أن تكون إزالة حسية، أو إزالة معنوية، فالإزالة الحسية: أن يسلط الله على مال المرابي ما يتلفه؛ والمعنوية: أن ينزع منه البركة...

(ويربي الصدقات) أي يزيدها؛ والزيادة إما أن تكون حسية؛ وإما أن تكون معنوية؛ فإن كانت حسية فبالكمية، مثل أن ينفق عشرة، فيخلف الله عليه عشرين؛ وأما المعنوية فأن ينزل الله البركة في ماله. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٧٨-٣٧٩).

(ويربي الصدقات):

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربيها لصاحبه، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل». صحيح البخاري (٩/ ١٢٦)، صحيح مسلم (٢/ ٧٠٢).

(يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين):

عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا، فإن لم يأكله أصابه من غباره». سنن أبي داود (٣/ ٢٤٤)، مسند أحمد (١٦/ ٢٥٨).

(وذروا ما بقي من الربا):

قال ابن تيمية: المربي لا يستحق في ذمم الناس إلا ما أعطاهم أو نظيره. فأما الزيادات فلا يستحق شيئا منها؛ لكن ما قبضه قبل ذلك بتأويل فإنه يعفى عنه. وأما ما بقي له في الذمم فهو ساقط؛ لقوله: {وذروا ما بقي من الربا}. مجموع الفتاوى (٢٩/ ٤٣٧)

(وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين):

قال ابن عثيمين: ممارسة الربا تنافي الإيمان؛ لقوله تعالى: {إن كنتم مؤمنين}؛ ولكن هل يخرج الإنسان من الإيمان إلى الكفر؟ مذهب الخوارج أنه يخرجه من الإيمان إلى الكفر؛ فهو عند الخوارج كافر، كفرعون، وهامان، وقارون؛ لأنه فعل كبيرة من كبائر الذنوب؛ ومذهب أهل السنة والجماعة أنه مؤمن ناقص الإيمان؛ لكنه يخشى عليه من الكفر لا سيما آكل الربا؛ لأنه غذي بحرام؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم حين ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام: «فأنى يستجاب لذلك» [مسلم] نسأل الله العافية. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٨٥).

(فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله):

قال ابن تيمية: وأما الربا فتحريمه في القرآن أشد ولهذا قال: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله}، وذكره النبي صلى الله عليه وسلم في الكبائر كما خرجاه في الصحيحين، عن أبي هريرة، وذكر الله سبحانه أنه حرم على الذين هادوا طيبات أحلت لهم، بظلمهم وصدهم عن سبيل الله، وأخذهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، وأخبر أنه يمحق الربا ويربي الصدقات، وكلاهما أمر مجرب عند الناس، وذلك؛ لأن الربا أصلا إنما يفعله المحتاج، وإلا فالموسر لا يأخذ ألفا حالة بألف ومائتين مؤجلة إذا لم يكن له حاجة بتلك الألف، وإنما يأخذ المال بمثله وزيادة إلى أجل من هو محتاج إليه، فتقع تلك الزيادة ظلما لمحتاج...

والربا فيه ظلم محقق لمحتاج، ولهذا كان ضد الصدقة، فإن الله تعالى لم يدع الأغنياء حتى أوجب عليهم إعطاء الفقراء، فإن مصلحة الغني والفقير في الدين والدنيا لا تتم إلا بذلك، فإذا أربى معه فهو بمنزلة من له على رجل دين فمنعه دينه، وظلمه زيادة أخرى، والغريم محتاج إلى دينه، فهو من أشد أنواع الظلم، ولعظمته لعن النبي صلى الله عليه وسلم آكله وهو الآخذ، وموكله هو المحتاج المعطي للزيادة، وشاهديه وكاتبه لإعانتهم عليه [مسلم]. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٤/ ١٧).

وقال ابن القيم: أكد عليهم التحريم بأغلظ شيء وأشده، وهي محاربة المرابي لله ورسوله، فقال تعالى: {فَإِن لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ} ففي ضمن هذا الوعيد أن المرابي محارب لله ورسوله، قد آذنه الله بحربه، ولم يجيء هذا الوعيد في كبيرة سوى الربا وقطع الطريق والسعي في الأرض بالفساد، لأن كل واحد منهما مفسد في الأرض، قاطع الطريق على الناس، هذا بقهره لهم وتسليطه عليهم، وهذا بامتناعه من تفريج كرباتهم إلا بتحميلهم كربات أشد منها. فأخبر عن قطاع الطريق بأنهم يحاربون الله ورسوله، وآذن هؤلاءِ إن لم يتركوا الربا بحربه وحرب رسوله. طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٣٧٨).

(وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم):

قال ابن تيمية: كان الرجل في الجاهلية يكون له على الرجل دين فيأتيه عند محل الأجل فيقول له: إما أن تقضي وإما أن تربي فإن قضاه وإلا زاده المدين في المال وزاده الغريم في الأجل فيكون قد باع المال بأكثر منه إلى أجل فأمرهم الله إذا تابوا أن لا يطالبوا إلا برأس المال. مجموع الفتاوى (٢٩/ ٤٤٠).

(لا تظلمون ولا تُظلمون):

قال ابن عثيمين: الإشارة إلى الحكمة من تحريم الربا - وهي الظلم؛ لقوله تعالى: {لا تظلمون ولا تظلمون} . فإن قال قائل: إن بعض صور الربا ليس فيه ظلم، مثل أن يشتري صاعا من البر الجيد بصاعين من الرديء يساويانه في القيمة؛ فإنه لا ظلم في هذه الصورة؛ قلنا: إن العلة إذا كانت منتشرة لا يمكن ضبطها فإن الحكم لا ينتقض بفقدها؛ ولهذا ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أتي إليه بتمر جيد فسأل: «من أين هذا؟ فقال بلال: تمر كان عندنا رديء فبعت منه صاعين بصاع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أوه أوه! عين الربا عين الربا لا تفعل» [متفق عليه]؛ ثم أرشدهم إلى أن يبيعوا التمر الرديء بالدراهم؛ ويشتروا بالدراهم تمرا جيدا؛ فدل هذا على أن تخلف الظلم في بعض صور الربا لا يخرجه عن الحكم العام للربا؛ لأن هذه العلة منتشرة لا يمكن ضبطها؛ ولهذا أمثلة كثيرة؛ ودائما نجد في كلام أهل العلم أن العلة إذا كانت منتشرة غير منضبطة فإن الحكم يعم، ولا ينظر للعلة. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٨٨).

(وإن كان ذو عسرة):

قال ابن عثيمين: حكمة الله عز وجل بانقسام الناس إلى موسر، ومعسر؛ الموسر في الآية: الدائن؛ والمعسر: المدين؛ وحكمة الله عز وجل هذه لا يمكن أن تستقيم أمور العباد إلا بها، ولذلك بدأ الشيوعيون - الذين يريدون أن يساووا بين الناس - يتراجعون الآن؛ لأنهم عرفوا أنه لا يمكن أن يصلح العباد إلا هذا الخلاف؛ قال عز وجل: {أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا} ؛ ولولا هذا الاختلاف لم يمكن أن يسخر لنا أحد ليعمل ما نريد؛ لأن كل واحد ند للآخر؛ فلا يمكن إصلاح الخلق إلا بما تقتضيه حكمة

الله عز وجل، وشرعه من التفاوت بينهم: فهذا موسر؛ وهذا فقير؛ حتى يتبين بذلك حكمة الله عز وجل، وتقوم أحوال العباد. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٩١).

(وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة):

عن أبي مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر»، قال: " قال الله عز وجل: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه). صحيح مسلم (٣/ ١١٩٥).

وعن أبي قتادة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من نفّس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة). مسند أحمد (٣٧/ ٢٥١)، سنن الدارمي (٣/ ١٦٨٧).

قال ابن عثيمين: لو اشترى فقير من شخص، وجعل الوفاء مقيدا بالميسرة فهل يجوز ذلك؟ فيه قولان؛ فأكثر العلماء على عدم الجواز لأن الأجل مجهول؛ فيكون من باب الغرر المنهي عنه؛ والقول الثاني: أن ذلك جائز لحديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: «قدم لفلان اليهودي بز من الشام لو أرسلت إليه فاشتريت منه ثوبين إلى الميسرة؛ فأرسل إليه فامتنع» [أحمد والترمذي]؛ ولأن هذا مقتضى العقد إذا علم البائع بإعسار المشتري؛ إذ لا يحل له حينئذ أن يطلب منه الثمن حتى يوسر؛ وهذا القول هو الراجح. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٩٥-٣٩٦).

(وأن تصدقوا خير لكم):

قال ابن عثيمين: المعاملة بالدين ثلاثة أقسام:

الأول: أن يأخذ به ربا؛ وهذا محرم؛ لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين}.

الثاني: أن يكون المدين معسرا؛ فلا تجوز مطالبته، ولا طلب الدين منه حتى يوسر؛ لقوله تعالى: {وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة}.

الثالث: أن يبرئ المعسر من دينه؛ وهذا أعلى الأقسام؛ لقوله تعالى: {وأن تصدقوا خير لكم}. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٩٥).

وقال أيضا: هل يستفاد من الآية الكريمة: أن إبراء الغريم يجزئ من الزكاة: فلو أن إنسانا أبرأ فقيرا، ثم قال: أبرأته عن زكاتي؛ لأن الله سمى الزكاة صدقة؛ فقال تعالى: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين} ؟ فالصحيح من أقوال أهل العلم أنه لا يجزئ؛ لأن الله عز وجل قال: {يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه} ؛ وجعل الدين زكاة للعين هذا من تيمم الخبيث لإخراجه عن الطيب؛ والمراد بالخبيث هنا الرديء - وليس الحرام؛ لأن العين ملك قائم بيد المالك يتصرف فيه كيف يشاء؛ والدين الذي على معسر مال تالف؛ لأن الأصل بقاء الإعسار؛ وحينئذ يكون هذا الدين بمنزلة المال التالف؛ فلا يصح أن يجعل هذا المال التالف زكاة عن العين؛ ولهذا قال شيخ الإسلام رحمه الله: إن إبراء الغريم المعسر لا يجزئ من الزكاة بلا نزاع؛ ولو قلنا: يجزئ لكان كل إنسان له غرماء لا يستطيعون الوفاء يقول: أبرأتكم ونويتها من الزكاة؛ فتبقى الأموال عنده، والديون التالفة الهالكة التي لا يرجى حصولها تكون هي الزكاة؛ وهذا لا يجوز؛ ولهذا لو خيرت شخصا، وقلت له: أنا أعطيك عشرة ريالات نقدا، أو أحولك على إنسان فقير معسر عنده العشرة فإنه يختار العشرة نقدا؛ ولا يتردد؛ بل لو خيرته بين عشرة نقدا، وعشرين في ذمة معسر لاختار العشرة؛ فصارت العشرة المنقودة بالنسبة للدين من باب الطيب؛ وذاك من باب الرديء؛ وبهذا يتبين أنه لا يجزئ إبراء المدين المعسر عن زكاة مال بيد مالكه؛ لأنه من باب تيمم الخبيث. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٣٩٣-٣٩٤).

(واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت):

حدثنا القاسم بن أبي أيوب قال: سمعت سعيد بن جبير يردد هذه الآية في الصلاة بضعا وعشرين مرة {واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون} . الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٣٠٠).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة البقرة ٢٧٢-٢٨١

١- إذا نصحت أحدا أو دعوته إلى الإسلام فاستخدم معه الأسلوب الأمثل في النصح، حتى تحبب الخير إليه وتدلّه عليه وترشده إليه، واعلم أنك بذلك أدّيت واجبك، فلا يلزم أن يستجيب لك ويقبل نصحك، بل الهداية بيد الله يهبها من يشاء من عباده، وهو العليم بمن يستحقها، الحكيم في وضع الأمور مواضعها (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء).

٢- إذا أنفقت نفقة من مال طيب حلال ابتغاء وجه الله فإنما تدّخره لنفسك في الآخرة، والله عليم به، وستجده وافيا كاملا يوم القيامة، لا ينقص منه مثقال ذرة، هذا غير ما تجده في الدنيا من نماء المال والبركة فيه (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون)، (وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم)، (ويربي الصدقات).

٣- كن باحثا عن الفقراء المتعففين الذين لا يقدرون على العمل والتكسّب، واعلم أنك تؤجر على تحرّيك وبحثك عن المستحق للصدقة (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا).

٤- إذا أردت السلامة من الخوف عما يحصل في المستقبل والحزن على الماضي فأنفق من مالك في جميع الأوقات على جميع الأحوال، وحقق إيمانك بالله، واحرص على الأعمال الصالحة ما استطعت، وأقم الصلاة في أوقاتها بأركانها وواجباتها وسننها (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)، (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

٥- أكل الربا من أكبر الكبائر، وهو سبب لزوال المال وزوال بركته، وقادح في كمال الإيمان الواجب، وصاحبه محارب لله ورسوله، مجانب للتقوى، جاحد لنعمة الله عليه، ظالم للفقراء والمساكين، مستغل لحاجتهم، سفيه في أقواله وأفعاله، متوعّد بالنار يوم القيامة، وسيقوم من قبره كالمصروع الذي به مسّ من الجن (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ)، (ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)، (يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم)، (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين

فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون).

٦- احذر كل الحذر من الاعتراض على أحكام الله بعقلك ورأيك، حتى لو لم تعلم الحكمة في ذلك، فإن عقلك ورأيك أصغر من أن يدرك حِكم الله في أوامره ونواهيه كلها، فسلّم لأمر الله لتحفظ إيمانك (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرّم الرّبا).

٧- ما أجمل أن تكون وقّافا عند أحكام الله، متّعظا بمواعظه، فإذا جاءك أمر الله امتثلت، وإذا جاءك نهيه انتهيت، ومن رحمة الله أنه لا يؤاخذك بالشيء قبل أن يبلغك علمه، ولا يُلزمك بتعويض ما سبق منه قبل بلوغ الأمر إليك (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله).

٨- يجب على من تاب من التعامل بالربا أن يترك ما بقي منه ولا يأخذه، حتى يظهر صدق توبته، وله رأس ماله بلا زيادة ولا نقصان (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين... وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون).

٩- إذا أعطيت أحدًا دَينًا فأنت محسن بعطائك، ولك الأجر على ذلك، فإن جاء وقت سداده وتبين لك أنه عاجز عن السداد حقيقة لا تلاعبا وتحايلا ومماطلة فأعطه مهلة إلى أن يجد مالا، واصبر على ذلك، وأنت مأجور على صبرك، وإن أكملت إحسانك بالعفو عنه ومسامحته إن كان محتاجا فقد بلغت الغاية في الإحسان (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون).

١٠- اجعل هذه الآية نصب عينيك في كل معاملاتك في الدنيا، واعلم أنك راجع إلى الله وستجد جزاء أعمالك الحسنة والسيئة، فأعدّ لذلك اليوم عملا يرضى به الله عنك (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة البقرة (٢٨٢-٢٨٦) من تفسير السعدي

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخْرَى وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلا تَرْتَابُوا إِلا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} .

هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكرا أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث أنه لا بد للسلم من أجل وأنه لا بد أن يكون معينا معلوما فلا يصح حالا ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوبا وإما استحبابا لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس: أن يكون عدلا في نفسه لأجل اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقرابة أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفا بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: {وليكتب بينكم كاتب بالعدل} التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر: قوله: {ولا يأب كاتب أن يكتب} أي: لا يمتنع من منَّ الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتداينين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يملي من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئا، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجبه ومضمونه، وهو

ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطا أو سهوا، الخامس عشر: أن من عليه حقا من الحقوق التي البينة على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينهه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئا من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولواحقه، السابع عشر: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار، الثامن عشر: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله {بالعدل} التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، العشرون: ثبوت الولاية في الأموال، الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعتوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئا لطفا بهم ورحمة، خوفا من تلاف أموالهم، الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتداينون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، الخامس والعشرون: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجبا، السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضا أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، التاسع والعشرون: أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم. الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: {فاستشهدوا شهيدين من رجالكم} والعبد البالغ من رجالنا، الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكورا كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها، الثالث والثلاثون:

أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: {فتذكر إحداهما الأخرى} الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: {ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا} السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء، السابع والثلاثون: النهي عن السآمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، الثامن والثلاثون: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه {أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا} فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها بل لا بد من اليقين، الأربعون: قوله: {إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها} فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرا بحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله: {وأشهدوا إذا تبايعتم} الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضا بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله: {ولا يضار كاتب ولا شهيد} مبنيا للمجهول، وأما على جعلها مبنيا للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجرة شاقة ونحو ذلك، وهذان هما الرابع والأربعون والخامس والأربعون والسادس والأربعون أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: {وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم} السابع والأربعون أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: {فإنه فسوق بكم} ولم يقل فأنتم فاسقون أو فُسّاق. الثامن والأربعون: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه- اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: {ممن ترضون من الشهداء} التاسع والأربعون: أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضيا معتبرا عند الناس قبلت شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه

الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، ولله في كلامه حكم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده.

وقوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}.

أي: إن كنتم مسافرين {ولم تجدوا كاتبا} يكتب بينكم ويحصل به التوثق {فرهان مقبوضة} أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودل أيضا على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنت به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضا عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنت به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضرا وسفرا، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثق لحقه، فما كان صاحب الحق آمنا من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملا غير ظالم له ولا باخس حقه {وليتق الله ربه} في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان {ولا تكتموا الشهادة} لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتمها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويخبر بضده وهو الكذب، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: {ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم} وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه.

{لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

هذا إخبار من الله أنه له ما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم ودبرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، فكانوا ملكا له وعبيدا، لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وهو ربهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه، وقد أمرهم ونهاهم وسيحاسبهم على ما أسروه

وأعلنوه، {فيغفر لمن يشاء} وهو لمن أتى بأسباب المغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره {والله على كل شيء قدير} لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيئته وتقديره وجزائه.

{آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}.

يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلا وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله {وقالوا سمعنا} ما أمرتنا به ونهيتنا {وأطعنا} لك في ذلك، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام، قالوا {غفرانك} أي: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحو ما اتصفنا به من العيوب {وإليك المصير} أي: المرجع لجميع الخلائق فتجزيهم بما عملوا من خير وشر.

{لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}.

لما نزل قوله تعالى {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله} شق ذلك على المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها مؤاخذون به، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها أي: أمرا تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها، كما قال تعالى {ما جعل عليكم في الدين من حرج} فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحمية عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحسانا، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما

اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغيره، وفي الإتيان بـ "كسب "في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب وأتى بـ "اكتسب "في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه وأن كل عامل سيجازى بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطيق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسيانا، والخطأ: أن يقصد شيئا يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحسانا، فعلى هذا من صلى في ثوب مغصوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسيا، أو فعل مفطرا ناسيا، أو فعل محظورا من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسيا، فإنه معفو عنه، وكذلك لا يحنث من فعل المحلوف عليه ناسيا، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفسا أو مالا فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسيا لم يضر. {ربنا ولا تحمل علينا إصرا} أي: تكاليف مشقة {كما حملته على الذين من قبلنا} وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها {ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به} وقد فعل وله الحمد {واعف عنا واغفر لنا وارحمنا} فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكاره والشرور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور {أنت مولانا} أي: ربنا ومليكنا وإلهنا الذي لم تزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فنعمك دارة علينا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، فنسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاوموا أهل دينك ونبذوا أمرك، فانصرنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتخذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه وصلى الله على محمد وسلم.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة البقرة (٢٨٢-٢٨٦)

الكلمة	المعنى
تدَايَنتُم	تعاملتم بالدَين
ولا يأْبَ	ولا يمتنع
ولْيُملِل	وليمْلِ على الكاتب وليقرّ بما عليه
ولا يبخسْ	ولا يَنقُصْ
سفيهًا	لا يحسن التعامل بالمال
تضِلّ إحداهما	تنسى إحدى المرأتين
ولا تسأَموا	ولا تملّوا
إلى أجَله	إلى موعد سداده
أقْسَط	أعْدَل
وأقْوم للشهادة	وأعظم عونا على أدائها على وجهها
ترْتابوا	تشكّوا
تجارة حاضرةً	حالّة غير مؤجّلة
فرِهان	فتضعون عند صاحب الحق عينا مالية ليستوفي حقه منها إذا تعذّر السداد
إلا وُسعها	إلا قدر طاقتها
إِصرًا	تكاليف شاقّة

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة البقرة ٢٨٢-٢٨٦

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة البقرة من الآية الثانية والثمانين بعد المائتين إلى آخر السورة.

أبدأ بقول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدينٍ إلى أجلٍ مسمًى فاكتبوه) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم يصح الوقف، ونص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه انتقل من صيغة الأمر إلى صيغة المضارع المجزوم بلام الأمر، فقال في البداية (فاكتبوه) هذه صيغة أمرٍ صريحة، ثم قال (وليكتب بينكم كاتبٌ بالعدل) لبيان حكمٍ جديدٍ متعلقٍ بالكاتب نفسه وهو أن يكون عدلاً، ثم اختلفت الصيغة فكانت في البداية أمرًا ثم مضارعًا مجزومًا بلام الأمر فصح الفصل بينهما، وإن كانت الواو هنا للعطف، وهي من قبيل عطف الجمل، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وليكتب بينكم كاتبٌ بالعدل)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الأمر انتهت، ثم جاءت بعدها جملة نهيٍ، وإن كانت معطوفةً عليها، فإنه يصح الفصل بين الأمر والنهي إذا عُطفا عطف جمل.

ثم بعد هذا وقع الاختلاف في جملة (ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله فليكتب) أين الوقف هنا؟

فمن العلماء من جعل الوقف (ولا يأب كاتبٌ أن يكتب)، (كما علمه الله فليكتب) كما هو عند الهبطي.

ومنهم من جعل الوقف (ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله)، (فليكتب)، فصححوا الوقف في الموضعين كما هو عند الداني والأنصاري والأشموني.

ومنهم من جعل الوقف (ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله فليكتب)، يعني لا وقف إلا على قوله (فليكتب) كما هو عند السجاوندي وابن الأنباري وغيرهما.

ومنهم من لم ينص على وقفٍ في هذه الجملة كلها.

فهذه أربعة أقوالٍ، أما القول الأول الذي ذهب إليه الهبطي من أن الوقف في البداية على قوله (ولا يأب كاتبٌ أن يكتب) ثم (كما علمه الله فليكتب) فهذا الوقف اعتبره الأشموني تعسفًا، وذلك أن الكاف في قوله

(كما علمه الله) الأصل أن تكون مرتبطةً بما قبلها، ومن التكلف ربطها بما بعدها، فالأصل أن نقول (ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله).

أما القول الثاني الذي جعل الوقف على قوله (كما علمه الله) ثم جعل وقفًا آخر على قوله (فليكتب) فهذا وجيهٌ، لأن جملة النهي في قوله (ولا يأب كاتبٌ أن يكتب كما علمه الله) انتهت هنا، ثم ابتدأ أمرًا جديدًا بقوله (فليكتب)، وهذا الأمر قد عُطف على أمرٍ آخر في قوله (وليملل الذي عليه الحق)، لكن هذا العطف ليس وثيق الصلة؛ لأن قوله (وليملل الذي عليه الحق) هذه جملةٌ عطف عليها قوله (وليتق الله ربه) يعني الذي عليه الحق (ولا يبخس منه شيئًا) يعني الذي عليه الحق، فهي جملةٌ عطفت على قوله (فليكتب) لكن عُطف على جزءٍ منها جملٌ أخرى فصح الوقف على قوله (فليكتب) أيضًا.

وهكذا من قال بالوقف الثالث بأنه لا وقف إلا على قوله (فليكتب) فإنه وجيهٌ.

أما من لم يجعل وقفًا في هذه الجملة كلها فهذا بعيدٌ، وأكثر علماء الوقف جعلوا وقفًا في هذه الجملة.

فأقرب الأقوال والعلم عند الله أنّ له أن يقف على قوله (كما علمه الله) ثم يقف على قوله (فليكتب)، ولو وقف على قوله (كما علمه الله) ثم لم يقف على (فليكتب) فهو وجيهٌ أيضًا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وليملل الذي عليه الحق)؟

جعل الأنصاري الوقف هنا جائزًا، وجعله الأشموني حسنًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا نظرنا! فإن قوله تعالى (وليتق الله ربه) جملةٌ معطوفةٌ على قوله (وليملل الذي عليه الحق) فهي جملةٌ معطوفةٌ لكنه عطفٌ وثيق الصلة، لأن الخطاب في الجملة الثانية موجهٌ إلى من وجه إليه الخطاب في الجملة الأولى، لما قال (وليملل الذي عليه الحق)، (وليتق الله ربه) يعني الذي عليه الحق، (ولا يبخس منه شيئًا) يعني الذي عليه الحق، فالأوجه هنا عدم الوقف إلا على قوله (ولا يبخس منه شيئًا) كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء؛ لأن بعدها جملةٌ شرطيةٌ، والجمل المعطوفات قد انتهت هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (فليملل وليه بالعدل)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، ثم ابتدأ أمرَا جديدًا بجملةٍ مستأنفةٍ، ما هي جملة الشرط؟ هي قوله (فإن كان الذي عليه الحق سفيهًا أو ضعيفًا أو لا يستطيع أن يمل هو) أين جواب الشرط؟ (فليملل وليه بالعدل) فانتهت الجملة هنا، ثم ابتدأ أمرًا جديدًا في قوله (واستشهدوا شهيدين من رجالكم).

وهل يصح الوقف على قوله (من رجالكم)؟

نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الحكم الأصلي قد انتهى، ثم ذكر البديل في حال عدم وجود الرجلين بجملةٍ شرطيةٍ مبدوءةٍ بأداة الشرط مع فاء التعقيب، يعني قال (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) هذا هو الأصل وانتهى الحكم، ثم ذكر بديلاً في حال عدم وجود الرجلين، قال (فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان...) إلى آخر الجملة، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ممن ترضون من الشهداء)؟

الوقف هنا موقوفٌ على اختلاف القراءات في قوله (أن تضل إحداهما) فمن قرأها بالفتح فإنه لا وقف عنده، ومن قرأها بالكسر فإنه يصح الوقف له، لماذا؟ لأن (إنّ) بالنسبة له (إن) شرطية، ويصح الوقف قبل (إن) الشرطية، والبديل قد انتهى في قوله (فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) ثم ذكر تعليلاً بجملةٍ شرطيةٍ في بيان أن المرأتين في مقابل الرجل أنه إن نسيت إحداهما ذكرتها الأخرى، بينما في القراءة الأخرى (أن تضل إحداهما) معنى الجملة: فرجلٌ وامرأتان ممن ترضون من الشهداء حتى تذكر إحداهما الأخرى إن نسيت، فلا وقف على هذه القراءة، وهذا التفصيل نص عليه النحاس والأنصاري والأشموني، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فتذكر إحداهما الأخرى)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة المتعلقة بالشاهدين أو المرأتين قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً أخرى في وصيةٍ موجهةٍ إلى الشهداء أن لا يمتنعوا فصح الوقف هنا.

وأحب أن أنبه إلى مراعاة الوقف الحسن في الجملة السابقة وهي (فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) على قراءة (أن تضل) فلا وقف إلى قوله (فتذكر إحداهما الأخرى)، له أن يقف وقفًا حسنًا على قوله (فإن لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضون من الشهداء) ثم يرجع فيقول (وامرأتان ممن ترضون الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى)، ولا يصح أن يقف على قوله (أن تضل إحداهما) ظانًّا أن الوقف هنا وقفٌ حسن، بل نص ابن الأنباري أن الوقف هنا قبيحٌ لأن مراد الجملة: أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى إن نسيت، فالجملة فيها تقديمٌ وتأخيرٌ، فكأنه قال: أن تذكر إحداهما الأخرى إن ضلت يعني نسيت، فالتذكير هو المراد أساسًا هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا يأبَ الشهداء إذا ما دعوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الخطاب الموجه إلى الشهداء انتهى هنا، ثم ابتدأ خطابًا موجهًا إلى الدائن والمدين في قوله (ولا تسأموا أن تكتبوه)، فصح الفصل بينهما، وإن كانت الواو عاطفةً.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرًا أو كبيرًا إلى أجله)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النهي قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً مستأنفةً بقوله (ذلكم أقسط عند الله).

ثم لا وقف عند العلماء في قوله (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم) بسبب عطف الجمل وثيق الصلة بين قوله (أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا)، ثم الاستثناء بقوله (إلا أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم)، ثم بين حكم ذلك بقوله (ليس عليكم جناحٌ ألا تكتبوها)، يعني إذا كانت (تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم)، فهذه الجملة كاملةً لا وقف عند علماء الوقف والابتداء فيها إلا على قوله (ألا تكتبوها) كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، لابتداء الأمر بعدها بعد انتهاء الخبر، فالأمر في قوله (وأشهدوا إذا تبايعتم)، بعد انتهاء الخبر الذي هو (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة) إلى آخر الجملة.

وأين يقف من أراد أن يقف وقفًا حسنًا في هذه الجملة الطويلة؟

له أن يقف على قوله (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة)، ثم يعود ويقول (وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارةً حاضرةً)، ثم يعود (إلا أن تكون تجارةً حاضرةً تديرونها بينكم)، ثم يعود (تديرونها بينكم فليس عليكم جناحٌ ألا تكتبوها)، هذا إذا كان ضيق النفس جدًا، وله أن يقف غير هذا، والأمر هنا واسعٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأشهدوا إذا تبايعتم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه من باب عطف الجملتين المختلفتين، ما الاختلاف؟ (أشهدوا إذا تبايعتم) أمرٌ، (ولا يضار كاتبٌ ولا شهيدٌ) نهي، فصح الفصل بينهما، وإن كانت الواو عاطفةٍ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا يضارّ كاتبٌ ولا شهيدٌ)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة شرطية في قوله (وإن تفعلوا فإنه فسوقٌ بكم) فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فإنه فسوقٌ بكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت ثم ابتدأ أمرًا جديدًا مستأنفًا بجملةٍ استئنافية بقوله (واتقوا الله).

وهل يصح الوقف على قوله (واتقوا الله)؟

نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الأمر قد انتهى، ثم ابتدأ جملةً خبريةً بقوله (ويعلمكم الله)، ويصح الفصل بين الخبر والأمر وإن كانا معطوفين، مع احتمال الاستئناف هنا في الواو في قوله (ويعلمكم الله)، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويعلمكم الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة استئنافية في قوله (والله بكل شيءٍ عليمٌ).

الآية التي تليها: (وإن كنتم على سفرٍ ولم تجدوا كاتبًا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، أين الشرط؟ (إن) فعله (كنتم على سفر) جوابه (فرهانٌ مقبوضة).

وهل يصح الوقف على قوله (فرهانٌ مقبوضة)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية الأولى قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً شرطيةً جديدةً بقوله (فإن أمن بعضكم بعضًا) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فليؤد الذي اؤتمن أمانته)؟

نص على الوقف هنا الهبطي وحده دون بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (وليتق الله ربه) معطوفٌ على قوله (فليؤدِ الذي اؤتمن أمانته)، وهو عطفٌ وثيق الصلة؛ لأن التقدير: وليتق الذي اؤتمن الله ربَّه، فالأوجه عدم الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وليتق الله ربه)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط وما عطف عليها قد انتهى، ثم ابتدأ جملة نهيٍ خاطب بها الشهداء بقوله (ولا تكتموا الشهادة)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا تكتموا الشهادة)؟

الجواب: نعم، لأن جملة النهي قد انتهت ثم ابتدأ بعدها جملةً شرطيةٌ فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن يكتمها فإنه آثمٌ قلبه)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة في قوله (والله بما تعملون عليم).

الآية التي تليها: (لله ما في السماوات وما في الأرض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة شرطية في قوله (وإن تبدو ما في أنفسكم أو تخفوه).

وهل يصح الوقف على قوله (يحاسبكم به الله)؟

الوقف هنا يختلف باختلاف القراءات في قوله (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) فمن قرأ بالرفع (فيغفرُ) و (يعذبُ) اعتبرهما جملتان مستأنفتان فصح الوقف عنده على قوله (يحاسبكم به الله) لانتهاء جملة الشرط هنا، ومن قرأها بالجزم (فيغفرْ لمن يشاء ويعذبْ من يشاء) لم يقف على قوله (يحاسبكم به الله) لأن جملة (فيغفرْ) و (يعذبْ) معطوفاتٍ على جواب الشرط (يحاسبكم) فكما جُزم جواب الشرط في قوله (يحاسبكم) جُزم ما عطف عليه (فيغفرْ) و (يعذبْ)، وهذا الذي نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فيغفرُ لمن يشاء)؟

جعله الأنصاري صالحًا والأشموني جائزًا، وإذا نظرنا فإن العطف في قوله (ويعذبُ من يشاء) وثيق الصلة وهو من باب ذكر الطرفين المتقابلين: المغفرة والعذاب، فالأوجه هنا عدم الوقف، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويعذب من يشاء)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة في قوله (والله على كل شيء قدير).

الآية التي تليها: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (كلٌ آمن بالله وملائكته) جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف قبلها.

وهل يصح الوقف على قوله:(كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله)؟

يختلف الوقف هنا باختلاف القراءات في قوله (لا نفرق بين أحدٍ من رسله) فعلى قراءة من قرأ (لا نفرق) بالنون يصح الوقف، لماذا؟ لاختلاف الجملتين، لأن الجملة الأولى (كلٌ آمن) كلامٌ عن غائبٍ، ثم (لا نفرق) متكلم، يعني كأن المتكلم يتكلم عن نفسه: نحن لا نفرق بين أحدٍ من رسله، بينما على قراءة من قرأ (لا يفرق بين أحدٍ من رسله) لا يصح الوقف، لأنهما كلاهما بصيغة الغائب، وقد نص على هذا التفريق جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وهم يعتبرون الابتداء بقوله (لا نفرق بين أحدٍ من رسله) على تقدير محذوفٍ: يقولون لا نفرق بين أحدٍ من رسله.

وهل يصح الوقف على قوله: (لا نفرق بين أحدٍ من رسله)؟

الجواب: نعم، وقد نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، لانتهاء ذكر ما آمنوا به وللابتداء بما يتعلق بسمعهم وطاعتهم لأوامر الله سبحانه وتعالى، وللفرق بين جملة (لا نفرق) وبين جملة (قالوا) فـ (لا نفرق) على تقدير أنهم يقولون لا نفرق فهي على المضارعة، بينما (وقالوا سمعنا وأطعنا) على الماضي، فصح الفصل بينهما، وإن كانت الواو واوًا عاطفةً هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وقالوا سمعنا وأطعنا)؟

نص على الوقف هنا الهبطي والأنصاري والأشموني، ووضعت هنا علامة الوصل أولى في مصحف المدينة، واعتبروا جملة (غفرانك) منصوبةً على المصدر بفعل مضمر كأنه قال: نسألك غفرانك، أو اغفر لنا غفرانًا من عندك، وأما من لم ينص على الوقف هنا وهم أكثر علماء الوقف والابتداء، فإنهم نظروا إلى أن قوله (غفرانك) من تتمة قولهم، هذا أولاً، وأنهم توسلوا بقولهم (سمعنا وأطعنا) إلى طلب المغفرة، فكأنهم يقولون: بما أننا سمعنا وأطعنا فاغفر لنا يا ربنا غفرانًا من عندك، فالأوجه هنا عدم الوقف، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

الآية الأخيرة (لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي قد انتهت وهي متعلقةٌ بالتكليف، ثم ابتدأ بعدها بذكر الثواب في قوله (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله: (لها ما كسبت)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (وعليها ما اكتسبت) معطوفٌ عليها عطفًا وثيق الصلة، فكأنه ذكر الطرفين المتقابلين (من عمل صالحًا فلنفسه ومن أساء فعليها).

وهل يصح الوقف على قوله: (وعليها ما اكتسبت)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً مبدوءةً بالنداء والدعاء في قوله (ربنا لا تؤاخذنا) فصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)، ثم على قوله: (ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا)، ثم على قوله: (ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به)؟

الجواب: نعم، هذه الدعوات المبدوءة بقوله (ربنا) كل دعوةٍ مستقلةٌ بنفسها، وقد نص على هذا عامة علماء الوقف والابتداء، والوقف هنا صحيح.

وهل يصح الوقف على قوله (واعف عنا) ثم على قوله (واغفر لنا)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن هذه دعوات مستقلة، لكنها لم تبدأ بقوله (ربنا)، لو بدئت بقوله: ربنا اعف عنا، ربنا اغفر لنا، لصح الوقف كما في الدعوات السابقة، لكن هنا وردت هذه الدعوات بدون قوله (ربنا) فعطفت على بعضها (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا)، فأكثر علماء الوقف والابتداء على عدم الوقف، ومن وقف فلا حرج، والأمر في هذا واسعٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وارحمنا) قبل قوله (أنت مولانا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، لأن الدعوات قد انتهت ثم ابتدأ دعوةً مبدوءةً بجملةٍ مستأنفةٍ بقوله (أنت مولانا) فكأنه توسل إلى الله سبحانه وتعالى بكونه مولانا بأن ينصرنا على القوم الكافرين، فصح الوقف على قوله: (وارحمنا).

هذا آخر ما في هذه السورة، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

لطائف سورة البقرة ٢٨٢-٢٨٦

(وليملل الذي عليه الحق):

قال ابن عثيمين: {وليملل} أي: يملي؛ وهما لغتان فصيحتان؛ فـ «الإملال» و «الإملاء» بمعنى واحد؛ فتقول: «أمليت عليه»؛ و «أمللت عليه» لغة عربية فصحى - وهي في القرآن. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٠٤).

(واستشهدوا شهيدين من رجالكم):

قال ابن القيم: ذكر الله سبحانه نصاب الشهادة في القرآن في خمسة مواضع؛ فذكر نصاب شهادة الزنا أربعة في سورة النساء وسورة النور، وأما في غير الزنا فذكر شهادة الرجلين والرجل والمرأتين في الأموال؛ فقال في آية الدين: {واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان} فهذا في التحمل والوثيقة التي يحفظ بها صاحب المال حقه، لا في طريق الحكم وما يحكم به الحاكم، فإن هذا شيء وهذا شيء، وأمر في الرجعة بشاهدين عدلين، وأمر في الشهادة على الوصية في السفر بإشهاد عدلين من المسلمين أو آخرين من غيرهم. إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٧٢).

(أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى):

قال ابن عثيمين: في قوله تعالى: {أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى} من البلاغة: إظهار في موضع الإضمار؛ لأنه لم يقل: فتذكرها الأخرى؛ لأن النسيان قد يكون متفاوتا، فتنسى هذه جملة، وتنسى الأخرى جملة؛ فهذه تذكر هذه بما نسيت؛ وهذه تذكر هذه بما نسيت؛ فلهذا قال تعالى: {فتذكر إحداهما الأخرى}: لئلا يكون المعنى قاصرا على واحدة هي الناسية، والأخرى تذكرها. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٠٧).

(واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم):

قال البقاعي: وختم آيات هذه المعاملات بصفة العلم بعد الأمر بالتقوى في غاية المناسبة لما يفعله المتعاملون من الحيل التي يجتلب كل منهم بها الحظ لنفسه، والترغيب في امتثال ما أمرهم به في هذه الجمل بأنه من علمه وتعليمه فقال تعالى: عاطفا على ما تقدم من أمر ونهي، أو على ما تقديره: فافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه-: {واتقوا الله} أي خافوا الذي له العظمة كلها فيما أمركم به ونهاكم من هذا وغيره. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/ ١٥٩)

أطول آية وأقصر آية وأشمل آية لحروف الهجاء:

قال ابن عثيمين: هذه الآية الكريمة أطول آية في كتاب الله؛ وهي في المعاملات بين الخلق؛ وأقصر آية في كتاب الله قوله تعالى: {ثم نظر} ؛ لأنها خمسة أحرف؛ وأجمع آية للحروف الهجائية كلها آيتان في القرآن فقط؛ إحداهما: قوله تعالى: {ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا} الآية؛ والثانية قوله تعالى: {محمد رسول الله والذين معه...} الآية؛ فقد اشتملت كل واحدة منهما على جميع الحروف الهجائية. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٠٢-٤٠٣).

نسخ الوعد والوعيد:

قال ابن تيمية: يجوز نسخ الوعيد كما ذكره السلف في قوله: {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله}، وأما الوعد بعد الاستحقاق فلا يجوز نسخه لأنه موجب المشروط. مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣١٤).

فضائل خواتيم سورة البقرة:

عن أبي مسعود رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه». صحيح البخاري (٦/ ١٨٨).

عن ابن عباس، قال: بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم، سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: (هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى

الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلّم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته). صحيح مسلم (١/ ٥٥٤).

عن عبد الله بن مسعود قال: (لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم، انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها»، قال: (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال: «فراش من ذهب»، قال: (فأعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئا، المقحِمات). أي: الذنوب الكبائر. صحيح مسلم (١/ ١٥٧).

عن أبي ذر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش، ولم يعطهن نبي قبلي). مسند أحمد (٣٥/ ٤٤٦).

الإيمان بجميع ما جاءت به الأنبياء في سورة البقرة:

قال ابن تيمية: والله تعالى افتتح البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالإيمان بجميع ما جاءت به الأنبياء؛ فقال في أولها ما تقدم -(الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون)، وقال في وسطها: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق} الآية: وقال في آخرها: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} والآية الأخرى. وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {الآيتان من آخر سورة البقرة: من قرأ بهما في ليلة كفتاه}، والآية الوسطى قد ثبت في الصحيح {أنه كان يقرأ بها في ركعتي الفجر: وبـ {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} الآية تارة. وبـ {قل يا أيها الكافرون} و {قل هو الله أحد} تارة} . مجموع الفتاوى (٧/ ٢٠١).

(وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا):

قال الألوسي: وتقديم ذكر السمع على الطاعة لتقدم العام على الخاص، أو لأن التكليف طريقه السمع والطاعة بعده، وتقديم ذكرهما على طلب الغفران لما أن تقدم الوسيلة على المسئول أقرب إلى الإجابة والقبول. روح المعاني (٢/ ٦٦).

(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها...):

قال ابن حزم: فلولا أن في وسعكم الفهم لأحكام القرآن ما أمركم بتدبره، ولولا أن في وسعكم الفهم لكلام النبي صلى الله عليه وسلم ما أمره بالبيان عليكم ولا أمركم بطاعته. الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم (٦/ ١٣٢).

وقال ابن تيمية: لما كان ما كلفهم به عهودا منه ووصايا وأوامر تجب مراعاتها والمحافظة عليها وأن لا يُخَل بشيء منها؛ ولكن غلبة الطباع البشرية تأبى إلا النسيان والخطأ والضعف والتقصير أرشدهم الله تعالى إلى أن يسألوه مسامحته إياهم في ذلك كله ورفع موجبه عنهم بقولهم: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا} أي: لا تكلفنا من الآصار التي يثقل حملها ما كلفته من قبلنا؛ فإنا أضعف أجسادا وأقل احتمالا. ثم لما علموا أنهم غير منفكين مما يقضيه ويقدره عليهم كما أنهم غير منفكين مما يأمرهم به وينهاهم عنه سألوه التخفيف في قضائه وقدره كما سألوه التخفيف في أمره ونهيه فقالوا: {ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به} فهذا في القضاء والقدر والمصائب، وقولهم {ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا} في الأمر والنهي والتكليف، فسألوه التخفيف في النوعين. ثم سألوه العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الأعداء؛ فإن بهذه الأربعة تتم لهم النعمة المطلقة، ولا يصفو عيش في الدنيا والآخرة إلا بها، وعليها مدار السعادة والفلاح، فالعفو متضمن لإسقاط حقه قِبلهم ومسامحتهم به، والمغفرة متضمنة لوقايتهم شر ذنوبهم وإقباله عليهم ورضاه عنهم؛ بخلاف العفو المجرد؛ فإن العافي قد يعفو ولا يقبل على من عفا عنه ولا يرضى عنه، فالعفو ترك محض، والمغفرة إحسان وفضل وجود، والرحمة متضمنة للأمرين مع زيادة الإحسان والعطف والبر، فالثلاثة تتضمن النجاة من الشر والفوز بالخير، والنصرة تتضمن التمكين من إعلان عبادته وإظهار دينه وإعلاء كلمته وقهر أعدائه وشفاء صدورهم منهم وإذهاب غيظ قلوبهم

وحزازات نفوسهم، وتوسلوا في خلال هذا الدعاء إليه باعترافهم أنه مولاهم الحق الذي لا مولى لهم سواه، فهو ناصرهم وهاديهم وكافيهم ومعينهم ومجيب دعواتهم ومعبودهم. فلما تحققت قلوبهم بهذه المعارف وانقادت وذلت لعزة ربها ومولاها وأجابتها جوارحهم أُعطُوا كلما سألوه من ذلك. مجموع الفتاوى (١٤/ ١٣٩).

(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت):

قال ابن عطية: وجاءت العبارة في الحسنات بـ (لَها) من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه ويسر بها فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئات بـ (عَلَيْها)، من حيث هي أوزار وأثقال ومتحملات صعبة. وهذا كما تقول: لي مال وعلي دين. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٩٣).

(واعف عنا واغفر لنا وارحمنا):

قال ابن كثير: {واعف عنا} أي: فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا، {واغفر لنا} أي: فيما بيننا وبين عبادك، فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة، {وارحمنا} أي: فيما يستقبل، فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره. تفسير ابن كثير (١/ ٧٣٨).

أخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة في المصنف وابن جرير وابن المنذر عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة {فانصرنا على القوم الكافرين} قال: آمين. الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ١٣٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد سورة البقرة ٢٨٢-٢٨٦

(يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه):

قال ابن عاشور: والتداين من أعظم أسباب رواج المعاملات؛ لأن المقتدر على تنمية المال قد يعوزه المال فيضطر إلى التداين ليظهر مواهبه في التجارة أو الصناعة أو الزراعة، ولأن المترفه قد ينضب المال من بين يديه وله قِبل به بعد حين، فإذا لم يتداين اختل نظام ماله، فشرع الله تعالى للناس بقاء التداين المتعارف بينهم كيلا يظنوا أن تحريم الربا والرجوع بالمتعاملين إلى رؤوس أموالهم إبطال للتداين كله. التحرير والتنوير (٣/ ٩٨).

وقال ابن عثيمين: وأما الدَين إلى أجل غير مسمى فلا يصح؛ وأخذ هذا القسم من قوله تعالى: {مسمى}، مثل أن أقول لك: «اشتريت منك هذه السلعة إلى قدوم زيد» وقدومه مجهول؛ لأن فيه غررا؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من أسلف في شيء فليسلف في كيل معلوم، ووزن معلوم إلى أجل معلوم» [متفق عليه]؛ والدين إلى أجل غير مسمى لا يكتب؛ لأنه عقد فاسد، والدين إلى أجل مسمى جائز بنص الآية. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤١٢).

وقال أيضا: جواز السلم - وهو تعجيل الثمن، وتأخير المثمن، مثل أن أشتري مائة صاع من البر إلى سنة، وأعطيك الدراهم (الآن)؛ فيسمى هذا سلما؛ لأن المشتري أسلم الثمن، وقدمه. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤١٢).

(فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل):

قال البغوي: واختلفوا في هذه الكتابة فقال بعضهم: هي واجبة، والأكثرون على أنه أمر استحباب، فإن ترك فلا بأس كقوله تعالى: (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض)، وقال بعضهم: كانت كتابة الدين والإشهاد والرهن فرضا ثم نسخ الكل بقوله: (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذي اؤتمن أمانته)، وهو قول الشعبي. تفسير البغوي (١/ ٣٩٢).

(ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله):

قال ابن كثير: أي: ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس، ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث: (إن من الصدقة أن تعين صانعا أو تصنع لأخرق) [البخاري]. وفي الحديث الآخر: (من كتم علما يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) [أحمد]. تفسير ابن كثير (١/ ٧٢٤).

وقال ابن عثيمين: {كما علمه الله} يحتمل أن تكون الكاف للتشبيه؛ فالمعنى حينئذ: أن يكتب كتابة حسب علمه بحيث تكون مستوفية لما ينبغي أن تكون عليه؛ ويحتمل أن تكون الكاف للتعليل؛ فالمعنى: أنه لما علمه الله فليشكر نعمته عليه، ولا يمتنع من الكتابة. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٠٤).

وقال أيضا: الإنسان لا يستقل بالعلم؛ لقوله تعالى: {كما علمه الله}؛ حتى في الأمور الحسية التي تدرك عن طريق النظر، أو السمع، أو الشم، لا يستطيع الإنسان أن يعلمها إلا بتعليم الله عز وجل. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤١٤).

(أو ضعيفا):

قال ابن عثيمين: الضعف هنا ضعف الجسم، وضعف العقل؛ وضعف الجسم لصغره؛ وضعف العقل لجنونه؛ كأن يكون الذي عليه الحق صغيرا لم يبلغ؛ أو كان كبيرا لكنه مجنون، أو معتوه؛ فهذا لا يملل؛ وإنما يملل وليه. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٠٥).

(ممن ترضون من الشهداء):

قال ابن عثيمين: والخطاب في قوله تعالى: {ترضون} موجه للأمة؛ يعني بحيث يكون الرجل والمرأتان مرضيين عند الناس؛ لأنه قد يرضى شخص عند شخص ولا يرضى عند آخر؛ فلا بد أن يكون هذان الشاهدان؛ أو هؤلاء الشهود - أي الرجل والمرأتان - ممن عرف عند الناس أنهم مرضيون... إذا العبرة بالرضى عند عموم الناس؛ لا برضى المشهود له؛ لأنه قد يرضى بمن ليس بمرضي. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٠٦).

(ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا):

قال القرطبي: من كانت عنده شهادة لرجل لم يعلمها مستحقها الذي ينتفع بها، فقال قوم: أداؤها ندب لقوله تعالى: (ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا)، ففرض الله الأداء عند الدعاء، فإذا لم يُدع كان ندبا، لقوله عليه السلام: (خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها) رواه الأئمة. والصحيح أن أداءها فرض وإن لم يُسألها إذا خاف على الحق ضياعه أو فوته... فيجب على من تحمل شيئا من ذلك أداء تلك الشهادة، ولا يقف أداؤها على أن تسأل منه فيضيع الحق، وقد قال تعالى: (وأقيموا الشهادة لله)، وقال: (إلا من شهد بالحق وهم يعلمون). وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما). فقد تعين عليه نصره بأداء الشهادة التي له عنده إحياء لحقه الذي أماته الإنكار. تفسير القرطبي (٣/ ٣٩٩).

وقال ابن كثير: {ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا} قيل: معناه: إذا دعوا للتحمل فعليهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس. وهذا كقوله: {ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب} ومن هاهنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية.

وقيل -وهو مذهب الجمهور -: المراد بقوله: {ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا} للأداء، لحقيقة قوله: {الشهداء} والشاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية...

وقد ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها".

فأما الحديث الآخر في الصحيحين: (ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا)، وكذا قوله: (ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم وتسبق شهادتهم أيمانهم). وفي رواية: (ثم يأتي قوم يشهدون ولا يستشهدون) . فهؤلاء شهود الزور. وقد روي عن ابن عباس والحسن البصري: أنها تعم الحالين: التحمل والأداء. تفسير ابن كثير (١/ ٧٢٥).

(وأدنى ألا ترتابوا):

قال ابن عثيمين: ينبغي للإنسان أن يتجنب كل ما يكون له فيه ارتياب، وشك؛ لقوله تعالى: {وأدنى ألا ترتابوا}.

ويتفرع على هذه الفائدة: أن دين الإسلام يريد من معتنقيه أن يكونوا دائما على اطمئنان، وسكون.

ويتفرع أيضا منها: أن دين الإسلام يحارب ما يكون فيه القلق الفكري، أو النفسي؛ لأن الارتياب يوجب قلق الإنسان، واضطرابه.

ويتفرع عليه أيضا: أنه ينبغي للإنسان إذا وقع في محل قد يستراب منه أن ينفي عن نفسه ذلك... لا تقل: إن الناس يحسنون الظن بي، ولن يرتابوا في أمري؛ لا تقل هكذا؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم؛ فربما لا يزال يوسوس في صدور الناس حتى يتهموك بما أنت منه بريء. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤١٨).

(وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم):

قال ابن القيم: فسق العمل نوعان: مقرون بالعصيان ومفرد.

فالمقرون بالعصيان: هو ارتكاب ما نهى الله عنه، والعصيان: هو عصيان أمره، كما قال الله تعالى {لا يعصون الله ما أمرهم}، وقال موسى لأخيه هارون عليهما السلام {ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري}، وقال الشاعر: أمرتك أمرا جازما فعصيتني ... فأصبحت مسلوب الإمارة نادما

فالفسق أخص بارتكاب النهي، ولهذا يطلق عليه كثيرا، كقوله تعالى {وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم}، والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم، ويطلق كل منهما على صاحبه، كقوله تعالى {إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه}، فسمى مخالفته للأمر فسقا، وقال: {وعصى آدم ربه فغوى}، فسمى ارتكابه للنهي معصية، فهذا عند الإفراد، فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر، والآخر لمخالفة النهي. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٣٦٩).

(واتقوا الله ويعلمكم الله):

قال القرطبي: وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علّمه، أي: يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فرقانا، أي: فيصلا يفصل به بين الحق والباطل، ومنه قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا). تفسير القرطبي (٣/ ٤٠٦).

وقال ابن تيمية: قال من قال من السلف: من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، ومن عقوبة السيئة السيئة بعدها. وقد شاع في لسان العامة أن قوله: {واتقوا الله ويعلمكم الله} من الباب الأول؛ حيث يستدلون بذلك على

أن التقوى سبب تعليم الله، وأكثر الفضلاء يطعنون في هذه الدلالة؛ لأنه لم يربط الفعل الثاني بالأول ربط الجزاء بالشرط، فلم يقل: واتقوا الله يعلمكم، ولا قال فيعلمكم. وإنما أتى بواو العطف، وليس من العطف ما يقتضي أن الأول سبب الثاني.

وقد يقال: العطف قد يتضمن معنى الاقتران والتلازم، كما يقال: زرني وأزورك؛ وسلم علينا ونسلم عليك، ونحو ذلك مما يقتضي اقتران الفعلين والتعاوض من الطرفين، كما لو قال لسيده: أعتقني ولك علي ألف؛ أو قالت المرأة لزوجها طلقني ولك ألف؛ أو اخلعني ولك ألف؛ فإن ذلك بمنزلة قولها بألف أو علي ألف. وكذلك أيضا لو قال: أنت حر وعليك ألف أو أنت طالق وعليك ألف؛ فإنه كقوله: علي ألف أو بألف عند جمهور الفقهاء. والفرق بينهما قول شاذ، ويقول أحد المتعاوضين للآخر: أعطيك هذا وآخذ هذا، ونحو ذلك من العبارات فيقول الآخر: نعم، وإن لم يكن أحدهما هو السبب للآخر دون العكس. فقوله: {واتقوا الله ويعلمكم الله} قد يكون من هذا الباب، فكل من تعليم الرب وتقوى العبد يقارب الآخر ويلازمه ويقتضيه، فمتى علمه الله العلم النافع اقترن به التقوى بحسب ذلك، ومتى اتقاه زاده من العلم وهلم جرا. مجموع الفتاوى (١٨/ ١٧٧-١٧٨).

(ويعلمكم الله):

قال ابن عثيمين: العلم من منة الله عز وجل على عباده؛ لقوله تعالى: {ويعلمكم الله}، وكما قال تعالى: {لقد من الله على المؤمنين إذا بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين}؛ ولا شك أن العلم من أكبر النعم، حيث قال الله عز وجل: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات}؛ والعلماء كذلك ورثة الأنبياء؛ فالعلم أفضل من المال - ولا مقارنة؛ وهو كالجهاد في سبيل الله؛ لأن الدين الإسلامي لم ينتشر إلا بالعلم، والسلاح؛ فالسلاح يذلل العدو؛ والعلم ينير له الطريق؛ ولهذا إذا ذل العدو للإسلام، وخضع لأحكامه، وبذل الجزية وجب الكف عنه، ولا يقاتل؛ لكن العلم جهاد يجب أن يكون لكل أحد؛ ثم الجهاد بالسلاح لا يكون إلا للكافر المعلن كفره، ولا يكون للمنافق؛ والجهاد بالعلم يكون لهذا، ولهذا - للمنافق، وللكافر المعلن بكفره؛ والعلم أفضل بكثير من المال؛ والعلم جهاد في سبيل الله - ولا سيما في وقتنا الحاضر؛ فإن الناس قد انفتح بعضهم على بعض، واختلط بعضهم ببعض، وصاروا يأخذون الثقافات من يمين ويسار، واحتاج

الناس الآن للعلم الراسخ المبني على الكتاب والسنة حتى لا يقع الناس في ظلمات بعضها فوق بعض... لذلك نرى أن طلب العلم من أهم الأمور خصوصا في هذا الوقت. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٢٢).

(وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة):

قال ابن عثيمين: (الرهن) في اصطلاح الفقهاء: توثقة دين بعين يمكن استيفاؤه، أو بعضه منها، أو من بعضها، مثل ذلك: زيد مدين لعمرو بعشرة آلاف ريال، فأرهنه سيارة تساوي عشرين ألف ريال؛ هنا يمكن استيفاء الدين من بعضه؛ لأن الرهن أكثر من الدين؛ مثال آخر: زيد مدين لعمرو بعشرين ألف ريال؛ فأرهنه سيارة تساوي عشرة آلاف ريال؛ فهنا يمكن استيفاء بعضه منها؛ لأن الدين أكثر من الرهن؛ فإذا كان الدين مساويا للرهن، كما لو كان دينه عشرة آلاف ريال؛ فأرهنه سيارة تساوي عشرة آلاف ريال؛ فهنا يمكن استيفاء الدين كله من كل الرهن. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٢٥).

وقال البغوي: واتفقوا على أن الرهن لا يتم إلا بالقبض، وقوله: (فرهان مقبوضة)، أي: ارتهنوا واقبضوا، حتى لو رهن ولم يسلم فلا يجبر الراهن على التسليم، فإذا سلم لزم من جهة الراهن، حتى لا يجوز له أن يسترجعه ما دام شيء من الحق باقيا، ويجوز في الحضر الرهن مع وجود الكاتب، وقال مجاهد: لا يجوز الرهن إلا في السفر عند عدم الكاتب لظاهر الآية، وعند الآخرين: خرج الكلام في الآية على الأعم الأغلب لا على سبيل الشرط. والدليل عليه ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه رهن درعه عند أبي الشحم اليهودي [متفق عليه]، ولم يكن ذلك في السفر ولا عند عدم كاتب. تفسير البغوي (١/ ٣٩٦-٣٩٧).

(فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتُمن أمانته وليتّق الله ربه):

قال ابن تيمية: يدخل في هذا القسم: الأعيان والديون الخاصة والعامة: مثل رد الودائع ومال الشريك والموكَّل والمضارَب ومال المولى من اليتيم وأهل الوقف ونحو ذلك، وكذلك وفاء الديون من أثمان المبيعات وبدل القرض وصَدُقات النساء وأجور المنافع ونحو ذلك. وقد قال الله تعالى: {إن الإنسان خلق هلوعا}... إلى قوله: {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون} وقال تعالى: {إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما} أي: لا تخاصم عنهم. وقال النبي صلى الله عليه

وسلم {أد الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك} [أبو داود والترمذي]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم {المؤمن من أمنه المسلمون على دمائهم وأمولهم والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله} . وهو حديث صحيح بعضه في الصحيحين وبعضه في سنن الترمذي، وقال صلى الله عليه وسلم {من أخذ أموال الناس يريد أداءها أداها الله عنه ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله} رواه البخاري. وإذا كان الله قد أوجب أداء الأمانات التي قبضت بحق؛ ففيه تنبيه على وجوب أداء الغصب والسرقة والخيانة ونحو ذلك من المظالم، كذلك أداء العارية. مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٦٥-٢٦٦).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنه ذكر رجلا من بني إسرائيل، سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفى بالله شهيدا، قال: فأتني بالكفيل، قال: كفى بالله كفيلا، قال: صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى، فخرج في البحر فقضى حاجته، ثم التمس مركبا يركبها يقدم عليه للأجل الذي أجله، فلم يجد مركبا، فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتى بها إلى البحر، فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلانا ألف دينار، فسألني كفيلا، فقلت: كفى بالله كفيلا، فرضي بك، وسألني شهيدا، فقلت: كفى بالله شهيدا، فرضي بك، وأني جهدت أن أجد مركبا أبعث إليه الذي له فلم أقدر، وإني أستودعكها، فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركبا يخرج إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه، ينظر لعل مركبا قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطبا، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه، فأتى بالألف دينار، فقال: والله ما زلت جاهدا في طلب مركب لآتيك بمالك، فما وجدت مركبا قبل الذي أتيت فيه، قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركبا قبل الذي جئت فيه، قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشدا). مسند أحمد (١٤/ ٢٤٦)، صحيح البخاري (٣/ ٩٥) معلقا.

(وليتق الله ربه):

قال ابن عثيمين: قال تعالى: {وليتق الله} وأردفها بقوله تعالى: {ربه}؛ ففيه فائدة – وهي أن الإنسان في هذه المقامات ينظر إلى مقام الربوبية كما ينظر إلى مقام الألوهية؛ فبنظره إلى مقام الألوهية يفعل هذا تعبدا

لله سبحانه وتعالى، وتقربا له؛ وبنظره إلى مقام الربوبية يحذر المخالفة؛ لأن الرب هو الذي له الخلق، والملك، والتدبير؛ فلا بد أن يقرن الإنسان بين مقام الألوهية، ومقام الربوبية. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٣٠).

(ومن يكتمها فإنه آثم قلبه):

قال ابن عطية: خص الله تعالى ذكر القلب إذ الكتم من أفعاله، وإذ هو المضغة التي بصلاحها يصلح الجسد كما قال عليه السلام. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (١/ ٣٨٨)

(وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله):

عن أبي هريرة قال: لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم {لله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير}، قال: فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير)، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير}، فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا}، (قال: نعم)، وفي رواية: (قد فعلت)، {ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا}، (قال: نعم)، وفي رواية: (قد فعلت) {ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به}، (قال: نعم)، وفي رواية: (قد فعلت)، {واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين}، (قال: نعم)، وفي رواية: (قد فعلت). صحيح مسلم (١/ ١١٥).

قال ابن كثير: عن الحسن البصري أنه قال: هي محكمة لم تنسخ. واختار ابن جرير ذلك، واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر، وقد يحاسب ويعاقب بالحديث الذي رواه عند هذه الآية... (يدنو المؤمن من ربه، عز وجل، حتى يضع عليه كنفه، فيقرره بذنوبه فيقول: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب أعرف -مرتين -حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم). قال: (فيعطى صحيفة حسناته -أو كتابه -بيمينه، وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الأشهاد: {هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين}) [متفق عليه]. تفسير ابن كثير (١/ ٧٣٢).

قال ابن تيمية: وحقيقة الأمر أن قوله سبحانه: {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه} لم يدل على المؤاخذة بذلك؛ بل دل على المحاسبة به، ولا يلزم من كونه يحاسب أن يعاقب؛ ولهذا قال: {فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء} لا يستلزم أنه قد يغفر ويعذب بلا سبب ولا ترتيب، ولا أنه يغفر كل شيء أو يعذب على كل شيء، مع العلم بأنه لا يعذب المؤمنين، وأنه لا يغفر أن يشرك به إلا مع التوبة، ونحو ذلك. والأصل أن يفرق بين ما كان مجامعا لأصل الإيمان وما كان منافيا له ويفرق أيضا بين ما كان مقدورا عليه فلم يفعل وبين ما لم يترك إلا للعجز عنه فهذان الفرقان هما فصل في هذه المواضيع المشتبهة. مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٦٢-٧٦٣).

وقال أيضا: قوله تعالى {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله} حق، والنسخ فيها هو رفع فهم من فهم من الآية ما لم تدل عليه، فمن فهم أن الله يكلف نفسا ما لا تسعه فقد نسخ الله فهمه وظنه، ومن فهم منها أن المغفرة والعذاب بلا حكمة وعدل فقد نسخ فهمه وظنه، فقوله: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها} رد للأول، وقوله: {لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} رد للثاني. مجموع الفتاوى (١٤/ ١٠٦).

وقال ابن عثيمين: إثبات أن العبد يحاسب على ما في نفسه؛ وظاهره العموم؛ لقوله تعالى: {ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله}؛ ولكن جاءت النصوص الأخرى بالتفصيل في ذلك على النحو التالي:

الأول: أن يكون ما يطرأ على النفس وساوس لا قرار لها، ولا ركون إليها؛ فهذه لا تضر؛ بل هي دليل على كمال الإيمان؛ لأن الشيطان إذا رأى من قلب الإنسان إيمانا ويقينا حاول أن يفسد ذلك عليه؛ ولهذا لما شكا الصحابة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يجدونه في أنفسهم من هذا قال صلى الله عليه وسلم:

«وقد وجدتموه؟ قالوا: نعم؛ قال: ذاك صريح الإيمان» [مسلم]؛ وفي حديث آخر: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة» [أحمد وأبو داود].

الثاني: أن يهم بالشيء المحرم، أو يعزم عليه، ثم يتركه؛ وهذا أنواع:

النوع الأول: أن يتركه لله؛ فيثاب على ذلك، كما جاءت به السنة فيمن هم بسيئة فلم يعملها أنها تكتب حسنة كاملة؛ قال الله تعالى: «لأنه تركها من جرائي» [مسلم]، أي من أجلي.

النوع الثاني: أن يهم بها، ثم يتركها عزوفا عنها؛ فهذا لا له، ولا عليه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات؛ وإنما لكل امرئ ما نوى» [متفق عليه].

النوع الثالث: أن يتمناها، ويحرص عليها؛ ولكن لا يعمل الأسباب التي يحصلها بها؛ فهذا يعاقب على نيته دون العقاب الكامل، كما جاء في الحديث في فقير تمنى أن يكون له مثل مال غني كان ينفقه في غير مرضاة الله؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «فهو بنيته؛ فهما في الوزر سواء» [أحمد].

النوع الرابع: أن يعزم على فعل المعصية، ويعمل الأسباب التي توصل إليها؛ ولكن يعجز عنها؛ فعليه إثم فاعلها؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل؛ فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه» [متفق عليه]. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٣٧-٤٣٩).

(يحاسبكم به الله):

قال ابن عثيمين: إثبات محاسبة العبد؛ لقوله تعالى: {يحاسبكم به الله}؛ ولهذا يروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا»؛ فينبغي للإنسان أن يكون كيسا يحاسب نفسه قبل أن يحاسب؛ وإني لأعجب أن كثيرا من الناس إذا كان له تجارة دنيوية فإنه لا ينام حتى ينظر في الدفاتر: ما الذي خرج؟ وما الذي دخل؟ وما الذي بقي في ذمم الناس؟ وما الذي بيع؟ وما الذي اشتري؟ إما بنفسه؛ وإما بمن يجعلهم على هذا؛ ولكننا في أعمالنا الأخروية عندنا تفريط - يعني يندر يوما من الأيام أن تقول: ماذا عملت اليوم؟ وتستغفر مما أسأت فيه، أو فرطت؛ وتحمد الله على ما قمت به من طاعته. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٣٩).

(آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه):

قال ابن عثيمين: كان الرسول صلى الله عليه وسلم أشد الناس تصديقا بما أنزل إليه، وأقواهم إيمانا بلا شك، وكان أيضا أعظمهم تعبدا لله عز وجل حتى إنه كان يقوم في الليل حتى تتورم قدماه مع أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه، وما تأخر [متفق عليه]؛ وقام معه ابن مسعود رضي الله عنه ذات ليلة يقول: فقام فأطال حتى هممت بأمر سوء؛ قالوا: بم هممت يا أبا عبد الرحمن؟ قال: «هممت أن أجلس، وأدعه» [متفق عليه]؛ لأن الرسول كان يقوم قياما طويلا - صلوات الله وسلامه عليه؛ إذا فهو أقوى الناس إيمانا، وأشدهم رغبة في الخير، وأكثرهم عبادة. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٤٢).

(غفرانك ربنا):

قال ابن عثيمين: كل إنسان محتاج إلى مغفرة، حتى النبي صلى الله عليه وسلم محتاج إلى مغفرة؛ ولهذا لما قال صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل الجنة أحدا عمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه برحمة» [متفق عليه]؛ وقال الله سبحانه وتعالى: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر}، وقال تعالى: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات}؛ واعلم أن الإنسان قد يكون بعد الذنب أعلى مقاما منه قبل الذنب؛ لأنه قبل الذنب قد يكون مستمرئا للحال التي كان عليها، وماشيا على ما هو عليه معتقدا أنه كامل، وأن ليس عليه ذنوب؛ فإذا أذنب، وأحس بذنبه رجع إلى الله، وأناب إليه، وأخبت إليه، فيزداد إيمانا، ويزداد مقاما - يرتفع مقامه عند الله عز وجل؛ ولهذا قال الله تعالى في آدم: {وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه} فجعل الاجتباء بعد هذه المعصية {فتاب عليه وهدى}. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٤٩).

(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها):

قال ابن عثيمين: إثبات القاعدة المشهورة عند أهل العلم؛ وهي: لا واجب مع العجز؛ ولا محرم مع الضرورة؛ لكن إن كان الواجب المعجوز عنه له بدل وجب الانتقال إلى بدله؛ فإن لم يكن له بدل سقط؛ وإن عجز عن بدله سقط؛ مثال ذلك: إذا عجز عن الطهارة بالماء سقط عنه وجوب التطهر بالماء؛ لكن

ينتقل إلى التيمم؛ فإن عجز سقط التيمم أيضا - مثال ذلك: شخص محبوس مكبل لا يستطيع أن يتوضأ، ولا أن يتيمم: فإنه يصلي بلا وضوء، ولا تيمم...

ومثال سقوط التحريم مع الضرورة: رجل اضطر إلى أكل الميتة بحيث لا يجد ما يسد رمقه سوى هذه الميتة: فإنه يحل له أكلها؛ وهل له أن يشبع؛ أو يقتصر على ما تبقى به حياته؟

والجواب: إن كان يرجو أن يجد حلالا عن قرب فيجب أن يقتصر على ما يسد رمقه؛ وإن كان لا يرجو ذلك فله أن يشبع، وأن يتزود منها - وأن يحمل معه منها - خشية أن لا يجد حلالا عن قرب.

ومعنى الضرورة أنه لا يمكن الاستغناء عن هذا المحرم؛ وأن ضرورته تندفع به - فإن لم تندفع فلا فائدة؛ مثال ذلك: رجل ظن أنه في ضرورة إلى التداوي بمحرم؛ فأراد أن يتناوله: فإنه لا يحل له ذلك لوجوه:

الأول: أن الله حرمه؛ ولا يمكن أن يكون ما حرمه شافيا لعباده، ولا نافعا لهم.

الثاني: أنه ليس به ضرورة إلى هذا الدواء المحرم؛ لأنه قد يكون الشفاء في غيره، أو يشفى بلا دواء.

الثالث: أننا لا نعلم أن يحصل الشفاء في تناوله؛ فكم من دواء حلال تداوى به المريض ولم ينتفع به؛ ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحبة السوداء: «إنها شفاء من كل داء إلا السام - يعني الموت» [متفق عليه]؛ فهذه مع كونها شفاء لا تمنع الموت؛ ولذلك لو اضطر إلى شرب خمر لدفع لقمة غص بها جاز له ذلك، لأن الضرورة محققة، واندفاعها بهذا الشرب محقق. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٥٣-٤٥٥).

(وعليها ما اكتسبت):

قال ابن عثيمين: الإنسان لا يحمل وزر غيره؛ لقوله تعالى: {وعليها ما اكتسبت}. فإذا قال قائل: ما تقولون في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء» [مسلم]؟

فالجواب: أن هذا لا يرد؛ لأن الذي فعلها أولا اقتدى الناس به؛ فكان اقتداؤهم به من آثار فعله؛ ولما كان هو المتسبب، وهو الدال على هذا الفعل كان مكتسبا له. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٥٥).

(ربنا لا تؤاخذنا...):

قال ابن عثيمين: ينبغي للإنسان أن يتوسل في الدعاء بالوصف المناسب، مثل الربوبية – التي بها الخلق، والتدبير؛ ولهذا كان أكثر الأدعية في القرآن مصدرة بوصف الربوبية، مثل: «ربنا» ، ومثل: «رب» . تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٥٧).

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا):

قال ابن عثيمين: رفع المؤاخذة بالنسيان، والجهل؛ لقوله تعالى: {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} ، فقال الله تعالى: «قد فعلت»؛ ولا يلزم من رفع المؤاخذة سقوط الطلب؛ فمن ترك الواجب نسيانا، أو جهلا، وجب عليه قضاؤه، ولم يسقط الطلب به؛ ولهذا قال النبي صلوات الله وسلامه عليه: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها» [متفق عليه]؛ ولما صلى الرجل الذي لا يطمئن في صلاته قال له: «ارجع فصل؛ فإنك لم تصل» [متفق عليه]؛ ولم يعذره بالجهل مع أنه لا يحسن غير هذا؛ إذا فعدم المؤاخذة بالنسيان، والجهل لا يسقط الطلب؛ وهذا في المأمورات ظاهر.

أما المنهيات فإن من فعلها جاهلا، أو ناسيا فلا إثم عليه، ولا كفارة؛ مثال ذلك: لو أكل وهو صائم ناسيا فلا إثم عليه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من نسي وهو صائم فأكل، أو شرب، فليتم صومه» [مسلم]...

ولكن لو فعل المحرم عالما بتحريمه جاهلا بما يترتب عليه لم يسقط عنه الإثم، ولا ما يترتب على فعله؛ مثل أن يجامع الصائم في نهار رمضان وهو يجب عليه الصوم عالما بالتحريم – لكن لا يعلم أن عليه الكفارة: فإنه آثم، وتجب عليه الكفارة؛ لما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله، هلكت قال: ما أهلكك؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم» [البخاري]؛ فألزمه النبي صلى الله عليه وسلم بالكفارة؛ لأنه كان عالما بالحكم بدليل قوله: «هلكت» .

فإن قال قائل: «قد ذكرتم أن المأمور لا يسقط بالجهل والنسيان»، فما الفائدة من عذره بالجهل؟

فالجواب: أن الفائدة عدم المؤاخذة؛ لأنه لو فعل المأمور على وجه محرم يعلم به لكان آثما؛ لأنه كالمستهزئ بالله عز وجل وآياته، حيث يعلم أن هذا محرم، فيتقرب به إلى الله. تفسير العثيمين: الفاتحة والبقرة (٣/ ٤٥٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة البقرة ٢٨٢-٢٨٦

١- تأمل تشريعات الله العليم الحكيم لخلقه، فهي نابعة من علمه بما يُصلح الناس، وحكمته في تدبير شؤونهم، فمبناها على التقوى، وأساسها العدل، وغايتها دفع الخصومات، فهذه تشريعاته سبحانه في الدَين: يكتب الكاتب بالعدل، ويُملي الذي عليه الحق، أو وليه إن كان سفيها أو ضعيفا أو غير قادر على الإملاء، ويَشهد على ذلك رجلان أو رجل وامرأتان، ولا يمتنع الشهود إذا دُعوا لإدلاء الشهادة، فإن كانت تجارة حاضرة فلا بأس بترك كتابتها، مع أهمية الإشهاد عليها، ويُتجنب الإضرار بالكاتب والشهيد وصاحب الحق، فإن لم يوجد الكاتب فيوثق الدَين برهن يقبضه صاحب الحق، فما أعظمه من تشريع من لدن حكيم خبير (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدَين إلى أجل مسمى فاكتبوه...) الآيتان.

٢- ورد الأمر بالتقوى والتحذير من الفسوق والإثم في آية الدَين والتي تليها مرات عديدة، حتى تعلم أننا لو اتقينا الله في تعاملاتنا المالية وراقبنا الله فيها لاستقامت أمورنا كلها، وانتهت النزاعات والخلافات بيننا، فقال للذي عليه الحق (وليملل الذي عليه الحق وليتّق الله ربه)، وقال في المضارّة بالكاتب والشهيد وصاحب الحق: (ولا يضارّ كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله)، وقال في حال ائتمان بعضنا بعضا (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتمن أمانته وليتق الله ربه)، وقال في من يكتم الشهادة (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه).

٣- اعلم أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، فهو عليم بما تكنّه في صدرك، وعليم بقصدك وإرادتك، وقادر على محاسبتك على إساءتك في الدنيا قبل الآخرة، فلو أخذت أموال الناس تريد أداءها وتسعى لذلك قدر طاقتك أدّى الله عنك، ولو أخذتها تريد إتلافها والتحايل على أصحابها أتلفك الله (والله بكل شيء عليم)، (والله بما تعملون عليم)، (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير).

٤- اطلب من الله أن يعلّمك ما لا تعلم، فهو الذي يمنّ بالعلم على من يشاء من عباده، وإذا علّمك الله شيئا فكن جوادًا بعلمك، باذلا له، مُحسنا به (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله)، (ويعلّمكم الله).

٥- العدل أساس الأمن، وهو سبب تحقيق السعادة في الدنيا، فكن عادلا في أخذك وإعطائك، وفي كتابتك وإملائك، وفي شهادتك وقضائك (وليكتب بينكم كاتب العدل)، (ولا يبخس منه شيئا)، (فليملل وليه بالعدل).

٦- احذر من الامتناع عن تحمّل الشهادة وأدائها، واحذر من كتمان الشهادة، خاصة إذا ترتّب عليها ضياع حق أو وقوع ظلم، فيأثم قلبك (ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا)، (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه).

٧- كتابة الدَين والإشهاد عليه سبب لتحقيق العدل وضمان الحقوق والبعد عن الرِّيبة والشك (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا).

٨- لا يجوز الإضرار بالكاتب والشهيد بتكليفهم ما يشقّ عليهم، أو إلزامهم بما لا يلزم، كما لا يجوز الإضرار بصاحب الحق بالامتناع عن الكتابة والشهادة عند الحاجة إليها، فمن فعل ذلك فقد أساء وتعدّى وظلم (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علّمه الله)، (ولا يأب الشهداء إذا ما دُعوا)، (ولا يضارّ كاتب ولا شهيد).

٩- إذا أمِنك صاحب الحق ولم يكتب حقه ولم يُشهِد عليه أحدا ثقة بك وبدينك وأمانتك فردّ له جميل ثقته بجميل وفائك، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، وإياك ومقابلة الإحسانِ بالإساءة والعطاءِ بالإنكار، فتجد غِبّ ذلك في حياتك كلها (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدّ الذي اؤتُمن أمانته وليتّق الله ربه).

١٠- عوّد نفسك كلما سمعت حكما من أحكام الله وتشريعا من تشريعاته أن تؤمن به وتقول: سمعنا وأطعنا بلسانك وقلبك، وإياك أن تقول: سمعنا وعصينا، فتقع في الإثم والفسوق ومشابهة أهل الزيغ والانحراف (آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير).

١١- احمد الله على شريعة الإسلام حمدا كثيرا، فهي شريعة عظيمة قائمة على التيسير ورفع الحرَج عن الناس، فالله سبحانه لا يكلّف نفسا إلا قدر طاقتها، ولا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ولم يكلّفنا بتكاليف شاقّة كما كلّف الأمم السابقة، ولم يحمّلنا ما لا طاقة لنا به، فالحمد لك يا ربنا كما ينبغي

لجلال وجهك وعظيم سلطانك حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه (لا يكلّف الله نفسا إلا وُسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به).

١٢- أكثر من سؤال الله العفو والمغفرة والرحمة والنصر على الكافرين، ليستقيم لك دينك ودنياك وآخرتك، وتتحقق سعادتك (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١-١٣) من التفسير الميسّر

الم (١)

سبق الكلام عليها في أول سورة البقرة.

اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢)

هو الله، لا معبود بحق إلا هو، المتصف بالحياة الكاملة كما يليق بجلاله، القائم على كل شيء.

نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤)

نَزَّل عليك -أيها الرسول- القرآن بالحق الذي لا ريب فيه، مصدِّقًا لما قبله من كتب ورسل، وأنزل التوراة على موسى عليه السلام، والإنجيل على عيسى عليه السلام من قبل نزول القرآن؛ لإرشاد المتقين إلى الإيمان، وصلاح دينهم ودنياهم، وأنزل ما يفرق بين الحق والباطل. والذين كفروا بآيات الله المنزلة، لهم عذاب عظيم. والله عزيز لا يُغَالَب، ذو انتقام بمن جحد حججه وأدلته، وتفرُّده بالألوهية.

إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٥)

إن الله محيط علمه بالخلائق، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، قلَّ أو كثر.

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦)

هو وحده الذي يخلقكم في أرحام أمهاتكم كما يشاء، من ذكر وأنثى، وحسن وقبيح، وشقي وسعيد، لا معبود بحق سواه، العزيز الذي لا يُغالَب، الحكيم في أمره وتدبيره.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧)

هو وحده الذي أنزل عليك القرآن: منه آيات واضحات الدلالة، هن أصل الكتاب الذي يُرجع إليه عند الاشتباه، ويُرَدُّ ما خالفه إليه، ومنه آيات أخر متشابهات تحتمل بعض المعاني، لا يتعيَّن المراد منها إلا بضمها إلى المحكم، فأصحاب القلوب المريضة الزائغة، لسوء قصدهم يتبعون هذه الآيات المتشابهات وحدها؛ ليثيروا الشبهات عند الناس، كي يضلوهم، ولتأويلهم لها على مذاهبهم الباطلة. ولا يعلم حقيقة معاني هذه الآيات إلا الله. والمتمكنون في العلم يقولون: آمنا بهذا القرآن، كله قد جاءنا من عند ربنا على

لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ويردُّون متشابهه إلى محكمه، وإنما يفهم ويعقل ويتدبر المعاني على وجهها الصحيح أولو العقول السليمة.

رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨)

ويقولون: يا ربنا لا تَصْرِف قلوبنا عن الإيمان بك بعد أن مننت علينا بالهداية لدينك، وامنحنا من فضلك رحمة واسعة، إنك أنت الوهاب: كثير الفضل والعطاء، تعطي مَن تشاء بغير حساب.

رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

يا ربنا إنا نُقِرُّ ونشهد بأنك ستجمع الناس في يوم لا شَكَّ فيه، وهو يوم القيامة، إنَّك لا تُخلف ما وعَدْتَ به عبادك.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠)

إن الذين جحدوا الدين الحق وأنكروه، لن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئًا إن وقع بهم في الدنيا، ولن تدفعه عنهم في الآخرة، وهؤلاء هم حطب النار يوم القيامة.

كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١)

شأن الكافرين في تكذيبهم وما ينزل بهم، شأن آل فرعون والذين من قبلهم من الكافرين، أنكروا آيات الله الواضحة، فعاجلهم بالعقوبة بسبب تكذيبهم وعنادهم. والله شديد العقاب لمن كفر به وكذَّب رسله.

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢)

قل -أيها الرسول-، للذين كفروا من اليهود وغيرهم والذين استهانوا بنصرك في «بَدْر»: إنكم ستُهْزَمون في الدنيا وستموتون على الكفر، وتحشرون إلى نار جهنم؛ لتكون فراشًا دائمًا لكم، وبئس الفراش.

قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)

قد كان لكم -أيها اليهود المتكبرون المعاندون- دلالة عظيمة في جماعتين تقابلتا في معركة «بَدْر» : جماعة تقاتل من أجل دين الله، وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجماعة أخرى كافرة بالله، تقاتل من أجل الباطل، ترى المؤمنين في العدد مثليهم رأي العين، وقد جعل الله ذلك سببًا لنصر المسلمين عليهم. والله يؤيِّد بنصره من يشاء من عباده. إن في هذا الذي حدث لَعِظة عظيمة لأصحاب البصائر الذين يهتدون إلى حكم الله وأفعاله.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١-١٣)

الكلمة	المعنى
الحيّ	الذي له الحياة الكاملة الدائمة
القَيُّوم	القائم على كل شيء
مصدّقا لما بين يديه	يشهد على صدق ما قبله من كتب ورسل
وأنزل الفرقان	وأنزل ما يفرّق بين الحق والباطل
عزيز	غَالِب قَوِي مُمتَنِع
مُحكَمَات	واضحات الدلالة
أمّ الكتاب	أصل الكتاب الذي يُرجع إليه عند الاشتباه
مُتَشابِهات	محتملات لا يتعيّن المراد منها إلا بضمّها إلى المُحكَم
زَيْغ	ميل وانحراف
وابتِغَاء تَأوِيلِه	ولإرادة تحريفه بما يوافق أهواءهم
وما يعلم تَأوِيلَه	ولا يعرف حقيقة المراد منه
لا تُزِغْ قلوبنا	لا تَصرِفها عن الهداية
كدَأْب	كشأن وعادة
ستُغلَبون	ستُهزمون في الدنيا
المِهاد	الفِراش
لَعِبرة	لمَوعِظة وذِكرى

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١-١٣

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الأولى وحتى الآية الثالثة عشرة.

في قول الله تعالى: (الله لا إله إلا هو) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وحسنه ابن الأنباري والنحاس، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا؛ فإن قوله تعالى (الحي القيوم) إما أن تكون صفةً لله أو خبرًا ثانيًا للجملة التي قبلها أو بدلاً من الضمير (هو)، (الحي القيوم)، وبناءً على هذه التوجيهات الثلاثة لا يصح الوقف قبلها، لكن من صحح الوقف اعتبر (الحي القيوم) مبتدأ خبره (نزل عليك الكتاب بالحق)، فكأنه قال (الله لا إله إلا هو) وانتهت الجملة، ثم قال (الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق)، أو أنه خبرٌ لمبتدأ محذوف تقديره (هو) أي: هو الحي القيوم، وبناءً على هذين التوجيهين يصح الوقف على قوله (إلا هو).

وعند التأمل يتبين أن هذين التوجيهين فيهما نوع تكلفٍ، لأن قوله (الحي القيوم) رأس آية، واعتباره مبتدأ وبداية الآية التي تليها خبر فيه بعدٌ، واحتمال أنه خبرٌ ثانٍ أو صفةٌ لله أو بدلٌ من الضمير (هو) أقرب من ذلك، والله تعالى أعلم، فالأوجه هنا عدم الوقف.

الآية التي تليها: (نزّل عليك الكتاب بالحق) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (مصدقًا) لما بين يديه حالٌ مما قبله، ولا يصح الوقف حتى يُؤتى بالحال.

وهل يصح الوقف على قوله (مصدقًا لما بين يديه)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة قد انتهت، الجملة التي أخبر الله فيها أنه نزل على نبيه صلى الله عليه وسلم الكتاب، يعني: القرآن بالحق مصدقًا لما بين يديه من الكتب، ثم بدأ واستأنف جملةً جديدةً في بيان أنه قد أنزل من قبل التوراة والإنجيل هدًى للناس.

وسواءً قلنا: إن الواو في قوله (وأنزل) استئنافيةٌ أو أنها عاطفةٌ عطف جملٍ فإن الوقف هنا له وجهٌ، لأن قوله (وأنزل التوراة والإنجيل) جملةٌ مستقلةٌ عن الجملة التي قبلها، وليس بينهما ارتباطٌ وثيقٌ، والله أعلم.

الآية التي تليها: (من قبل هدًى للناس) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه كما سبق في الوقف السابق أن الجملة التي بين الله سبحانه وتعالى فيها أنه أنزل التوراة والإنجيل من قبل القرآن هدًى للناس قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً جديدةً في بيان إنزال ما يفرق بين الحق والباطل قال (وأنزل الفرقان)، وسواءً قلنا: إن الواو استئنافية أو عاطفة عطف جملٍ فإن العطف هنا ليس وثيق الصلة، فالوقف له وجهٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأنزل الفرقان)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، بل نص النحاس على أنه وقفٌ بلا اختلاف، لماذا؟ لانتهاء الجمل المتعلقة بإنزال الكتب (نزل عليك الكتاب بالحق)، ثم قال (وأنزل التوراة والإنجيل)، ثم قال (وأنزل الفرقان). ثم ابتدأ حكمًا جديدًا بـ (إنّ) التي لها الصدارة في جملتها، وجملة مستأنفة في قوله (إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذابٌ شديدٌ) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لهم عذابٌ شديدٌ)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنّ) قد انتهت باسمها وخبرها، (إن الذين كفروا) هذا اسمها، (لهم عذابٌ شديدٌ) هذا خبرها، ثم استأنف جملةً جديدةً بقوله (والله عزيزٌ ذو انتقام)، وإن كانت هذه الجملة لها ارتباطٌ معنويٌ وثيقٌ بما قبلها، وذلك أنها لبيان أن الله ذو انتقامٍ ممن كفروا بآياته، فبعد أن قال (لهم عذابٌ شديدٌ) بين أنه (عزيزٌ ذو انتقام) لكنها جملةٌ مستأنفةٌ إعرابيًّا فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء) لا وقف فيها، ونبه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء إلى قبح الوقف على قوله (في الأرض)؛ لأنه يوهم أنه سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض فقط دون السماء، وهذا ظاهرٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (هو الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الخبرية التي فيها الإخبار عن تصوير خلقنا في الأرحام كيف شاء الله قد انتهت هنا، ثم ابتدأ جملةً مستأنفةً في بيان أنه هو المستحق للعبادة وهو المتصف بالصفات العليا في قوله (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهنا تنبيهٌ إلى أن هذه الآية قد تضمنت الاستدلال بربوبية الله على ألوهيته، فإذا كان هو الرب الخالق الذي يصوّركم في الأرحام كيف يشاء فإنه هو المستحق للعبادة، لا إله إلا هو سبحانه، وهو العزيز الحكيم.

وهل يصح الوقف على قوله (لا إله إلا هو) قبل قوله (العزيز الحكيم)؟

نص على الوقف هنا الهبطي دون غيره من علماء الوقف والابتداء، ووجهه كما سبق في قوله (الله لا إله إلا هو) قبل (الحي القيوم)، وكما ذكرت هناك فإن الأوجه عدم الوقف، لأن قوله (العزيز الحكيم) إما أن يكون صفةً أو بدلاً أو خبراً ثانيًا، وعلى جميع هذه الاحتمالات لا وقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الإمام نافعٌ والهبطي دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء، وقد نص النحاس أن الإمام نافع خولف في هذا، ووجه ذلك أنه يلزمه أن يبتدئ بنكرةٍ في قوله (آياتٌ محكماتٌ هن أم الكتاب)، والنكرة لا يُبتدأ بها، وكأنهم أرادوا أن المعنى: الله الذي أنزل عليك الكتاب من عنده، ثم ابتدأ فقال (هو) يعني الكتاب (آياتٌ محكماتٌ هن أم الكتاب) لكن هذا الوقف فيه بعدٌ، والله تعالى أعلم.

فأين الوقف؟ هل يصح الوقف على قوله (منه آياتٌ محكماتٌ)؟

نص على الوقف هنا النحاس، وجوّزه الأنصاري والأشموني، ووجهه أن قوله (هن أم الكتاب) جملةٌ اسميةٌ مكونةٌ من مبتدأ وخبر، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وذلك أن جملة (هن أم الكتاب) في محل نصب حال من (آيات)، أو أنها في محل رفع صفةٌ لـ (آيات) يعني هذه الآيات المحكمات هن أم الكتاب، فالأوجه هنا عدم الوقف، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أم الكتاب)؟

نص على الوقف هنا نافعٌ وحسنه الأنصاري والأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وكأن من نص على الوقف هنا نظر إلى أن هذا من باب التقسيم، فبعد أن انتهى من ذكر القسم الأول يصح الوقف قبل ذكر القسم الثاني، لكن هذا فيه بعدٌ لأنه قال (منه) ومن هنا للتبعيض، (آياتٌ محكماتٌ هن أم الكتاب) فلا يصح الوقف حتى يُذكر البعض الآخر بعد ذكر البعض الأول، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وأخر متشابهات)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الله سبحانه وتعالى قد انتهى هنا من ذكر ما تضمنه الكتاب من الآيات المحكمات والمتشابهات، ثم بدأ في بيان حال الناس مع هذه الآيات

المتشابهات، قال (فأما الذين في قلوبهم زيغٌ فيتبعون ما تشابه منه)، و (أما) هنا شرطيةٌ، ومعها فاء استئنافيةٌ فصح الابتداء بها، لتفصيل حال الناس مع المتشابهات، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فيتّبعون ما تشابه منه)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ابتغاء الفتنة) مفعولٌ لأجله، يعني إنما يتبعون ما تشابه من القرآن لابتغاء الفتنة ولابتغاء تأويله، لقصد الفتنة ولقصد تأويله على هواهم.

وهل يصح الوقف على قوله (وابتغاء تأويله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت، أين الجملة الشرطية؟ (أما) أداة الشرط (الذين في قلوبهم زيغٌ) في محل فعل الشرط، (فيتّبعون ما تشابه منه) جواب الشرط، والتحق به المفعول لأجله في قوله (ابتغاء الفتنة)، وعُطف عليه (ابتغاء تأويله)، هنا انتهت جملة الشرط وما التحق بها، ثم بدأ الله في بيان حقيقة المتشابه ومن الذي يعلم تأويله، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) قبل (والراسخون في العلم)؟

هذا الوقف اختلف فيه العلماء قديمًا وحديثًا، فمنهم من جعل الوقف على قوله (إلا الله)، ومنهم من جعل الوقف على قوله (والراسخون في العلم).

ووجه الوقف على قوله (إلا الله) من حيث الإعراب، الواو في قوله (والراسخون) واوٌ استئنافيةٌ، وقوله (الراسخون) مرفوعٌ بالابتداء وخبره (يقولون آمنا به)، ومن ناحيةٍ معنويةٍ الراسخون لا يعلمون تأويل المتشابه، إنما يعلمه الله فقط، والمراد بالتأويل على هذا القول حقيقة الأمر وكيفيته.

والقول الثاني أن الوقف على قوله (والراسخون في العلم)، ووجهه من الناحية اللفظية أن الواو في قوله (والراسخون) واوٌ عاطفةٌ، وقوله (والراسخون) معطوفٌ على اسم الجلالة (الله)، فهو من باب عطف الكلمات على بعض، فلم يصح الوقف على قوله (إلا الله)، ويكون المعنى: ولا يعلم تأويل المتشابه إلا الله والراسخون في العلم، يعني أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابه، ولذلك مدحهم بالرسوخ في العلم، ثم قوله (يقولون آمنا به) على هذا القول أي: حالهم أنهم يقولون آمنا به كلٌ من عند ربنا.

وأكثر العلماء على الوقف على قوله (إلا الله)، ونص جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء على تجويز الوجهين هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يقولون آمنا به)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله تعالى (كلٌّ من عند ربنا) في محل نصب بدلٌ من جملة (آمنا به)، وعلى هذا فلا يصح الوقف قبلها، أو تكون جملةً مستأنفةً فيصح الوقف قبلها، والأمر هنا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (كلٌّ من عند ربنا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده (وما يذّكر إلا أولوا الألباب) من قول الله لا من قول الراسخين في العلم، هذا من ناحيةٍ فهي جملةٌ معترضةٌ، ومن ناحيةٍ أخرى هي جملةٌ مستأنفةٌ مبدوءةٌ بالنفي، (وما يذكر) هذا نفيٌ فصح الابتداء بالنفي والوقف قبله، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (وهب لنا من لدنك رحمة) معطوفٌ على قوله (لا تزغ) وهو من باب عطف الجمل، وهو غير وثيق الصلة، لأن طلب عدم زيغ القلب بعد الهداية غير طلب هبة الرحمة، فالوقف هنا محتملٌ، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وهب لنا من لدنك رحمة) قبل قوله (إنك أنت الوهاب)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنها جملةٌ مبدوءةٌ بـ (إنّ) في قوله (إنك أنت الوهاب) فصح الابتداء بها والوقف قبلها، وهذا فيه نظرٌ ظاهرٌ، وذلك أن قوله (إنك أنت الوهاب) بعد قوله (هب لنا) أولاً هو من تتمة قولهم، ثانيًا هو وثيق الصلة معنًى، فلما طلبوا الهبة قالوا (إنك أنت الوهاب) فالأوجه هنا عدم الوقف، لأن جملة (إنك أنت الوهاب) هي وسيلةٌ توسلوا بها لاستجابة دعائهم في قولهم (هب لنا من لدنك رحمةً) فكأن المعنى: لأنك أنت الوهاب أو: فإنك أنت الوهاب، فصار بينهما ارتباطًا وثيقًا فلا وقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ربنا إنك جامع الناس ليومٍ لا ريب فيه) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الدعاء قد انتهى ثم ابتدأ جملةً مستأنفةً مبدوءةً بـ (إنّ) في قوله (إن الله لا يخلف الميعاد) فهومن كلام الله لا من دعاء الراسخين في العلم، ويحتمل أن تكون جملة (إن الله لا يخلف الميعاد) من قولهم لكنه التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة، بعد أن خاطبوا

الله بقولهم (إنك جامع الناس) قالوا (إن الله لا يخلف الميعاد) وعلى كلا الوجهين يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (وأولئك هم وقود النار) الواو هنا تحتمل الاستئناف وتحتمل أن تكون عاطفةً على قوله (لن تغني)، فإن كانت عاطفةً فهي من قبيل عطف الجمل فيصح الوقف قبلها، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا السجاوندي دون غيره من علماء الوقف والابتداء، ووُضعت هنا علامة الوقف الجائز في مصحف المدينة، ووجهه عندهم أن الله سبحانه وتعالى أخبر أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا كما لم تغنِ عن آل فرعون والذين من قبلهم، فانتهت الجملة هنا، لكن علماء الوقف والابتداء لم ينصوا على وقفٍ هنا، ووجه ذلك أن الجملة: إن عادة وشأن آل فرعون والذين من قبلهم أنهم كذبوا بآياتنا فكانت النتيجة أن أخذهم الله بذنوبهم، فصارت الجملة مرتبطةً بما بعدها لا بما قبلها في الآية التي قبلها، وهذا لعله هو الأقرب، وبناءً عليه لا وقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (كذبوا بآياتنا)؟

نص على الوقف هنا السجاوندي تجويزًا ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ووجهه عند السجاوندي: العدول عن الخبر إلى النتيجة، لكن هذه النتيجة معطوفةٌ بفاء السببية، يعني كأنه قال: لما كذبوا أخذهم الله بذنوبهم، فالأوجه عدم الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فأخذهم الله بذنوبهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي بعده جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله شديد العقاب)، فصح الوقف قبلها والابتداء بها.

الآية التي تليها: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الواو في قوله (وبئس المهاد) واوٌ استئنافيةٌ و (بئس) و (نعم) يصح الابتداء بهما عادةً، فصح الابتداء بها هنا، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه ذكر الفئتين إجمالاً ثم بدأ في التفصيل على تقدير: إحداهما فئةٌ تقاتل في سبيل الله، و (فئةٌ) على قراءة الرفع مرفوعةٌ على الابتداء، فصح الابتداء بها، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يرونهم مثليهم رأي العين)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه انتهى من ذكر الفئتين ثم ذكر خبرًا مستأنفًا بأن الله يؤيد بنصره من يشاء، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (والله يؤيد بنصره من يشاء)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (والله يؤيد بنصره من يشاء) انتهت ثم استأنف جملةً جديدة مبدوءة بـ (إنّ) في قوله (إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار)، فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١-١٣

فضل سورة آل عمران:

عن أبي أمامة الباهلي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرءوا الزهراوين البقرة، وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة». صحيح مسلم (١/ ٥٥٣).

سبب نزول بداية سورة آل عمران:

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر عن محمد بن جعفر بن الزبير قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران، ستون راكبا فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم أبو حارثة بن علقمة والعاقب وعبد المسيح والأيهم السيد، وهو من النصرانية على دين الملك مع اختلاف من أمرهم.

يقولون: هو الله، ويقولون هو ولد الله، ويقولون هو ثالث ثلاثة، كذلك قول النصرانية.

فهم يحتجون في قولهم يقولون هو الله: بأنه كان يحيي الموتى، ويبرئ الأسقام، ويخبر بالغيوب، ويخلق من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طيرا، وذلك كله بإذن الله ليجعله آية للناس.

ويحتجون في قولهم بأنه ولد بأنهم يقولون: لم يكن له أب يعلم، وقد تكلم في المهد شيئا لم يصنعه أحد من ولد آدم قبله.

ويحتجون في قولهم إنه ثالث ثلاثة بقول الله: فعلنا وأمرنا وخلقنا وقضينا، فيقولون: لو كان واحدا ما قال إلا فعلت وأمرت وقضيت وخلقت ولكنه هو وعيسى ومريم.

ففي كل ذلك من قولهم نزل القرآن، وذكر الله لنبيه فيه قولهم، فلما كلمه الحَبران قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسلما، قالا: قد أسلمنا قبلك، قال: كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولدا، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت فلم يجبهما شيئا، فأنزل الله في ذلك من قولهم واختلاف أمرهم كله صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها.

فافتتح السورة بتنزيه نفسه مما قالوه، وتوحيده إياهم بالخلق والأمر لا شريك له فيه، ورد عليهم ما ابتدعوا من الكفر وجعلوا معه من الأنداد، واحتجاجا عليهم بقولهم في صاحبهم ليعرفهم بذلك ضلالته، فقال: {الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم} أي: ليس معه غيره شريك في أمره، الحي الذي لا يموت وقد مات عيسى في قولهم، القيوم القائم على سلطانه لا يزول وقد زال عيسى. الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ١٤١-١٤٢).

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الربيع قال: إن النصارى أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فخاصموه في عيسى بن مريم وقالوا له: من أبوه؟ وقالوا على الله الكذب والبهتان.

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه؟ قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وإن عيسى يأتي عليه الفناء؟ قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شيء يكلؤه ويحفظه ويرزقه؟ قالوا: بلى.

قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئا؟ قالوا: لا.

قال: أفلستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء؟ قالوا: بلى.

قال: فهل يعلم عيسى من ذلك شيئا إلا ما عُلّم؟ قالوا: لا.

قال: فإن ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، ألستم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث؟ قالوا: بلى.

قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذي كما تغذي المرأة الصبي، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث؟ قالوا: بلى.

قال: فكيف يكون هذا كما زعمتم، فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا، فأنزل الله {الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم}. الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ١٤٢-١٤٤).

(الم):

قال السيوطي: عادة القرآن العظيم في ذكر هذه الحروف أن يذكر بعدها ما يتعلق بالقرآن كقوله: {الم ذلك الكتاب}، {الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق}، {المص كتاب أنزل إليك}، {الر تلك آيات الكتاب الحكيم}، {طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى}، {طسم تلك آيات الكتاب}، {يس

والقرآن}، {ص والقرآن}، {حم تنزيل الكتاب}، {ق والقرآن}، إلا ثلاث سور: العنكبوت والروم ون ليس فيها ما يتعلق به. الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٨٤).

(الله لا إله إلا هو الحي القيوم):

عن أسماء بنت يزيد، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين {وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم}، وفاتحة سورة آل عمران: {الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم}). مسند أحمد (٤٥/ ٥٨٤)، سنن أبي داود (٢/ ٨٠)، سنن الترمذي (٥/ ٣٩٤).

(القيوم):

قال السعدي: ومن قيامه تعالى بعباده ورحمته بهم أن نزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها، المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيه، فما أخبر به صِدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه. تفسير السعدي (ص: ١٢١).

(نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه...):

قال ابن تيمية: والدين الحق دين الإسلام: عبادة الله وحده لا شريك له، وتصديق رسله، كما يدل عليه قولنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. والله سبحانه يجمع بين هذين الأصلين في غير موضع كقوله تعالى... في أول آل عمران: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} ثم قال: {نزل عليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان} فذكر التوحيد أولاً ثم ذكر النبوات المتضمنة إنزال الكتاب. الإخنائية (ص: ٤٦٩).

(نزّل عليك الكتاب... وأنزل التوراة والإنجيل):

قال البغوي: وإنما قال: (وأنزل التوراة والإنجيل) لأن التوراة والإنجيل أنزلا جملة واحدة، وقال في القرآن: (نزّل) لأنه نزل مفصلا، والتنزيل: للتكثير. تفسير البغوي (١/ ٤٠٧).

(مصدقا لما بين يديه):

قال السعدي: {مصدقا لما بين يديه} من الكتب السابقة، فهو المزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم. تفسير السعدي (ص: ١٢١).

(هدى للناس):

قال السعدي: {هدى للناس} الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله. تفسير السعدي (ص: ١٢١).

(وأنزل الفرقان):

قال ابن تيمية: في قوله تعالى {وأنزل الفرقان} قال قتادة والربيع: هو القرآن: فرق فيه بين الحلال والحرام والحق والباطل؛ وهذا لأن الشيء الواحد إذا كان له وصفان كبيران فهو مع وصف واحد كالشيء الواحد ومع الوصفين بمنزلة الاثنين حتى لو كثرت صفاته لتنزّل منزلة أشخاص. ألا ترى أن الرجل الذي يحسن الحساب والطب يكون بمنزلة حاسب وطبيب، والرجل الذي يحسن النجارة والبناء بمنزلة نجّار وبنّاء. مجموع الفتاوى (٩/ ٣١٨).

وقال أيضا: ولفظ (الفرقان) يتناول ما يفرق بين الحق والباطل، مثل الآيات التي بعث بها الأنبياء: كالحية واليد البيضاء وانفلاق البحر. والقرآن فرقان بين من هذا الوجه: من جهة أنه آية عظيمة لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلم عظيم. وهو أيضا فرقان باعتبار أنه فرق ببيانه بين الحق والباطل، كما قال: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده}، ولهذا فسر جماعة الفرقان هنا به. ولفظ (الفرقان) أيضا يتناول نصر الله لأنبيائه وعباده المؤمنين وإهلاك أعدائهم؛ فإنه فرق به بين أوليائه وأعدائه، وهو أيضا من الأعلام قال تعالى: {إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان}. مجموع الفتاوى (٢٧/ ٢٧٧).

وقال الشوكاني: قوله: (وأنزل الفرقان) أي: الفارق بين الحق والباطل، وهو القرآن، وكرر ذكره تشريفا له مع ما يشتمل عليه هذا الذكر الآخر من الوصف له بأنه يفرق بين الحق والباطل، وذكر التنزيل أولا والإنزال ثانيا لكونه جامعا بين الوصفين، فإنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة، ثم نزل منها إلى النبي صلى الله عليه وسلم مفرقا منجما على حسب الحوادث. فتح القدير للشوكاني (١/ ٣٥٨).

(ذو انتقام):

قال ابن تيمية: اسم (المنتقم) ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما جاء في القرآن مقيدا كقوله تعالى {إنا من المجرمين منتقمون}، وقوله {إن الله عزيز ذو انتقام}، والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنى الذي يذكر فيه المنتقم فذكر في سياقه {البر التواب المنتقم العفو الرؤوف} ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي صلى الله عليه وسلم. مجموع الفتاوى (٨/ ٩٦).

(إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء):

عن عبد الله بن مسعود قال: «ما بين السماء القصوى وبين الكرسي خمسمائة سنة، وما بين الكرسي والماء خمسمائة سنة، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم». شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤٣٨).

(منه آيات محكمات هن أم الكتاب):

قال ابن القيم: الإحكام له ثلاثة معان:

أحدها: الإحكام الذي في مقابلة المتشابه كقوله: {منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات}.

والثاني: الإحكام في مقابلة نسخ ما يلقي الشيطان كقوله: {فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته}، وهذا الإحكام يعم جميع آياته وهو إثباتها وتقريرها وبيانها، ومنه قوله: {كتاب أحكمت آياته}.

والثالث: إحكام في مقابلة الآيات المنسوخة كما يقوله السلف كثيرا هذه الآية محكمة غير منسوخة. شفاء العليل (ص: ١٩٣).

(وأخر متشابهات):

قال ابن تيمية: التشابه أمر نسبي فقد يتشابه عند هذا ما لا يتشابه عند غيره، ولكن ثم آيات محكمات لا تشابه فيها على أحد وتلك المتشابهات إذا عرف معناها صارت غير متشابهة؛ بل القول كله محكم كما قال: {أحكمت آياته ثم فصلت} وهذا كقوله: (الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس) وكذلك قولهم: {إن البقر تشابه علينا}.

وقد صنف أحمد كتابا في "الرد على الزنادقة والجهمية" فيما شكت فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله، وفسر تلك الآيات كلها وذمهم على أنهم تأولوا ذلك المتشابه على غير تأويله، وعامتها آيات معروفة قد تكلم العلماء في تفسيرها...

قال الحسن البصري: ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يعلم فيم أنزلت وماذا عني بها. ومن قال من السلف إن المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله فقد أصاب أيضا، ومراده بالتأويل ما استأثر الله بعلمه: مثل وقت الساعة ومجيء أشراطها ومثل كيفية نفسه وما أعده في الجنة لأوليائه.

وكان من أسباب نزول الآية احتجاج النصارى بما تشابه عليهم كقوله: (إنا) و (نحن) وهذا يعرف العلماء أن المراد به الواحد المعظم الذي له أعوان؛ لم يرد به أن الآلهة ثلاثة، فتأويل هذا الذي هو تفسيره يعلمه الراسخون ويفرقون بين ما قيل فيه: (إياي) وما قيل فيه (إنا)، لدخول الملائكة فيما يرسلهم فيه؛ إذ كانوا رسله وأما كونه هو المعبود الإله فهو له وحده ولهذا لا يقول: فإيانا فاعبدوا ولا إيانا فارهبوا بل متى جاء الأمر بالعبادة والتقوى والخشية والتوكل ذكر نفسه وحده باسمه الخاص وإذا ذكر الأفعال التي يرسل فيها الملائكة قال: {إنا فتحنا لك فتحا مبينا} {فإذا قرأناه فاتبع قرآنه} {نتلوا عليك من نبإ موسى وفرعون بالحق}. مجموع الفتاوى (١٣/ ١٤٤-١٤٥).

وقال أيضا: كل آية وإن كانت محكمة مبينة قد تشتبه على بعض الناس، وعلى هذا فيكون قوله تعالى (مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ) أن الآيات المحكمات لا تشتبه على أولئك، بل هي أصل الكتاب الذي عرفوه، بل اشتباه (وأخر متشابهات) عليهم كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي في المسند وغيره: (إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضـاً، ولكن نزل يصدق بعضه بعضـاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم به فكلوه إلى عالمه). بيان تلبيس الجهمية (٨/ ٣٧٦).

(فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله):

عن عائشة، قالت: تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وما يعلم تأويله إلا الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا، وما يذكر إلا أولو الألباب} قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم». صحيح البخاري (٦/ ٣٤)، صحيح مسلم (٤/ ٢٠٥٣). وفي لفظ أحمد: (فإذا رأيتم الذين يجادلون فيه، فهم الذين عنى الله عز وجل، فاحذروهم) مسند أحمد (٤٠/ ٢٥٥).

سمع النبي صلى الله عليه وسلم قوما يتدارءون (يتجادلون)، فقال: (إنما هلك من كان قبلكم بهذا، ضربوا كتاب الله بعضه ببعض، وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضا، فلا تكذبوا بعضه ببعض، فما علمتم منه فقولوا، وما جهلتم، فكلوه إلى عالمه). مسند أحمد (١١/ ٣٥٤).

عن عبد الله بن عمرو: أن نفرا كانوا جلوسا بباب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ وقال بعضهم: ألم يقل الله كذا وكذا؟ فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج كأنما فقئ في وجهه حب الرمان، فقال: (بهذا أمرتم؟ أو بهذا بعثتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ إنما ضلت الأمم قبلكم في مثل هذا، إنكم لستم مما هاهنا في شيء، انظروا الذي أمرتم به، فاعملوا به، والذي نهيتم عنه فانتهوا). مسند أحمد (١١/ ٤٣٤)، سنن ابن ماجه (١/ ٣٣).

وعن سليمان بن يسار: أن رجلا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فأرسل إليه عمر رضي الله عنه وقد أعدّ له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين، فضربه وقال: أنا عبد الله عمر، «فجعل له ضربا حتى دمي رأسه» فقال: يا أمير المؤمنين، حسبك، قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي. سنن الدارمي (١/ ٢٥٢).

وقال ابن كثير: {فأما الذين في قلوبهم زيغ} أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل {فيتبعون ما تشابه منه} أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحرفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه، فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامغ لهم وحجة عليهم، ولهذا قال: {ابتغاء الفتنة} أي: الإضلال لأتباعهم، إيهاما لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصارى بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا

الاحتجاج بقوله تعالى {إن هو إلا عبد أنعمنا عليه} وبقوله: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون} وغير ذلك من الآيات المحكمة المصرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله. تفسير ابن كثير (٢/ ٨).

(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم):

قال البغوي: اختلف العلماء في نظم هذه الآية فقال قوم: الواو في قوله (والراسخون) واو العطف يعني: أن تأويل المتشابه يعلمه الله ويعلمه الراسخون في العلم وهم مع علمهم {يقولون آمنا به} وهذا قول مجاهد والربيع، وعلى هذا يكون قوله (يقولون) حالا معناه: والراسخون في العلم قائلين آمنا به، هذا كقوله تعالى: (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى)، ثم قال: (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) إلى أن قال: (والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم) ثم قال: (والذين جاءوا من بعدهم) وهذا عطف على ما سبق، ثم قال: (يقولون ربنا اغفر لنا) يعني هم مع استحقاقهم الفيء يقولون ربنا اغفر لنا، أي: قائلين على الحال. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول في هذه الآية: أنا من الراسخين في العلم، وروي عن مجاهد: أنا ممن يعلم تأويله.

وذهب الأكثرون إلى أن الواو في قوله (والراسخون) واو الاستئناف، وتم الكلام عند قوله: {وما يعلم تأويله إلا الله}، وهو قول أبي بن كعب وعائشة وعروة بن الزبير رضي الله عنهم ورواية طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما، وبه قال الحسن وأكثر التابعين واختاره الكسائي والفراء والأخفش، وقالوا: لا يعلم تأويل المتشابه إلا الله... والخلق متعبدون في المتشابه بالإيمان به، وفي المحكم بالإيمان به والعمل... وقال عمر بن عبد العزيز في هذه الآية: (انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: آمنا به كل من عند ربنا). وهذا قول أقيس في العربية وأشبه بظاهر الآية. تفسير البغوي (٢/ ١٠).

وقال ابن تيمية: لفظ التأويل في القرآن يراد به: ما يؤول الأمر إليه، وإن كان موافقـًا لمدلول اللفظ ومفهومه في الظاهر، ويراد به: تفسير الكلام وبيان معناه، وإن كان موافقـًا له، وهو اصطلاح المفسرين المتقدمين كمجاهد وغيره.

ويراد به: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى المرجوح لدليل يقترن بذلك. وتخصيص لفظ التأويل بهذا المعنى إنما يوجد في كلام بعض المتأخرين. فأما الصحابة، والتابعون لهم بإحسان، وسائر أئمة

المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم فلا يخصون لفظ التأويل بهذا المعنى، بل يريدون المعنى الأول أو الثاني. درء تعارض العقل والنقل (١/ ١٤).

وقال أيضا: التأويل: يراد به تفسير القرآن، ومعرفة معانيه، وهذا يعلمه الراسخون، ويراد به ما استأثر الرب سبحانه وتعالى بعلمه من معرفة كنهه وكنه ما وعد به ووقت الساعة، ونحو ذلك مما لا يعلمه إلا الله. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (١/ ٣٧٦).

(والراسخون في العلم يقولون آمنا به...):

قال السعدي: وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد:

إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه.

الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالما محققا، وعارفا مدققا، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علما وحالا وعملا.

الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه ورد لمتشابهه إلى محكمه، بقوله {يقولون آمنا به كل من عند ربنا} .

الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون.

الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله {ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا} .

السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب.

السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل. تفسير السعدي (ص: ١٢٣).

(كل من عند ربنا):

قال السعدي: {كل} من المحكم والمتشابه {من عند ربنا} وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض، بل هو متفق يصدق بعضه بعضا ويشهد بعضه لبعض، وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا

علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه، علموا يقينا أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. تفسير السعدي (ص: ١٢٢).

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا...):

عن عبد الله بن عمرو بن العاص: أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن، كقلب واحد، يصرفه حيث يشاء» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك». صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٥).

عن عائشة قالت: دعوات كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يكثر أن يدعو بها: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)، قالت: فقلت: يا رسول الله، إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء، فقال: (إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإذا شاء أزاغه، وإذا شاء أقامه). مسند أحمد (٤١/ ١٥١).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما سمي القلب من تقلبه، إنما مثل القلب كمثل ريشة معلقة في أصل شجرة تقلبها الريح ظهرا لبطن). مسند أحمد (٣٢/ ٤٣١).

عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علما، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة، إنك أنت الوهاب». سنن أبي داود (٤/ ٣١٤).

قال ابن القيم: العبد إذا علم أن الله سبحانه وتعالى هو مقلب القلوب، وأنه يحول بين المرءِ وقلبه وأنه تعالى سبحانه كل يوم هو في شأْن، يفعل ما يشاءُ ويحكم ما يريد، وأنه يهدي من يشاءُ ويضل من يشاءُ، ويرفع من يشاءُ ويخفض من يشاءُ، فما يؤمّنه أن يقلب الله قلبه ويحول بينه وبينه ويزيغه بعد إقامته؟ وقد أثنى الله على عباده المؤمنين بقولهم: {رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا}، فلولا خوف الإزاغة لما سألوه أن لا يزيغ قلوبهم. وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم مصرف القلوب، صرف قلوبنا على طاعتك، ومثبت القلوب، ثبت قلوبنا على دينك)، وفي الترمذي عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو: (أعوذ بعزتك أن تضلّني أنت الحي الذي لا تموت). طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٨٨).

(وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب):

قال ابن تيمية: لله رحمة قد عمت الخلق برهم وفاجرهم سعيدهم وشقيهم، ثم له رحمة خص بها المؤمنين خاصة، وهي رحمة الإيمان، ثم له رحمة خص بها المتقين، وهي رحمة الطاعة لله تعالى، ولله رحمة خص بها الأولياء نالوا بها الولاية، وله رحمة خص بها الأنبياء نالوا بها النبوة، وقال الراسخون في العلم: {وهب لنا من لدنك رحمة} فسألوه رحمة من عنده. مختصر الفتاوى المصرية (ص: ١٠٣).

(إن الله لا يخلف الميعاد):

قال الزركشي: اختلف في قوله تعالى: {إن الله لا يخلف الميعاد} بعد {ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه}.

فقيل: إن الكلام تم عند قوله: {لا ريب فيه} وهذا الذي بعده من مقول الله تصديقا لهم.

وقيل: بل هو من بقية كلامهم الأول على طريقة الالتفات من الخطاب إلى الغيبة كقوله: {حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم}. البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣٣١).

وقال زكريا الأنصاري: قوله تعالى: (إن الله لا يخلف الميعاد). قاله بلفظ الغيبة، وقال في آخر السورة (إنك لا تخلف الميعاد) بلفظ الخطاب... لأن ما هنا متصل بما قبله، وهو قوله تعالى: (ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه) اتصالا معنويا فقط. وما في آخرها متصل بما قبله وهو قوله: (ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك) اتصالا لفظيا ومعنويا، لتقدم لفظ الوعد. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٨٠).

سبب نزول: (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم...):

عن ابن عباس، قال: لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا يوم بدر، وقدم المدينة جمع اليهود في سوق بني قينقاع فقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا»، قالوا: يا محمد، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا، لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك: {قل للذين كفروا ستغلبون} إلى قوله {فئة تقاتل في سبيل الله} ببدر {وأخرى كافرة}. سنن أبي داود (٣/ ١٥٤).

(يرونهم مثليهم رأي العين):

قال البغوي: {يرونهم مثليهم} قرأ أهل المدينة ويعقوب بالتاء يعني: ترون يا معشر اليهود أهل مكة مثلي المسلمين، وذلك أن جماعة من اليهود كانوا حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة، فرأوا المشركين مثلي عدد المسلمين، ورأوا النصرة مع ذلك للمسلمين، فكان ذلك معجزة وآية.

وقرأ الآخرون بالياء، واختلفوا في وجهه: فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين، ثم له تأويلان:

أحدهما: يرى المسلمون المشركين مثليهم كما هم...

والتأويل الثاني -وهو الأصح-: كان المسلمون يرون المشركين مثلي عدد أنفسهم، قللهم الله تعالى في أعينهم حتى رأوهم ستمائة وستة وعشرين، ثم قللهم الله في أعينهم في حالة أخرى حتى رأوهم مثل عدد أنفسهم. قال ابن مسعود رضي الله عنه: نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا. ثم قللهم الله تعالى أيضا في أعينهم حتى رأوهم عددا يسيرا أقل من أنفسهم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة.

وقال بعضهم: الرؤية راجعة إلى المشركين، يعني يرى المشركون المسلمين مثليهم، ثم قللهم الله قبل القتال في أعين المشركين ليجترئ المشركون عليهم ولا ينصرفوا، فلما أخذوا في القتال كثرهم الله في أعين المشركين ليجبنوا وقللهم في أعين المؤمنين ليجترؤوا فذلك قوله تعالى: (وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم). تفسير البغوي (٢/ ١٤).

(والله يؤيد بنصره من يشاء):

قال السعدي: لو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والعُدد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفايته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين. تفسير السعدي (ص: ١٢٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١-١٣

١- أكثر من سؤال الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى، وهو وارد في قول الله تعالى: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم).

٢- أنزل الله كتبه بالحق لهداية الناس من الظلمات إلى النور، وللتفريق بين الحق والباطل، فالتمس الهدى في القرآن، واعلم أنك لن تصل إلى الهدى إلا بتدبر آيات القرآن، والتفكّر في عبره وعظاته، وأمثاله وأحكامه، وأوامره ونواهيه، وقصصه وأخباره (نزّل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان).

٣- راقب الله في أقوالك وأفعالك وإراداتك، وإن وجدت من نفسك ضعفا في ذلك وركونا إلى الشهوات فاردعْها بِـ (إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء).

٤- اعلم أن في القرآن آيات متشابهات، يستدلّ بها من في قلبه مرض وانحراف من أهل الكفر والزندقة والإلحاد، ومن أهل البدع والأهواء المنتسبين إلى الإسلام، فعليك بالآيات المحكمات الواضحات البينات، تمسّك بها وعضّ عليها بالنواجذ، وما أشكل عليك واشتبه فدعْه واتركه وقل: الله أعلم بمراده منها (آمنا به كل من عند ربنا)، وإياك وضرب كتاب الله بعضه ببعض، أو التكلف في البحث عن توجيه للمتشابهات، والزم غرْز العلماء الراسخين، واتّبع نهجهم وطريقتهم، واحذر غاية الحذر من أولئك الذين يطرحون المتشابهات ويتتبّعونها، وابتعد عنهم، ولا تستمع إليهم، فإنهم قد يطرحون الشبهة فتثبت في نفسك فتكون سببا لزيْغك وضلالك (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتّبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكّر إلا أولوا الألباب).

٥- إذا كان الراسخون في العلم يسألون الله ألّا يزيغ قلوبهم، (وهم من هم في الإيمان والصلاح والتقوى والعلم)، وقبلهم إمامهم وقائدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر من سؤال الله الثبات على الدين، فهل تأمن زيغ القلب بعدهم؟ وهل تضمن الثبات على الهداية حتى الممات؟ وأنت تعيش في زمن أحاطت بك فيه الشبهات والشهوات إحاطة السوار بالمعصم، فاجعل دعاءك

الذي لا يفارقك صباح كل يوم ومساء كل ليلة (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب).

٦- اعلم أنّ من استحقّ العذاب لن تغني عنه أمواله ولا أولاده من الله شيئا، ولو ملك من الأموال ما ملك، فاتّق النار بالحذر من الذنوب والمعاصي، والعمل بالطاعات والصالحات، واعلم أن الله شديد العقاب (إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار * كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب).

٧- من عِبَر ودروس غزوة بدر أن الله سبحانه هو الذي ينصر من يشاء ويخذل من يشاء، فقد نصر سبحانه المؤمنين مع قلتهم على الكافرين، وما ذلك إلا لقوة إيمانهم، مع صدق استعانتهم بالله وتوكلهم عليه، وصحة نواياهم في الدفاع عن الإسلام وردْع الكافرين، مع بذل أسباب النصر من الإعداد والقوة، فهذا هو سبيل النصر والتمكين (قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (١٤-٢٢) من التفسير الميسّر

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)

حُسِّن للناس حبُّ الشهوات من النساء والبنين، والأموال الكثيرة من الذهب والفضة، والخيل الحسان، والأنعام من الإبل والبقر والغنم، والأرض المتَّخَذة للغراس والزراعة. ذلك زهرة الحياة الدنيا وزينتها الفانية. والله عنده حسن المرجع والثواب، وهو الجنَّة.

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥)

قل -أيها الرسول-: أأخبركم بخير مما زُيِّن للنَّاس في هذه الحياة الدنيا، لمن راقب الله وخاف عقابه جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، خالدين فيها، ولهم فيها أزواج مطهرات من الحيض والنفاس وسوء الخلق، ولهم أعظم من ذلك: رضوان من الله. والله مطَّلِع على سرائر خلقه، عالم بأحوالهم، وسيجازيهم على ذلك.

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦)

هؤلاء العباد المتقون يقولون: إننا آمنا بك، واتبعنا رسولك محمدًا صلى الله عليه وسلم، فامْحُ عنا ما اقترفناه من ذنوب، ونجنا من عذاب النار.

الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٧)

هم الذين اتصفوا بالصبر على الطاعات، وعن المعاصي، وعلى ما يصيبهم من أقدار الله المؤلمة، وبالصدق في الأقوال والأفعال وبالطاعة التامة، وبالإنفاق سرا وعلانية، وبالاستغفار في آخر الليل؛ لأنه مَظِنَّة القبول وإجابة الدعاء.

شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)

شهد الله أنه المتفرد بالإلهية، وقَرَنَ شهادته بشهادة الملائكة وأهل العلم، على أجلِّ مشهود عليه، وهو توحيده تعالى وقيامه بالعدل، لا إله إلا هو العزيز الذي لا يمتنع عليه شيء أراده، الحكيم في أقواله وأفعاله.

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩)

إن الدين الذي ارتضاه الله لخلقه وأرسل به رسله، ولا يَقْبَل غيره هو الإسلام، وهو الانقياد لله وحده بالطاعة والاستسلام له بالعبودية، واتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين حتى خُتموا بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي لا يقبل الله مِن أحد بعد بعثته دينًا سوى الإسلام الذي أُرسل به. وما وقع الخلاف بين أهل الكتاب من اليهود والنصارى، فتفرقوا شيعًا وأحزابًا إلا من بعد ما قامت الحجة عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ بغيًا وحسدًا طلبًا للدنيا. ومن يجحد آيات الله المنزلة وآياته الدالة على ربوبيته وألوهيته، فإن الله سريع الحساب، وسيجزيهم بما كانوا يعملون.

فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

فإن جادلك -أيها الرسول- أهل الكتاب في التوحيد بعد أن أقمت الحجة عليهم فقل لهم: إنني أخلصت لله وحده فلا أشرك به أحدًا، وكذلك من اتبعني من المؤمنين، أخلصوا لله وانقادوا له. وقل لهم ولمشركي العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وليس عليَّ إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحجة. والله بصير بالعباد، لا يخفى عليه من أمرهم شيء.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)

إن الذين يجحدون بالدلائل الواضحة وما جاء به المرسلون، ويقتلون أنبياء الله ظلمًا بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالعدل واتباع طريق الأنبياء، فبشِّرهم بعذاب موجع.

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)

أولئك الذين بطلت أعمالهم في الدنيا والآخرة، فلا يُقبل لهم عمل، وما لهم من ناصرٍ ينصرهم من عذاب الله.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (١٤-٢٢)

الكلمة	المعنى
والقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَة	والأموال الكثيرة
المُسَوّمة	المُعَلّمة الحِسان
والحَرْث	والزرْع
المآب	المَرجِع
مُطَهّرة	سالمة من الحيض والنفاس ومن العيب الخَلْقي والخُلُقي
والقَانِتِين	والمداومين على الطاعة
بِالأَسحَار	بآخر الليل
قائما بالقِسْط	مُقِيمًا للعدل
العَزِيز	القوي الغالب الممتنع
الحَكِيم	الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها
بغْيا بينهم	حسدا وعدوانا بينهم
أَسلَمتُ وَجْهِيَ لله	أخلصت عبادتي لله
والأُمّيّين	ومشركي العرب
حَبِطَت	بَطَلت

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ١٤-٢٢

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الرابعة عشرة وحتى الآية الثانية والعشرين.

أبدأ بقول الله تعالى: (زُيّن للناس حب الشهوات) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (من النساء والبنين...) إلى آخره هو حالٌ من الشهوات، فالشهوات التي زين لهم حبها هي التي جاء بيانها في قوله (من النساء والبنين والقناطير المقنطرة) إلى آخره، فلا يصح الوقف هنا.

ثم بعد ذلك لا يصح الوقف على قوله (من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام) لأنها معطوفاتٌ على بعضها عطف كلمات.

ثم هل يصح الوقف على قوله: (والحرث)؟

الجواب: نعم، لأنها نهاية الجملة التي فيها بيان ما زين للناس وتفصيل ذلك إلى قوله (والحرث)، ثم ابتدأ بعدها جملةً مستأنفةً بقوله (ذلك) يعني ما سبق (متاع الحياة الدنيا)، وقد نص على هذا عامة علماء الوقف والابتداء.

وهل يصح الوقف على قوله (ذلك متاع الحيا ة الدنيا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه من الناحية المعنوية: للفصل بين ما يتعلق بمتاع الدنيا وما يتعلق بما عند الله من النعيم الدائم الأبدي، فلما قال (والله عنده حسن المآب) فهو كالمقارنة التي فيها بيان أن هذا الذي سبق إنما هو متاعٌ فانٍ (والله عنده حسن المئاب)، ومن الناحية اللفظية قوله (والله عنده حسن المآب) جملةٌ مستأنفةٌ يصح الابتداء بها، وقيل هي معطوفة لكنه من باب عطف الجمل الذي ليس بينه وبين ما قبله ارتباطٌ وثيقٌ، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (قل أؤنبئكم بخيرٍ من ذلكم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الاستفهام قد انتهى، لما سأل فقال (هل أنبئكم بخيرٍ من ذلكم) يعني من ذلك المتاع، ثم بدأ الخبر عما هو خيرٌ من ذلك المتاع، فصح الوقف في

نهاية الاستفهام، ومن ناحيةٍ أخرى فإن قوله (للذين اتقوا عند ربهم جنات) هي جملةٌ اسميةٌ (جناتٌ) مرفوعةٌ على الابتداء، وقوله (للذين اتقوا) خبرٌ مقدمٌ فصح الوقف هنا، والله أعلم.

ثم لا يصح الوقف في قوله (للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مطهرةٌ) لأنها معطوفاتٌ على بعض، والعطف هنا وثيق الصلة لأنه من باب ذكر الثواب، والثواب متصلٌ بعضه ببعضٍ، وهي تفاصيل للثواب.

ثم هل يصح الوقف على قوله: (ورضوانٌ من الله)؟

الجواب: نعم، ونص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن نعيم أهل الجنة قد انتهى هنا، فانتهت الجملة السابقة، ثم ابتدأ بعدها جملةً مستأنفةً بقوله (والله بصيرٌ بالعباد) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

ثم الآية التي تليها: (الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنهم اعتبروا أن قوله (وقنا عذاب النار) من باب عطف الجمل، لكن عطف الجمل هنا فيه نوع ارتباطٍ، وذلك أنهم توسلوا إلى الله سبحانه وتعالى في البداية بإيمانهم فقالوا (إننا آمنا) ثم طلبوا الطلب الذي يترتب على هذا التوسل بقولهم (فاغفر لنا ذنوبنا) يعني لأننا آمنا بك (وقنا عذاب النار) يعني لأننا آمنا بك، فهو وإن كان من باب عطف الجمل إلا أن العطف هنا وثيق الصلة، والوقف هنا محتملٌ والوصل أولى، والله أعلم.

ثم الآية التي تليها: (الصابرين والصدقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) لا وقف فيها لأنها من باب عطف الكلمات بعضها على بعض.

ثم الآية التي تليها (شهد الله أنه لا إله إلا هو) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الإمام يعقوب، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء وأئمة الإقراء، وخطّأ النحاس هذا الوقف وكذلك السجاوندي، وذلك لأن قوله (والملائكة وأولو العلم) معطوفان على اسم الجلالة في قوله (شهد الله) يعني شهد الله والملائكة وأولو العلم، وهذا من باب عطف الكلمات بعضها على بعض التي لا يصح الفصل بينها، ثم من نظر إلى أنه يراعي في هذا الوقف ألا يتوهم دخول الملائكة وأولي العلم في الاستثناء يعني كأنها عطفت على (إلا هو) يعني: لا إله إلا هو وإلا الملائكة وإلا أولو العلم، فهذا وهمٌ بعيدٌ كما نص عليه السجاوندي، فإنه يعلم كل أحدٍ أن لا إله إلا هو، هذا مرتبطٌ بالله

سبحانه وتعالى، ثم عطف (والملائكة وأولوا العلم) على الله في (شهد الله) فصار نظم الجملة: شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا الله قائمًا بالقسط، فدل على أنه لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (قائمًا بالقسط)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الأولى قد انتهت التي فيها شهادة الله والملائكة وأولي العلم، ثم ابتدأ جملةً مستأنفةً مكررةً للتوكيد وهي قوله (لا إله إلا هو) بعد أن ذكر الشهادة بيّن أنه لا إله إلا هو سبحانه للتوكيد، فصح الابتداء بهذه الجملة المستأنفة، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (لا إله إلا هو) قبل قوله: (العزيز الحكيم)؟

نص على الوقف هنا الهبطي دون غيره من علماء الوقف والابتداء، وقد سبق التنبيه على مثل هذا أنه يحتاج إلى تقدير مبتدأ محذوف أو خبر محذوف، وعدم التقدير أولى، وما عليه عامة علماء الوقف والابتداء هو عدم الوقف هنا وهو الصحيح، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إن الدين عند الله الإسلام) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، ونص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنّ) قد انتهت باسمها وخبرها فاسمها (الدين) وخبرها (الإسلام) فانتهت الجملة، ثم استأنف بعدها جملةً مبدوءةً بالنفي، ويصح الابتداء بالنفي عادةً فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم)؟

نص على الوقف هنا الهبطي دون غيره من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله تعالى (بغيًا بينهم) مفعولٌ لأجله منصوبٌ فهو من تتمة الجملة فلا يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله: (بغيًا بينهم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي قد انتهت، وهي جملة (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) مع ما ارتبط بها من المفعول لأجله، ثم ابتدأ بعدها جملةً شرطيةً في قوله (ومن يكفر) والشرط يصح الابتداء به عادةً هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى فإن قوله (ومن يكفر بآيات الله) مرتبطٌ بقوله (إن الدين عند الله الإسلام) وغير مرتبطٍ بقوله (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) فكأن جملة (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب) جاءت جملةً معترضةً فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن يكفر بآيات الله)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة الشرط لم تكتمل، لم يأت جواب الشرط بعد، (ومن يكفر بآيات الله) هذا أداة الشرط وفعله، ما الجواب؟ الجواب: (فإن الله سريع الحساب).

الآية التي تليها: (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت، وهي جملة (إن حاجوك) فقل كذا وكذا، فانتهت الجملة وما عطف عليها من قوله (ومن اتبعن)، ثم استأنف جملةً جديدةً في خطابٍ موجهٍ لأهل الكتاب والعرب، بينما الخطاب في قوله (فإن حاجوك) مختصٌ بأهل الكتاب دون العرب فصح الفصل بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الخطاب الذي وجهه إلى أهل الكتاب والأميين بالاستفهام قد انتهى عند قوله (أأسلمتم)، ثم ابتدأ جملةً شرطيةً، ويصح الابتداء بالشرط عادةً فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فإن أسلموا فقد اهتدوا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت، وهي (فإن أسلموا) ما النتيجة؟ (فقد اهتدوا)، ثم ابتدأ جملةً شرطيةً جديدةً في قوله (وإن تولوا)، فصح الفصل بين الجملتين الشرطيتين، وإن كانت من قبيل بيان حالتين متضادتين، وهما الإسلام والتولي عن الإسلام، لكن لما كانت كل حالةٍ جاءت في جملةٍ شرطيةٍ مستقلةٍ صح الوقف بينهما، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وإن تولوا فإنما عليك البلاغ)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة الشرطية قد انتهت، (إن) أداة الشرط (تولوا) فعل الشرط (فإنما عليك البلاغ) في محل جواب الشرط، ثم جاء بعدها جملة مستأنفة في قوله (والله بصيرٌ بالعباد) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حقٍّ ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) لا يصح الوقف في هذا كله وإن كان من قبيل عطف الجمل، لأنه في محل نصب اسم (إنّ) وما عطف عليها فكلها تنتظر خبرًا، والخبر واحدٌ لهذه الأوصاف كلها، وهو قوله (فبشرهم بعذابٍ أليمٍ) على

قول، وقوله (أولئك الذين حبطت أعمالهم) على قولٍ آخر، وعلى جميع الأحوال لا يصح الوقف بين هذه الجمل إلى نهاية الآية.

الآية الأخيرة: (أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة) هل يصح الوقف هنا؟

صحح الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الواو في قوله (وما لهم من ناصرين) واوٌ عاطفةٌ، وهو من قبيل عطف الجمل، وقوله (وما لهم) جملة نفيٍ فصح الوقف لهذا، وكذلك للتفريق بين عاقبة فعلهم وهو حبوط الأعمال في الدنيا والآخرة وبين أنهم لا ناصر لهم ينصرهم، وهما معنيان مستقلان، فالوقف هنا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ١٤-٢٢

(زين للناس حب الشهوات...):

قال ابن تيمية: جعل المزين نفس الحب لها، لم يجعل المزين هو المحبوب، كما أخبر أنه زين لكل أمة عملها، فإن المزين نفس الحب لها، لم يجعل المزين هو المحبوب، بل هو حب الشهوات، فإن المزين إذا كان نفس الحب والعمل لم ينصرف القلب عن ذلك، بخلاف ما لو كان المزين هو المحبوب، فقد زين الشيء المحبوب ولكن الإنسان لا يحبه لما يقوم بقلبه من العلم بحاله. الاستقامة (١/ ٣٦٩).

(من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة...):

قال ابن القيم: أخبر سبحانه أن هذا الذي زين به الدنيا من ملاذها وشهواتها وما هو غاية أماني طلابها ومؤثريها على الآخرة سبعة أشياء:

النساء اللاتي هن أعظم زينتها وشهواتها وأعظمها فتنة.

والبنين الذين بهم كمال الرجل وفخره وكرمه وعزه.

والذهب والفضة اللذين هما مادة الشهوات على اختلاف أجناسها وأنواعها.

والخيل المسومة التي هي عز أصحابها وفخرهم وحصونهم وآلة قهرهم لأعدائهم في طلبهم وهربهم.

والأنعام التي منها ركوبهم وطعامهم ولباسهم وأثاثهم وأمتعتهم وغير ذلك من مصالحهم.

والحرث الذي هو مادة قوتهم وقوت أنعامهم ودوابهم وفاكهتهم وأدويتهم وغير ذلك. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص: ١٦٨).

وقال ابن كثير: بدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في الصحيح أنه عليه السلام قال: (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) [متفق عليه]. فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه، (وإن خير هذه الأمة كان أكثرها نساء) [البخاري]، وقوله عليه السلام: (الدنيا متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة، إن نظر إليها سرته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله) [أبو داود]، وقوله في الحديث الآخر: (حبب إلي النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة) [أحمد والنسائي]...

وحب البنين تارة يكون للتفاخر والزينة فهو داخل في هذا، وتارة يكون لتكثير النسل، وتكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ممن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمود ممدوح، كما ثبت في الحديث: (تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة) [أحمد وأبو داود].

وحب المال -كذلك- تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود عليه شرعا...

وحب الخيل على ثلاثة أقسام، تارة يكون ربطها أصحابها معدة لسبيل الله تعالى، متى احتاجوا إليها غزوا عليها، فهؤلاء يثابون. وتارة تربط فخرا ونواء لأهل الإسلام، فهذه على صاحبها وزر. وتارة للتعفف واقتناء نسلها. ولم ينس حق الله في رقابها، فهذه لصاحبها ستر [متفق عليه]. تفسير ابن كثير (٢/ ١٩-٢١).

وقال السعدي: خص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها، قال تعالى {إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها}، فلما زينت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدواعي المثيرات، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين:

قسم جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب.

والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانا لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقا يتزودون منها لآخرتهم، ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها {ذلك متاع الحياة الدنيا}، فجعلوها معبرا إلى الدار الآخرة، ومتجرا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادا إلى ربهم.

وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتحذير للمغترين بها، وتزهيد لأهل العقول النيرة بها.

وتمام ذلك أن الله تعالى أخبر بعدها عن دار القرار ومصير المتقين الأبرار، وأخبر أنها خير من ذلكم المذكور، ألا وهي الجنات العاليات ذات المنازل الأنيقة والغرف العالية، والأشجار المتنوعة المثمرة بأنواع الثمار، والأنهار الجارية على حسب مرادهم، والأزواج المطهرة من كل قذر ودنس وعيب ظاهر وباطن، مع الخلود الدائم الذي به تمام النعيم، مع الرضوان من الله الذي هو أكبر نعيم، فقس هذه الدار الجليلة بتلك الدار الحقيرة، ثم اختر لنفسك أحسنهما، واعرض على قلبك المفاضلة بينهما. تفسير السعدي (ص: ١٢٤).

عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يهرم ابن آدم وتشب منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر) صحيح مسلم (٢/ ٧٢٤).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان: حب المال، وطول العمر). صحيح البخاري (٨/ ٩٠)

(ذلك متاع الحياة الدنيا):

قال ابن القيم: توعد سبحانه أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن آياته، ولم يرج لقاءه، فقال: {إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون}، وعير سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: (يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل)، وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة، ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى: (أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون)، وقوله: (ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم)، وقوله: (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون)، وقوله تعالى: (يسألونك عن الساعة أيان مرساها فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها إنما أنت منذر من يخشاها كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها)، وقوله: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة}، وقوله: {قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون}، وقوله: (يوم ينفخ في الصور

ونحشر المجرمين يومئذ زرقا يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوما). والله المستعان وعليه التكلان. الفوائد لابن القيم (ص: ٩٦).

ويقول أيضا: قال بعض العارفين: أسرع المطايا إلى الجنة: الزهد في الدنيا، وأسرع المطايا إلى النار: حب الشهوات، ومن استوى على متن هواه أسرع به إلى وادي الهلكات. روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص: ٤٨١).

ويقول القرطبي: في صحيح مسلم: (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات) رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم. وفائدة هذا التمثيل أن الجنة لا تنال إلا بقطع مفاوز المكاره وبالصبر عليها. وأن النار لا ينجى منها إلا بترك الشهوات وفطام النفس عنها. تفسير القرطبي (٤/ ٢٨).

(للذين اتقوا عند ربهم جنات...):

قال أبو حيان: بدأ أولا بذكر المقرّ، وهو الجنات التي قال فيها (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين)، «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» [متفق عليه]. ثم انتقل من ذكرها إلى ذكر ما يحصل به الأنس التام من الأزواج المطهرة. ثم انتقل من ذلك إلى ما هو أعظم الأشياء وهو رضا الله عنهم، فحصل بمجموع ذلك اللذة الجسمانية والفرح الروحاني، حيث علم برضا الله عنه كما جاء في الحديث أنه تعالى: «يسأل أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا [متفق عليه].

ففي هذه الآية الانتقال من عال إلى أعلى منه، ولذلك جاء في سورة براءة، قد ذكر تعالى الجنات والمساكن الطيبة فقال: (ورضوان من الله أكبر) يعنى أكبر مما ذكر من الجنات والمساكن. البحر المحيط في التفسير (٣/ ٥٥-٥٦).

(والمستغفرين بالأسحار...):

قال ابن كثير: دل على فضيلة الاستغفار وقت الأسحار. وقد قيل: إن يعقوب عليه السلام، لما قال لبنيه: {سوف أستغفر لكم ربي} أنه أخرهم إلى وقت السحر.

وثبت في الصحيحين وغيرهما من المساند والسنن، من غير وجه، عن جماعة من الصحابة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ينزل الله تبارك وتعالى في كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فأستجيب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟) الحديث...

وفي الصحيحين، عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: (من كل الليل قد أوتر رسول الله صلى الله عليه وسلم، من أوله وأوسطه وآخره، فانتهى وتره إلى السحر) [متفق عليه].

وكان عبد الله بن عمر يصلي من الليل، ثم يقول: يا نافع، هل جاء السحر؟ فإذا قال: نعم، أقبل على الدعاء والاستغفار حتى يصبح. رواه ابن أبي حاتم...

وعن حاطب قال: سمعت رجلا في السحر في ناحية المسجد وهو يقول: رب أمرتني فأطعتك، وهذا سحر، فاغفر لي. فنظرت فإذا ابن مسعود، رضي الله عنه.

وروى ابن مردويه عن أنس بن مالك قال: كنا نؤمر إذا صلينا من الليل أن نستغفر في آخر السحر سبعين مرة. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٣).

وقال ابن تيمية: شُرع الاستغفار في خواتيم الأعمال. قال تعالى: {والمستغفرين بالأسحار} قال بعضهم: أحيوا الليل بالصلاة فلما كان وقت السحر أمروا بالاستغفار. وفي الصحيح {أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا...} وقال تعالى: {فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام} إلى قوله: {واستغفروا الله إن الله غفور رحيم}. مجموع الفتاوى (١٠/ ٨٩).

وقال السعدي: لما بين صفاتهم الحميدة ذكر احتقارهم لأنفسهم وأنهم لا يرون لأنفسهم حالا ولا مقاما، بل يرون أنفسهم مذنبين مقصرين فيستغفرون ربهم. تفسير السعدي (ص: ١٢٤).

(شهد الله أنه لا إله إلا هو...):

قال ابن تيمية: تنوعت عبارات المفسرين في لفظ (شهد) فقالت طائفة منهم مجاهد والفراء وأبو عبيدة: أي: حكم وقضى. وقالت طائفة منهم ثعلب والزجاج: أي: بيّن. وقالت طائفة: أي: أعلم. وكذلك قالت طائفة معنى شهادة الله: الإخبار والإعلام، ومعنى شهادة الملائكة والمؤمنين: الإقرار، وعن ابن عباس: أنه شهد بنفسه لنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم يكن سماء ولا أرض ولا بر ولا بحر، فقال: {شهد الله أنه لا إله إلا هو}.

وكل هذه الأقوال وما في معناها صحيحة؛ وذلك أن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وقوله وخبره عما شهد به، وهذا قد يكون مع أن الشاهد نفسه يتكلم بذلك ويقوله ويذكره وإن لم يكن معلما به لغيره ولا مخبرا به لسواه. فهذه أول مراتب الشهادة. ثم قد يخبره ويعلمه بذلك فتكون الشهادة إعلاما لغيره وإخبارا له، ومن أخبر غيره بشيء فقد شهد به سواء كان بلفظ الشهادة أو لم يكن، كما في قوله تعالى {وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون}، وقوله تعالى {وما شهدنا إلا بما علمنا} الآية. ففي كلا الموضعين إنما أخبروا خبرا مجردا. مجموع الفتاوى (١٤/ ١٦٨-١٦٩).

وقال أيضا: وشهادة الرب وبيانه وإعلامه يكون بقوله تارة وبفعله تارة. فالقول هو ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه وأوحاه إلى عباده، كما قال: {ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون} إلى غير ذلك من الآيات. وقد علم بالتواتر والاضطرار أن جميع الرسل أخبروا عن الله أنه شهد ويشهد أن لا إله إلا هو بقوله وكلامه؛ وهذا معلوم من جهة كل من بلغ عنه كلامه، ولهذا قال تعالى: {أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي}.

وأما شهادته بفعله فهو ما نصبه من الأدلة الدالة على وحدانيته التي تعلم دلالتها بالعقل وإن لم يكن هناك خبر عن الله، وهذا يستعمل فيه لفظ الشهادة والدلالة والإرشاد، فإن الدليل يبين المدلول عليه ويظهره، فهو بمنزلة المخبر به الشاهد به، كما قيل: سل الأرض من فجر أنهارها وغرس أشجارها وأخرج ثمارها وأحيا نباتها وأغطش ليلها وأوضح نهارها؛ فإن لم تجبك حوارا أجابتك اعتبارا. وهو سبحانه شهد بما جعلها دالة عليه؛ فإن دلالتها إنما هي بخلقه لها، فإذا كانت المخلوقات دالة على أنه لا إله إلا هو وهو سبحانه الذي جعلها دالة عليه؛ فإن دلالتها إنما هي بخلقه، وبين ذلك؛ فهو الشاهد المبين بها أنه لا إله إلا هو، وهذه الشهادة الفعلية ذكرها طائفة. قال ابن كيسان: {شهد الله} بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو. مجموع الفتاوى (١٤/ ١٧٣-١٧٥).

وقال أيضا: تضمنت هذه الآية ثلاثة أصول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنه قائم بالقسط، وأنه العزيز الحكيم؛ فتضمنت وحدانيته المنافية للشرك، وتضمنت عدله المنافي للظلم، وتضمنت عزته وحكمته المنافية للذل والسفه، وتضمنت تنزيهه عن الشرك والظلم والسفه، ففيها إثبات التوحيد وإثبات العدل وإثبات الحكمة وإثبات القدرة. مجموع الفتاوى (١٤/ ١٨٠-١٨١).

وقال السعدي: هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك. تفسير السعدي (ص: ١٢٤).

وقال أيضا: وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. تفسير السعدي (ص: ١٢٥).

(وأولوا العلم):

قال ابن القيم: هذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه:

أحدها: استشهادهم دون غيرهم من البشر.

والثاني: اقتران شهادتهم بشهادته.

والثالث: اقترانها بشهادة ملائكته.

والرابع: أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول...

الخامس: أنه وصفهم بكونهم أولي العلم، وهذا يدل على اختصاصهم به، وأنهم أهله وأصحابه، ليس بمستعار لهم.

السادس: أنه سبحانه استشهد بنفسه، وهو أجل شاهد، ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده، ويكفيهم بهذا فضلا وشرفا.

السابع: أنه استشهد بهم على أجل مشهود به وأعظمه وأكبره، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، والعظيم القدر إنما يستشهد على الأمر العظيم أكابر الخلق وساداتهم.

الثامن: أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين، فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده.

التاسع: أنه سبحانه أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته ومنهم، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته، وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته، فكأنه سبحانه شهد لنفسه بالتوحيد على ألسنتهم وأنطقهم بهذه الشهادة، فكان هو الشاهد بها لنفسه إقامة وإنطاقا وتعليما، وهم الشاهدون بها له إقرارا واعترافا وتصديقا وإيمانا.

العاشر: أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة، فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به، فثبت الحق المشهود به، فوجب على الخلق الإقرار به، وكان ذلك غاية سعادتهم في معاشهم ومعادهم، وكل من ناله الهدى بشهادتهم وأقر بهذا الحق بسبب شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره، وهذا فضل عظيم لا يدري قدره إلا الله، وكذلك كل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضا. فهذه عشرة أوجه في هذه الآية. مفتاح دار السعادة (١/ ٤٨-٤٩).

(لا إله إلا هو العزيز الحكيم):

قال ابن تيمية: ذُكر عن جعفر بن محمد أنه قال: الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم. أي قوله: {لا إله إلا هو العزيز الحكيم} . ومعنى هذا أن الأولى هو ذكر أن الله شهد بها فقال: {شهد الله أنه لا إله إلا هو}، والتالي للقرآن إنما يذكر أن الله شهد بها هو والملائكة وأولوا العلم، وليس في ذلك شهادة من التالي نفسه بها، فذكرها الله مجردة ليقولها التالي، فيكون التالي قد شهد بها أنه لا إله إلا هو. مجموع الفتاوى (١٤/ ١٧٩-١٨٠).

وقال السعدي: اعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس:

فأما الأدلة النقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقريره، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة النقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه.

وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه.

ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره: انفراده بالنعم ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نقمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها، وأن أحدا من الخلق لا يملك لنفسه - فضلا عن غيره- جلب نعمة ولا دفع نقمة، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل، وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جدا.

ومن الأدلة العقلية أيضا على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئا، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المدبرات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون.

ومن الأدلة العقلية على ذلك: ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلا إلى كل خير دافعا لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سببا للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع الأمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: {إن في ذلك لآية} أي: لعبرة يعتبر بها المعتبرون، فيعلمون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة، فله الحمد والشكر والثناء. تفسير السعدي (ص: ١٢٥).

(فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتّبعن...):

قال ابن القيم: ذكر الوجه إذ هو أشرف ما في الإنسان، ومجمع الحواس، وأيضا ففيه معنى التوجه والقصد من قوله: أستغفر الله ذنبا لست محصيه ... رب العباد إليه الوجه والعمل. زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٢٢٤).

(وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ):

قال ابن تيمية: ليس أحد بعد مبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلا من الذين أوتوا الكتاب أو الأميين، وكل أمة لم تكن من الذين أوتوا الكتاب فهم من الأميين؛ كالأميين من العرب ومن الخزر والصقالبة والهند والسودان وغيرهم من الأمم الذين لا كتاب لهم، فهؤلاء كلهم أميون، والرسول مبعوث إليهم كما بعث إلى الأميين من العرب. مجموع الفتاوى (٧/ ٥٥).

وقال ابن كثير: هذه الآية وأمثالها من أصرح الدلالات على عموم بعثته، صلوات الله وسلامه عليه، إلى جميع الخلق، كما هو معلوم من دينه ضرورة، وكما دل عليه الكتاب والسنة في غير ما آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: {قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا}، وقال تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا}، وفي الصحيحين وغيرهما، مما ثبت تواتره بالوقائع المتعددة، أنه بعث كتبه صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله ملوك الآفاق، وطوائف بني آدم من عربهم وعجمهم، كتابيهم وأميهم، امتثالا لأمر الله له بذلك... وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (والذي نفسي بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ومات ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أهل النار) رواه مسلم. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٦).

(ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس):

قال القرطبي: دلت هذه الآية على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان واجبا في الأمم المتقدمة، وهو فائدة الرسالة وخلافة النبوة. تفسير القرطبي (٤/ ٤٧).

وقال ابن القيم: من المعلوم: أن المؤثر لرضا الله متصد لمعاداة الخلق وأذاهم، وسعيهم في إتلافه ولا بد. هذه سنة الله في خلقه. وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل والذين يأمرون بالقسط من الناس، والقائمين بدين الله، الذابين عن كتابه وسنة رسوله عندهم؟

فمن آثر رضا الله فلا بد أن يعاديه رذالة العالم وسقطهم، وغرثاهم وجهالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرياسات الباطلة، وكل من يخالف هديه هديه. فما يُقدم على معاداة هؤلاء إلا طالب الرجوع إلى الله، عامل على سماع خطاب {يا أيتها النفس المطمئنة - ارجعي إلى ربك راضية مرضية}، ومن إسلامه صلب كامل لا تزعزعه الرجال، ولا تقلقله الجبال، ومن عَقْد عزيمة صبره محكم لا تحله المحن والشدائد والمخاوف.

قلت: وملاك ذلك أمران: الزهد في الحياة والثناء. فما ضعف من ضعف، وتأخر من تأخر إلا بحبه للحياة والبقاء، وثناء الناس عليه، ونفرته من ذمهم له. فإذا زهد في هذين الشيئين، تأخرت عنه العوارض كلها. وانغمس حينئذ في العساكر.

وملاك هذين الشيئين بشيئين: صحة اليقين. وقوة المحبة.

وملاك هذين بشيئين أيضا: بصدق اللجأ والطلب، والتصدي للأسباب الموصلة إليهما.

فإلى هاهنا تنتهي معرفة الخلق وقدرتهم. والتوفيق بعد بيد من أزمّة الأمور كلها بيده {وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما - يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما}. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٢٨٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ١٤-٢٢

١- اعلم أن كل ما تملكه في الحياة الدنيا وتحبه إنما هو زينة مؤقتة ومتاع زائل، ولا يساوي شيئا أمام ما أعدّه الله من نعيم للمتّقين في الآخرة، فاجعل الآخرة أكبر همّك لا الدنيا، واحذر من أن تملك الدنيا قلبك، فتضيع في شهواتها وملذاتها الفانية، وسل الله دوما ألّا يجعل الدنيا أكبر همك ولا مبلغ علمك (زُيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب).

٢- أكثر من التفكر فيما ورد من نعيم الجنة في القرآن والسنة، ليخفف ذلك عنك مشقة فعل الطاعة وترك المعصية، ويزيد شوقك إلى الجنان، وتتسلّى به عند المصائب والأحزان (للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله).

٣- من أعظم مطالب الصالحين في الدنيا والآخرة أن يغفر الله لهم ذنوبهم وأن يقيهم عذاب النار، فهم يعلمون أنهم مهما بلغوا من الصلاح فإنهم مقصّرون في حق الله، فتوسّل إلى الله بإيمانك به وبأسمائه وصفاته أن يمنّ عليك بالمغفرة والوقاية من النار، واغتنم لذلك وقت الأسحار (الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار)، (والمستغفرين بالأسحار).

٤- وصف الله المتّقين بخمس صفات: الصبر على الطاعة وعن المعصية وعلى أقدار الله المؤلمة، والصدق في العُسر واليُسر، ودوام الطاعة في الليل والنهار، والإنفاق على المحتاجين، والاستغفار في وقت السحَر، فاحرص على تحقيقها في نفسك حتى تكون من المتّقين حقا (الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار).

٥- احرص على أن تكون من أولي العلم حتى تنال الشرف العظيم الذي حظِي به أهل العلم، حيث استشهد الله بهم على أعظم مشهود وهو توحيده سبحانه واستحقاقه وحده للعبادة (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم).

٦- احذر أن يكون علمك سببا في غيّك وضلالك وانحرافك، وذلك بسبب البغي والحسد، فتكون مشابها لأهل الكتاب (وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم).

٧- احرص على تحقيق التوحيد، بتعلّمه وتعليمه، وتعويد النفس عليه، فإنه رأس مالك، وأساس نجاتك، والخلل فيه كثير، والشبه حوله غزيرة، فالحذر الحذر، وانجُ بدينك، وإياك والاستماع لأصحاب البدع والأهواء، وأرباب الشبهات والمجادلات، فإنك في زمن يعُجّ بالفتن والشبهات، والسلامة عزيزة (لا إله إلا هو العزيز الحكيم)، (فإن حاجّوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتّبعن).

٨- الدين الذي يقبله الله هو الإسلام فقط دون غيره من الأديان، فلا ينفع اليهودي ولا النصراني ولا غيرهما بقاؤهم على دينهم المحرّف بعد أن تبلغهم رسالة الإسلام (إن الدين عند الله الإسلام)، (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد).

٩- إذا أمرك شخص بمعروف أو نهاك عن منكر فاقبل منه برحابة صدر، واشكره على نصيحته، وإياك وردّ النصيحة أو أذية الناصح بالقول أو الفعل، فإن ذلك من صفات الكافرين الذين بشّرهم الله بالعذاب الأليم وحبوط الأعمال في الدنيا والآخرة (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم * أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (٢٣-٣٢) من التفسير الميسّر

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣)

أرأيت -أيها الرسول- أعجب من حال هؤلاء اليهود الذين أتاهم الله حظا من الكتاب فعلموا أن ما جئت به هو الحق، يُدْعون إلى ما جاء في كتاب الله -وهو القرآن- ليفصل بينهم فيما اختلفوا فيه، فإن لم يوافق أهواءهم يَأْبَ كثير منهم حكم الله؛ لأن من عادتهم الإعراض عن الحق؟

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)

ذلك الانصراف عن الحق سببه اعتقاد فاسد لدى أهل الكتاب؛ بأنهم لن يعذَّبوا إلا أيامًا قليلة، وهذا الاعتقاد أدى إلى جرأتهم على الله واستهانتهم بدينه، واستمرارهم على دينهم الباطل الذي خَدَعوا به أنفسهم.

فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٥)

فكيف يكون حالهم إذا جمعهم الله ليحاسَبوا في يوم لا شك في وقوعه -وهو يوم القيامة-، وأخذ كل واحد جزاءَ ما اكتسب، وهم لا يظلمون شيئا؟

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)

قل -أيها النبي متوجها إلى ربك بالدعاء-: يا مَن لك الملك كلُّه، أنت الذي تمنح الملك والمال والتمكين في الأرض مَن تشاء مِن خلقك، وتسلب الملك ممن تشاء، وتهب العزة في الدنيا والآخرة مَن تشاء، وتجعل الذلَّة على من تشاء، بيدك الخير، إنك -وحدك- على كل شيء قدير. وفي الآية إثبات لصفة اليد لله تعالى على ما يليق به سبحانه.

تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

ومن دلائل قدرتك أنك تُدخل الليل في النهار، وتُدخل النهار في الليل، فيطول هذا ويقصر ذاك، وتُخرج الحي من الميت الذي لا حياة فيه، كإخراج الزرع من الحب، والمؤمن من الكافر، وتُخرج الميت من الحي كإخراج البيض من الدجاج، وترزق من تشاء مَن خلقك بغير حساب.

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (٢٨)

ينهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء بالمحبة والنصرة من دون المؤمنين، ومَن يتولهم فقد برِئ من الله، والله برِيء منه، إلا أن تكونوا ضعافًا خائفين فقد رخَّص الله لكم في مهادنتهم اتقاء لشرهم، حتى تقوى شوكتكم، ويحذركم الله نفسه، فاتقوه وخافوه. وإلى الله وحده رجوع الخلائق للحساب والجزاء.

قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)

قل -أيها النبي- للمؤمنين: إن تكتموا ما استقر في قلوبكم من موالاة الكافرين ونصرتهم أو تظهروا ذلك لا يَخْفَ على الله منه شيء، فإنَّ علمه محيط بكل ما في السماوات وما في الأرض، وله القدرة التامة على كل شيء.

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)

وفي يوم القيامة يوم الجزاء تجد كل نفس ما عملت من خير ينتظرها موفرًا لتُجزَى به، وما عملت من عمل سيِّئ تجده في انتظارها أيضًا، فتتمنى لو أن بينها وبين هذا العمل زمنًا بعيدًا. فاستعدوا لهذا اليوم، وخافوا بطش الإله الجبار. ومع شدَّة عقابه فإنه سبحانه المتصف بكمال الرحمة بالعباد.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١)

قل -أيها الرسول-: إن كنتم تحبون الله حقا فاتبعوني وآمنوا بي ظاهرًا وباطنًا، يحببكم الله، ويمحُ ذنوبكم، فإنه غفور لذنوب عباده المؤمنين، رحيم بهم.

وهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله -تعالى- وليس متبعًا لنبيه محمد صلى الله عيه وسلم حق الاتباع، مطيعًا له في أمره ونهيه، فإنه كاذب في دعواه حتى يتابع الرسول صلى الله عليه وسلم حق الاتباع.

قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

قل -أيها الرسول-: أطيعوا الله باتباع كتابه، وأطيعوا الرسول باتباع سنته في حياته وبعد مماته، فإن هم أعرضوا عنك، وأصروا على ما هم عليه مِن كفر وضلال، فليسوا أهلا لمحبة الله؛ فإن الله لا يحب الكافرين.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (٢٣-٣٢)

المعنى	الكلمة
حظًا	نصيبا
وخَدَعَهم	وغرَّهُم
يكذِبون على الله	يفتَرون
وأُعطيت نصيبها كاملا	ووُفّيَت
تُدخِل	تُولِج
بتوسعة وبدون نهاية للعطاء	بغير حساب
يحبونهم ويناصرونهم	أولِياء
تتلطفوا معهم في حال ضعفكم اتقاء شرهم	تتّقوا منهم تُقاة
أو تُظهِروه	أو تُبدُوه
حاضرا في صحائف الأعمال	مُحضَرا
زمَنًا	أمَدًا
واسع الرحمة	رؤوف

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ٢٣-٣٢

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في سورة آل عمران من الآية الثالثة والعشرين وحتى الآية الثانية والثلاثين.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يدعون إلى الكتاب ليحكم بينهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعدها عطفٌ في قوله (ثم يتولى فريقٌ منهم)، وهذا العطف وإن كان من باب عطف الجمل إلا أنه وثيق الصلة، لأنه من تتمة بيان حالهم، لأن حالهم أنهم يُدعون إلى كتاب الله، فحالهم أنهم يتولون وهم معرضون، فلا يصح ولا يتم بيان الحال إلا بالوصل في هذا الموضع، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثم يتولى فريقٌ منهم)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (وهم معرضون) جملةٌ في محل نصب حال، فلا يصح الوقف قبلها، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودات) هل يصح الوقف هنا؟

نص الأشموني على أن الوقف هنا صالح، ورخص فيه السجاوندي للضرورة، ووضعت عليه علامة الوصل أولى في مصحف المدينة، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (وغرهم في دينهم) في محل نصب حال، يعني وقد غرهم أو: قالوا هذا القول مغرورين في دينهم، فهذا من تتمة الجملة، ويحتمل أن تكون (وغرهم) معطوفة عطف جمل، ولعل هذا هو وجهة نظر من صحح الوقف هنا، والأولى الوصل وعدم الوقف، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فكيف إذا جمعناهم ليومٍ لا ريب فيه) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الإمام نافع، وجعله الأنصاري مفهومًا والأشموني جائزًا، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (ووفيت كل نفس) معطوفٌ على قوله (جمعناهم)، فهو من قبيل عطف الجمل، لكن هذا العطف وثيق الصلة، وذلك أنه في بيان أنهم إذا جُمعوا يوفون ما عملوا، وليس المراد مجرد بيان أنهم سيُجمعون ليومٍ لا ريب فيه، وذلك أن الله سبحانه وتعالى بعد أن ذكر قولهم وزعمهم أن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدوداتٍ بين ما حالهم يوم أن يجمعهم الله ليومٍ لا ريب فيه ويوفون ما كسبوا، فليس المراد مجرد بيان

جمعهم ليومٍ لا ريب فيه، إنما المراد بيان أنهم سيوفون ما كسبوا في ذلك اليوم، فالأوجه هنا عدم الوقف، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ووفيت كل نفسٍ ما كسبت)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (وهم لا يظلمون) جملةٌ حاليةٌ، يعني والحال أنهم لن يظلموا ما كسبوا، فلا يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (قل اللهم مالك الملك) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (مالك الملك) هو نداء، و(تؤتي الملك من تشاء) جواب النداء، فلا يصح الوقف قبل جوابه.

وهل يصح الوقف على قوله (تؤتي الملك من تشاء)؟

نص على تجويز الوقف هنا الأشموني والأنصاري دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء، ونظروا إلى أن كل جملةٍ وإن كانت معطوفةً على ما بعدها إلا أنها مستقلةٌ بذاتها، فلو تأملنا كل جملةٍ اشتملت على فعلٍ وفاعلٍ ومفعولٍ به، فنقول (تؤتي) فعل، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت، و (الملك) مفعولٌ به، وجملة (تنزع الملك ممن تشاء) كذلك، وجملة (تعز من تشاء) كذلك، وجملة (تذل من تشاء) كذلك، فمن علماء الوقف والابتداء من صحح الوقف على الجمل الأربع، وهم الأشموني والأنصاري، ومنهم من صحح الوقف في نهاية كل جملتين متقابلتين، يعني صحح الوقف على قوله (تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء)، ثم صحح الوقف على قوله (وتعز من تشاء وتذل من تشاء)، ومنهم من لم يصحح الوقف إلا في نهاية الجمل الأربع يعني على قوله (وتذل من تشاء)، والأمر في هذا محتملٌ كما بينت أنه من قبيل عطف الجمل التي قامت فيه كل جملةٍ بنفسها، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (بيدك الخير)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي فيها بيان ملك الله سبحانه وتعالى، وأنه هو الذي يهب الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، وأن الخير بيده يعطيه من يشاء ويمنعه عمن يشاء قد انتهت، ثم ابتدأ جملةً بـ (إنّ) التي يصح الابتداء بها عادةً بقوله (إنك على كل شيءٍ قديرٌ) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي) نفس ما سبق في الجمل الأربع السابقة، فهنا جملٌ معطوفاتٌ على بعضها، لكن كل جملةٍ مستقلةٌ بنفسها: بفعلها وفاعلها ومفعولها وجارٍ ومجرورٍ متعلقٍ بها.

فقوله (تولج الليل في النهار) (تولج) فعل، والفاعل (أنت)، و(الليل) مفعولٌ به، و(في النهار) جارٌ ومجرورٌ متعلق بالجملة، وهكذا في بقية الجمل، والأمر هنا كما سبق في الجمل السابقة منهم من صحح الوقف على كل جملةٍ، ومنهم من صحح الوقف على كل جملتين متقابلتين، يعني على (تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل)، ثم على (وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي)، كما هو في مصحف المدينة، ومنهم من لم يصحح الوقف إلا في نهاية الجمل الأربع، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النهي قد انتهت، وهي قوله (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين)، ثم ابتدأ جملةً جديدةً بالشرط في قوله (ومن يفعل ذلك)، وإن كانت الواو هنا واوًا عاطفةً إلا أن جملة الشرط مستقلةٌ بنفسها، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيءٍ)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء والوقف والابتداء، ووجهه أنهم اعتبروا (إلا) هنا منقطعة بمعنى (لكن)، يعني كأن الله سبحانه وتعالى قال (لكن إذا خفتم منهم فلكم أن تتقوا منهم تقاة) فصححوا الوقف بناءً على ذلك، لكن أكثر علماء الوقف والابتداء على أن الوقف على قوله (إلا أن تتقوا منهم تقاة)، والأمر في هذا محتملٌ، والله أعلم.

ويصح الوقف على قوله (إلا أن تتقوا منهم تقاة)؛ لأن بعدها جملة مستأنفة أو هي معطوفة عطف جملٍ على قوله (لا يتخذ)، في قوله (ويحذركم الله نفسه) هي جملةٌ معطوفةٌ على (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أو هي مستأنفةٌ، وعلى كلتا الحالتين يصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويحذركم الله نفسه)؟

الجواب: نعم، لأن قوله (وإلى الله المصير) جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

الآية التي تليها: (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب الشرط لم يأت بعد، الشرط هو (إن)، وفعل الشرط (تخفوا ما في صدوركم)، وعطف عليها (أو تبدوه)، جواب الشرط (يعلمه الله).

وهل يصح الوقف على قوله (يعلمه الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن هذا نهاية جملة الشرط، وقوله بعدها (ويعلم ما في السموات وما في الأرض) ليس معطوفًا على جواب جملة الشرط؛ لأنه لو كان معطوفًا على قوله (يعلمه الله) لكان مجزومًا لقال (ويعلمْ ما في السموات وما في الأرض)، لكنه مرفوعٌ (ويعلمُ ما في السموات وما في الأرض) هذا من الناحية اللفظية، ومن ناحيةٍ معنويةٍ علم الله سبحانه وتعالى بما في السموات وما في الأرض ليس مشروطًا بشرطٍ أو متوقفًا على شرطٍ، إنما هو علمٌ عامٌ، فجملة (ويعلم ما في السموات وما في الأرض) مستقلةٌ بنفسها فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وما في الأرض)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي بعده جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله على كل شيءٍ قدير).

الآية التي تليها: (يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضرًا):

هذه الآية حصل فيها اختلافٌ كثيرٌ في موضع الوقف فيها، فمنهم من جعل الوقف على قوله (محضرا)، ومنهم من جعل الوقف على قوله (من سُوء)، ومنهم من لم يجعل هنا وقفًا إلا على قوله (أمدًا بعيدًا).

فأما من جعل الوقف على قوله (محضرا) فقد اعتبر قوله (وما عملت من سوء) الواو استئنافية، و (ما عملت) مرفوعٌ بالابتداء، خبره (تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا)، فالمعنى عنده: أن الله سبحانه وتعالى أخبر أنه يوم القيامة ستجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ حاضرًا أمامها، وانتهت الجملة، ثم أخبر أن ما عملته من سوءٍ في الدنيا ستود يوم القيامة لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا، يعني زمنًا بعيدًا، هذا وجه من صحح الوقف على قوله (مُحضرا).

وأما من صحح الوقف على قوله (من سُوء) فوجهه عنده أن قوله (وما عملت من سوء) معطوفٌ على قوله (ما عملت من خير) يعني: يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خيرٍ وما عملت من سوءٍ كله محضرٌ بين يديها، وانتهت الجملة هنا، ثم قال مستأنفًا (تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا).

ومن لم يصحح الوقف في أحدٍ من الموضعين رأى أن الجملة متصلةٌ ببعضها، فما عملته من خيرٍ سيكون محضرًا بين يديها، وما عملته من سوء ستجده أيضًا محضرًا بين يديها، وتود كذلك لو أن بينها وبينه يعني بين ما عملته من سوءٍ أمدًا بعيدًا.

وعامة علماء الوقف والابتداء ذكروا هذه الأوجه في الآية ولم يرجحوا، وذكر الداني رحمه الله أن الأجود اعتبار (ما عملت من سوءٍ) منصوبٌ يعني بالعطف على قوله (ما عملت من خيرٍ)، وبالتالي لا وقف، والأمر في هذا

محتملٌ، والله تعالى أعلم. والأحوط عدم الوقف إلا على قوله (أمدًا بعيدًا) كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء من صحة الوقف على قوله (أمدًا بعيدًا)، ووجهه أن الجملة التي فيها ما تجده النفس مما عملته من الخير ومن السوء محضرًا وتود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا قد تمت هنا، ثم استأنف جملةً جديدةً في قوله (ويحذركم الله نفسه) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويحذركم الله نفسه)؟

الجواب: نعم، ونص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملة مستأنفة في قوله (والله رؤوفٌ بالعباد).

الآية التي تليها: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (ويغفر لكم ذنوبكم) معطوفٌ على قوله (يحببكم الله) بدليل أنه مجزوم، و(يحببكم) هنا مضارعٌ مجزومٌ بجواب الطلب، الطلب (فاتبعوني) جوابه (يحببكم) وعطف عليها (ويغفر لكم) فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويغفر لكم ذنوبكم)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه: انتهاء جملة الشرط وما التحق بها من جواب الطلب، ثم استأنف بعدها جملةً جديدةً في قوله (والله غفورٌ رحيمٌ) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (قل أطيعوا الله والرسول) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الأمر قد انتهى، الذي هو الأمر بطاعة الله والرسول، ثم بين حكمًا مستقلاً في حال أنهم تولوا عن طاعة الله والرسول، وهذا الحكم المستقل مبدوءٌ بأداة الشرط في قوله (فإن تولوا) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ٢٣-٣٢

سبب نزول: (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم):

أخرج ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس على جماعة من يهود، فدعاهم إلى الله، فقال له النعمان بن عمرو والحرث بن زيد: على أي دين أنت يا محمد؟ قال: على ملة إبراهيم ودينه، قالا: فإن إبراهيم كان يهوديا، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: فهلما إلى التوراة فهي بيننا وبينكم، فأبيا عليه، فأنزل الله: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم} إلى قوله: {وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون} . الدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢/ ١٧٠).

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم...):

قال السعدي: يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقيادا لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نفعل كفعلهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع ويطيع وينقاد، كما قال تعالى {إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا} . تفسير السعدي (ص: ١٢٦).

وقال ابن القيم: الأقسام أربعة:

(الذين آتيناهم الكتاب): وهذا لا يذكره سبحانه إلا في معرض المدح.

و (الذين أوتوا نصيبا من الكتاب): لا يكون قط إلا في معرض الذم.

و (الذين أوتوا الكتاب): أعم منه، فإنه قد يتناولهما، ولكن لا يفرد به الممدوحون قط.

و (يا أهل الكتاب): يعم الجنس كله، ويتناول الممدوح منه والمذموم. مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٠٤).

(ذلك بأنهم قالوا لن تمسّنا النار إلا أياما معدودات):

قال ابن عاشور: انعدم اكتراثهم باتباع الحق؛ لأن اعتقادهم النجاة من عذاب الله على كل حال جرأهم على ارتكاب مثل هذا الإعراض. وهذا الاعتقاد مع بطلانه مؤذن أيضا بسفالة همتهم الدينية، فكانوا لا ينافسون في تزكية الأنفس. وعبر عن الاعتقاد بالقول دلالة على أن هذا الاعتقاد لا دليل عليه، وأنه قول مفترى مدلس. التحرير والتنوير (٣/ ٢١١).

(أياما معدودات):

قال برهان الدين الكرماني: قوله {أياما معدودة}، وفي آل عمران {أياما معدودات}؛ لأن الأصل في الجمع إذا كان واحده مذكرا أن يُقتصر في الوصف على التأنيث، نحو قوله: {سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابي مبثوثة}، وقد يأتي: سرر مرفوعات، على تقدير: ثلاث سرر مرفوعة وتسع سرر مرفوعات، إلا أنه ليس بالأصل، فجاء في البقرة على الأصل، وفي آل عمران على الفرع. أسرار التكرار في القرآن (ص: ٧٦).

(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء):

قال ابن كثير: في هذه الآية تنبيه وإرشاد إلى شكر نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وهذه الأمة؛ لأن الله حول النبوة من بني إسرائيل إلى النبي العربي القرشي المكي الأمي خاتم الأنبياء على الإطلاق، ورسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن، الذي جمع الله فيه محاسن من كان قبله، وخصه بخصائص لم يعطِها نبيا من الأنبياء ولا رسولا من الرسل، في العلم بالله وشريعته... وكشفه عن حقائق الآخرة، ونشر أمته في الآفاق، في مشارق الأرض ومغاربها، وإظهار دينه وشرعه على سائر الأديان والشرائع، فصلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين، ما تعاقب الليل والنهار. تفسير ابن كثير (٢/ ٢٩).

وقال السعدي: {تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء} فيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومن تبعهم، ويؤتيه أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وقد فعل، ولله الحمد.

فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله، لا يوجد سبب يستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر.

ومن الأسباب التي جعلها الله سببا لحصول الملك: الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدروا عليها، والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: {وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم} الآية، فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: {هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألّف بين قلوبهم} الآية، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون * وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين}، فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين، والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء، وجعل بأسهم بينهم. تفسير السعدي (ص: ١٢٧).

(بيدك الخير):

قال ابن القيم: وأخطأ من قال: المعنى: بيدك الخير والشر، لثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ليس في اللفظ ما يدل على إرادة هذا المحذوف، بل ترَك ذكره قصدا أو بيانا أنه ليس بمراد.

الثاني: أن الذي بيد الله تعالى نوعان: فضل وعدل، كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: (يمين الله ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق الخلق؟ فإنه لم يغِض ما في يمينه، وبيده الأخرى القسط: يخفض ويرفع)، فالفضل لإحدى اليدين، والعدل للأخرى، وكلاهما خير لا شر فيه بوجه.

الثالث: أن قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك)، كالتفسير للآية، ففرّق بين الخير والشر، وجعل أحدهما في يدي الرب سبحانه، وقطع إضافة الآخر إليه، مع إثبات عموم خلقه لكل شيء. شفاء العليل (ص: ٢٧١).

عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في هذه الآية من آل عمران: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء} إلى آخرها). المعجم الكبير للطبراني (١٢/ ١٧١).

عن معاذ بن جبل، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتقده يوم الجمعة، فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى معاذا فقال له: «يا معاذ، ما لي لم أرك؟» قال: يا رسول الله، ليهودي عليّ أوقية من تبر، فخرجت إليك فحبسني عنك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معاذ، **ألا أعلمك دعاء تدعو** به؟ فلو كان عليك من الدين مثل جبل صبرٍ أداه الله عنك - وصبر جبل باليمن - فادع به يا معاذ قل: اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير، إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار، وتولج النهار في الليل، وتخرج الحي من الميت، وتخرج الميت من الحي، وترزق من تشاء بغير حساب، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، تعطي من تشاء منهما، وتمنع من تشاء، ارحمني رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك). المعجم الكبير للطبراني (٢٠/ ١٥٤).

(لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين...):

قال ابن كثير: نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يوالوا الكافرين، وأن يتخذوهم أولياء يسرون إليهم بالمودة من دون المؤمنين، ثم توعد على ذلك فقال: {ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء} أي: من يرتكب نهي الله في هذا فقد برئ من الله كما قال: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا}، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين}، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} إلى أن قال: {ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل}، وقال تعالى -بعد ذكر موالاة المؤمنين للمؤمنين من المهاجرين والأنصار والأعراب-: {والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير}. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٠).

(إلا أن تتقوا منهم تقاة):

قال الطبري: إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتُظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مُسلم بفعل. تفسير الطبري (٦/ ٣١٣).

وقال ابن تيمية: والتقاة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعل ما أقدر عليه. كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

فالمؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدهم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فبقلبه، مع أنه لا يكذب، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله، بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقا لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه.

وكتمان الدين شيء، وإظهار الدين الباطل شيء آخر. فهذا لم يبحه الله قط إلا لمن أكره، بحيث أبيح له النطق بكلمة الكفر. منهاج السنة النبوية (٦/ ٤٢٣-٤٢٤).

وقال ابن القيم: ومعلوم أن التقاة ليست بموالاة، ولكن لما نهاهم عن موالاة الكفار اقتضى ذلك معاداتهم والبراءة منهم ومجاهرتهم بالعدوان في كل حال، إلا إذا خافوا من شرهم فأباح لهم التقية، وليست التقية موالاة لهم. بدائع الفوائد (٣/ ٦٩).

وقال الزركشي: {إلا أن تتقوا منهم تقاة} في نصبها ثلاثة أوجه مبنية على تفسيرها:

فإن كانت بمعنى الاتقاء فهي مصدر كقوله تعالى: {أنبتكم من الأرض نباتا}.

وإن كانت بمعنى المفعول أي: أمرا يجب اتقاؤه فهي نصب على المفعول به.

وإن كانت جمعا كرام ورماة فهي نصب على الحال. البرهان في علوم القرآن (١/ ٣٠٣).

(ويحذركم الله نفسه):

قال ابن القيم: ومن رحمته بهم: أن حذّرهم نفسه، لئلا يغتروا به، فيعاملوه بما لا تحسن معاملته به كما قال تعالى: {ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد}. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٧٥).

وقال أيضا: كان الإسلام في بدايته كالنطفة فاقتنع بكلمة التوحيد، فلما نُفخ فيه الروح احتاج إلى الغذاء ففرضت الصلاة، فلما تحرّك وجبت الهجرة، فلما اشتدّ وجبت الزكاة، فلما قربت الولادة لزم الحج، فلما ظهر طفلا حبا بلطف (يريد الله بكم اليسر)، فلما خاف من الزلل والعقاب جاءت بشارة (لا تقنطوا)، فلما ترعرع قال المؤدب: (من يعمل سوءا يجز به)، فلما بلغ أشده واستوى جاء (ويحذركم الله نفسه). بدائع الفوائد (٣/ ٢٣٨).

(قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله):

قال ابن كثير: يخبر تبارك وتعالى عباده أنه يعلم السرائر والضمائر والظواهر، وأنه لا يخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في سائر الأحوال والآنات واللحظات وجميع الأوقات، وبجميع ما في السماوات والأرض، لا يغيب عنه مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك، في جميع أقطار الأرض والبحار والجبال، وهو {على كل شيء قدير} أي: قدرته نافذة في جميع ذلك. وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم، وهو قادر على معاجلتهم بالعقوبة، وإن أنظر من أنظر منهم، فإنه يمهل ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر. تفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

وقال السعدي: فيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت، فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه محلا لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو تصور وبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصح لعباد الله. تفسير السعدي (ص: ١٢٨).

(ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير):

قال ابن عاشور: إعلام بأنه مع العلم ذو قدرة على كل شيء، وهذا من التهديد إذ المهدد لا يحول بينه وبين تحقيق وعيده إلا أحد أمرين: الجهل بجريمة المجرم، أو العجز عنه، فلما أعلمهم بعموم علمه، وعموم قدرته، علموا أن الله لا يفلتهم من عقابه. التحرير والتنوير (٣/ ٢٢٢).

وقال السيوطي: قوله في سورة البقرة: {هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم} وفي آل عمران: {قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه

يعلمه الله ويعلم ما في السماوات وما في الأرض والله على كل شيء قدير} فإن المتبادر إلى الذهن في آية البقرة الختم بالقدرة وفي آية آل عمران الختم بالعلم.

والجواب: أن آية البقرة لما تضمنت الإخبار عن خلق الأرض وما فيها على حسب حاجات أهلها ومنافعهم ومصالحهم، وخلْق السماوات خلقا مستويا محكما من غير تفاوت، والخالق على الوصف المذكور يجب أن يكون عالما بما فعله كليا وجزئيا مجملا ومفصلا ناسب ختمها بصفة العلم.

وآية آل عمران لما كانت في سياق الوعيد على موالاة الكفار، وكان التعبير بالعلم فيها كناية عن المجازاة بالعقاب والثواب ناسب ختمها بصفة القدرة. الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٣٥٢-٣٥٣).

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا...):

قال ابن كثير: يوم القيامة يُحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر، كما قال تعالى: {ينبؤ الإنسان يومئذ بما قدم وأخّر}، فما رأى من أعماله حسنا سرّه ذلك وأفرحه، وما رأى من قبيح ساءه وغاظه، وودّ لو أنه تبرأ منه، وأن يكون بينهما أمد بعيد، كما يقول لشيطانه الذي كان مقترنا به في الدنيا، وهو الذي جرّأه على فعل السوء: {يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين}. تفسير ابن كثير (٢/ ٣١).

وقال ابن الجوزي: يا من بين يديه يوم لا شك فيه ولا مِرَا، يقع فيه الفراق وتنفصم العُرَى، تدبر أمرك قبل أن تُحضَر فترى، وانظر لنفسك نظر من قد فهم ما جرى، قبل أن يغضب الحاكم والحاكم رب الورى، {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا}. يوم تشيب فيه الأطفال، يوم تسير فيه الجبال، يوم تظهر فيه الوبال، يوم تنطق فيه الأعضاء بالخصال، يوم لا تقال فيه الأعثار، وكم من أعذار تقال فترى من قد افترى، يقدم قدما ويؤخر أخرى {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا}. فينصب الصراط فناج وواقع، ويوضع الميزان فتكثر الفظائع، وتنشر الكتب وتسيل المدامع، وتظهر القبائح بين تلك المجامع، ويؤلم العقاب وتملى المسامع، ويخسر العاصي ويربح الطائع، فكم غني قد عاد من الخير مفتقرا {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا}. التبصرة لابن الجوزي (١/ ٧٩).

وقال السعدي: {وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدًا} أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان، قبل أن يقول {يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله}، {يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول

لو تسوى بهم الأرض}، {ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانًا خليلا}، {حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين}، فوالله لترْكُ كل شهوة ولذة وإن عسر تركها على النفس في هذه الدار أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكنّ العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور، فيُقْدم على ما ينفعه عاجلا وآجلا، ويُحجم عن ما يضره عاجلا وآجلا. تفسير السعدي (ص: ١٢٨).

سبب نزول: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله...):

قال ابن الجوزي: في سبب نزولها أربعة أقوال:

أحدها: أن النبي صلى الله عليه وسلم، وقف على قريش، وقد نصبوا أصنامهم. فقالوا: يا محمد إنما نعبد هذه حبا لله، ليقربونا إلى الله زلفى، فنزلت هذه الآية، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثاني: أن اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، فنزلت هذه الآية، فعرضها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم، فلم يقبلوها، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: أن ناسا قالوا: إنا لنحب ربنا حبا شديدا، فأحب الله أن يجعل لحبه علما، فأنزل هذه الآية، قاله الحسن، وابن جريج.

والرابع: أن نصارى نجران، قالوا: إنما نقول هذا في عيسى حبا لله وتعظيما له، فنزلت هذه الآية. زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٧٣).

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله...):

قال ابن تيمية: جعل محبة العبد لربه موجبة لاتباع الرسول، وجعل متابعة الرسول سببا لمحبة الله عبده. مجموع الفتاوى (١/ ٥).

وقال أيضا: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} وهذا لأن الرسول هو الذي يدعو إلى ما يحبه الله، وليس شيء يحبه الله إلا والرسول يدعو إليه، وليس شيء يدعو إليه الرسول إلا والله يحبه، فصار محبوب الرب ومدعو الرسول متلازمين، بل هذا هو هذا في ذاته وإن تنوعت الصفات.

فكل من ادعى أنه يحب الله ولم يتبع الرسول فقد كذب، ليست محبته لله وحده، بل إن كان يحبه فهي محبة شرك، فإنما يتبع ما يهواه، كدعوى اليهود والنصارى محبة الله، فإنهم لو أخلصوا له المحبة لم يحبوا إلا ما أحب، فكانوا يتبعون الرسول، فلما أحبوا ما أبغض الله مع دعواهم حبه كانت محبتهم من جنس محبة المشركين.

وهكذا أهل البدع فمن قال: إنه من المريدين لله المحبين له وهو لا يقصد اتباع الرسول والعمل بما أمر به وترك ما نهى عنه فمحبته فيها شوب من محبة المشركين واليهود والنصارى بحسب ما فيه من البدعة. فإن البدع التي ليست مشروعة وليست مما دعا إليه الرسول لا يحبها الله، فإن الرسول دعا إلى كل ما يحبه الله، فأمر بكل معروف ونهى عن كل منكر. مجموع الفتاوى (٨/ ٣٦٠-٣٦١).

وقال ابن كثير: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)، ولهذا قال: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تحِب، إنما الشأن أن تحَب. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).

(قل أطيعوا الله والرسول...):

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قالوا: يا رسول الله، ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». صحيح البخاري (٩/ ٩٢).

عن جابر بن عبد الله: (جاءت ملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: إن لصاحبكم هذا مثلا، فاضربوا له مثلا، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: مثله كمثل رجل بنى دارا، وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المأدبة، ومن لم يجب الداعي لم يدخل

الدار ولم يأكل من المأدبة، فقالوا: أولوها له يفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: الدار الجنة، والداعي محمد صلى الله عليه وسلم، فمن أطاع محمدا صلى الله عليه وسلم فقد أطاع الله، ومن عصى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد عصى الله، ومحمد صلى الله عليه وسلم فرق بين الناس. صحيح البخاري (٩/ ٩٣).

قال السعدي: كأن في هذه الآية الكريمة بيانا وتفسيرا لاتّباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي. تفسير السعدي (ص: ١٢٨).

(فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين):

قال ابن كثير: {فإن الله لا يحب الكافرين} دل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك، وإن ادعى وزعم في نفسه أنه يحب الله ويتقرب إليه، حتى يتابع الرسول النبي الأمي خاتم الرسل، ورسول الله إلى جميع الثقلين الجن والإنس الذي لو كان الأنبياء -بل المرسلون، بل أولو العزم منهم- في زمانه لما وسعهم إلا اتباعه، والدخول في طاعته، واتباع شريعته. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ٢٣-٣٢

١- القرآن نعمة عظيمة من الله، ومن شكر هذه النعمة أن تحكّم كتاب الله في أمورك كلها، ولا تتولّ عن أحكامه وشرائعه لهوى في نفسك وأنت مُعرض، فتقع في مشابهة فريق من أهل الكتاب، فيزيغ قلبك وتضلّ عن سواء السبيل (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يُدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولّى فريق منهم وهم معرضون).

٢- لا تدّعِ لنفسك مقاما عاليا في الصلاح والاستقامة، ولا ضمانا لدخول الجنة، ولا ثقة بالنجاة من النار، فتكون مغرورا معجبًا بنفسك، فيؤدي بك ذلك إلى التفريط في المأمورات، والتساهل في المنهيات، والرضا بالقليل من الصالحات، بل كن خائفا من عذاب الله، خائفا من ذنوبك، خائفا من تقصيرك وتفريطك، راجيا ثواب الله وجنته، محسنا للظن بربك (ذلك بأنهم قالوا لن تمسّنا النار إلا أياما معدودات وغرّهم في دينهم ما كانوا يفترون).

٣- اجعل ذكرَ يوم القيامة نصب عينيك دائما، وما فيه من أهوال وشدائد، وحساب وجزاء، وجنة ونار، ليكون ذلك حافزا لك في فعل الطاعات، زاجرا لك عن المعاصي والمنكرات، وابتعد اليوم عن المعاصي قبل أن تتمنى أن تبتعد هي عنك يوم القيامة ولات حين مناص (فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)، (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا).

٤- الله سبحانه هو الذي يُعطي من يشاء ويمنع من يشاء، ويُعزّ من يشاء ويُذلّ من يشاء، ويرفع من يشاء ويخفض من يشاء، والعطاء والعزة والرفعة الحقيقية هي الرفعة في الآخرة، وأما الدنيا فإن الله يُعطيها من يُحب ومن لا يُحب، فاحرص على ما يحقق لك العزة الأخروية، واسأل الله من فضله في الدنيا والآخرة (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير).

٥- الله سبحانه بيده الخير، وهو على كل شيء قدير، ويرزق من يشاء بغير حساب، فاسأله أن يستعملك في الخير، واسأله من واسع فضله قائلا: (اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما

علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما علمت منه وما لم أعلم). (بيدك الخير إنك على كل شيء قدير)، (وترزق من تشاء بغير حساب).

٦- احذر من اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، واعلم أنك إن فعلت ذلك فالله بريء منك، بل مقتضى الإيمان أن تعادي الكافرين وتبغضهم لكفرهم بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ولا يعني ذلك الاعتداء عليهم أو ظلمهم أو عدم التعامل الدنيوي معهم، ولا يمنع ذلك أيضا من معاملتهم بالأخلاق الحسنة رجاء هدايتهم (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء).

٧- من عاش تحت سلطان الكفار وخاف على نفسه منهم ومن شرّهم وأذاهم فله أن يُظهر لهم اللين واللطف في التعامل بأقواله وأفعاله، مع بغضهم بقلبه، وليحذر من موافقتهم على ما هم عليه من الكفر، أو إعانتهم على مسلم بقول أو فعل (ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة).

٨- (ويحذّركم الله نفسه) اجعلها نصب عينيك دائما، فاحذر غضب الله وعقابه، واحذر قوة الله وجبروته، واحذر علم الله واطّلاعه، واعلم أن الله مطّلع على ما في قلبك من الإخلاص واليقين والتوكل أو عدمها، فراقب الله وأصلح قلبك، حينها تستقيم حياتك (قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله).

٩- الابتلاء الحقيقي لمحبتك لله: اتّباعك للنبي صلى الله عليه وسلم، فكلّما كنت أتبع له كانت محبتك أعلى وأوثق، فاحرص على تعلّم سنّته وهديه حتى تكون أكثر اتّباعا له، فتظفرَ بمحبة الله لك ومغفرته لذنوبك، وما أعظمها من مرتبة، وأجلّها من منزلة، وأسماها من غاية، فتلك التي شمّر إليها المشمّرون، (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) (قل إن كنتم تحبون الله فاتّبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولّوا فإن الله لا يحب الكافرين).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (٣٣-٤١) من التفسير الميسّر

إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣)

إن الله اختار آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران، وجعلهم أفضل أهل زمانهم.

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)

هؤلاء الأنبياء والرسل سلسلة طُهْر متواصلة في الإخلاص لله وتوحيده والعمل بوحيه. والله سميع لأقوال عباده، عليم بأفعالهم، وسيجازيهم على ذلك.

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥)

اذكر -أيها الرسول- ما كان من أمر مريم وأمها وابنها عيسى عليه السلام؛ لتردَّ بذلك على من ادعوا أُلوهية عيسى أو بنوَّته لله سبحانه، إذ قالت امرأة عمران حين حملت: يا ربِّ إني جعلت لك ما في بطني خالصا لك، لخدمة «بيت المقدس» ، فتقبَّل مني؛ إنك أنت وحدك السميع لدعائي، العليم بنيتي.

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦)

فلما تمَّ حملها ووضعت مولودها قالت: ربِّ إني وضعتها أنثى لا تصلح للخدمة في «بيت المقدس» -والله أعلم بما وضَعَتْ، وسوف يجعل الله لها شأنًا- وقالت: وليس الذكر الذي أردت للخدمة كالأنثى في ذلك؛ لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقْوَم بها، وإني سمَّيتها مريم، وإني حصَّنتها بك هي وذريَّتها من الشيطان المطرود من رحمتك.

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)

فاستجاب الله دعاءها وقبل منها نَذْرها أحسن قَبول، وتولَّى ابنتها مريم بالرعاية فأنبتها نباتًا حسنًا، ويسَّر الله لها زكريا عليه السلام كافلا فأسكنها في مكان عبادته، وكان كلَّما دخل عليها هذا المكان وجد عندها رزقًا

هنيئًا معدّاً قال: يا مريم من أين لكِ هذا الرزق الطيب؟ قالت: هو رزق من عند الله. إن الله –بفضله– يرزق مَن يشاء مِن خلقه بغير حساب.

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨)

عندما رأى زكريا ما أكرم الله به مريم مِن رزقه وفضله توجه إلى ربه قائلا يا ربِّ أعطني من عندك ولدًا صالحًا مباركًا، إنك سميع الدعاء لمن دعاك.

فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩)

فنادته الملائكة وهو واقف بين يدي الله في مكان صلاته يدعوه: أن الله يخبرك بخبر يسرُّك، وهو أنك سترزق بولد اسمه يحيى، يُصَدِّق بكلمة من الله –وهو عيسى بن مريم عليه السلام–، ويكون يحيى سيدًا في قومه، له المكانة والمنزلة العالية، وحصورًا لا يأتي الذنوب والشهوات الضارة، ويكون نبيّا من الصالحين الذين بلغوا في الصَّلاح ذروته.

قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠)

قال زكريا فرحًا متعجبًا: ربِّ أنَّى يكون لي غلام مع أن الشيخوخة قد بلغت مني مبلغها، وامرأتي عقيم لا تلد؟ قال: كذلك يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة المخالفة للعادة.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)

قال زكريَّا: رب اجعل لي علامةً أستدلُّ بها على وجود الولد مني؛ ليحصل لي السرور والاستبشار، قال: علامتك التي طلبتها: ألا تستطيع التحدث إلى الناس ثلاثة أيام إلا بإشارة إليهم، مع أنك سويٌّ صحيح، وفي هذه المدة أكثِرْ من ذكر ربك، وصلِّ له أواخر النهار وأوائله.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (٣٣-٤١)

الكلمة	المعنى
اصْطَفى	اختار
نذرت لك	أوجبت على نفسي لك
مُحرّرا	خالصًا لعبادتك ولخدمة بيت المقدس
أُعِيذُها	أُحصِّنُها
الرّجِيم	المطرود من رحمة الله
وكَفَّلَهَا	جعله كافلا وحاضِنا لها
المِحْرَاب	مكان العبادة
أنّى	مِن أَين؟
مُصدّقا بِكلِمة من الله	يُصدّق بعيسى عليه السلام الذي خُلِق بكلمة (كُن) بلا أب
وحَصُورًا	ولا يقرب الذنوب والشهوات
عاقِر	عقيم لا تلد
آية	علامة على وجود الولد منّي
ألّا تُكلِّم النّاس	أن تعجز عن تكليمهم بغير آفة
إلا رَمْزًا	إلا إِشَارَة
بِالعَشِيّ	آخر النهار
والإِبكَار	أول النهار

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ٣٣-٤١

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الثالثة والثلاثين وحتى الآية الحادية والأربعين.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى (إن الله اصطفى آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) هل يصح الوقف على شيءٍ منها؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران) هي كلماتٌ معطوفاتٌ على بعض، فلا يصح الفصل بينها، والآية جملةٌ مكونةٌ من (إنّ) واسمها وخبرها، فلا يصح الوقف في شيءٍ منها.

الآية التي تليها: (ذريةً بعضها من بعض) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، ونص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (والله سميعٌ عليمٌ) جملةٌ مستأنفةٌ فصح الوقف قبلها والابتداء بها.

الآية التي تليها: (إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررًا) هل يصح الوقف هنا؟

نص الأشموني رحمه الله على أن الوقف هنا جائزٌ لكنه لا يستحسن، يعني خلاف الأولى، ولم ينص على الوقف هنا بقية علماء الوقف والابتداء، وهو الصحيح؛ لأن قوله (فتقبل مني) الفاء هنا عاطفةٌ لربط المسبَّب بالسبب، فهي تدعو الله وتقول: إني نذرت لك ما في بطني محررًا فتقبل مني هذا النذر، فهو من تتمة دعائها لفظًا، فلا يصح الفصل هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فتقبل مني) قبل (إنك أنت السميع العليم)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنك) مبدوءةٌ بـ (إنّ) التي يصح الابتداء بها عادةً، وإذا تأملنا فإن قوله (إنك أنت السميع العليم) هو من تتمة قول امرأة عمران، من تتمة دعائها، وهو توسلٌ منها إلى الله سبحانه وتعالى بكونه سميعًا عليمًا حتى يتقبل دعاءها الذي دعت به حين قالت (فتقبل مني)، فالقبول مرتبطٌ بسمع الله سبحانه وتعالى لدعائها سمع استجابةٍ، كذلك اشتملت الجملة على كاف الخطاب الموجه إلى الله سبحانه وتعالى في قوله (إنك) بعد أن قالت (فتقبل) يعني: أنت سبحانك، فهو تتمة خطابٍ، واشتملت الجملة على ضميرٍ راجعٍ إلى الله سبحانه وتعالى، فالأولى هنا عدم الوقف مع جوازه، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى) هل يصح الوقف هنا؟

نص جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء على أن الوقف هنا صحيحٌ على قراءة (والله أعلم بما وضعَتْ) لأن قوله (والله أعلم بما وضعتْ) من كلام الله سبحانه وتعالى على هذه القراءة، وما قبله من كلام أم مريم حين قالت (ربِّ إني وضعتها أنثى) فصح الفصل بينهما، ولا يصح الوقف على قراءة (والله أعلم بما وضعْتُ) لأن الجملة تصير من كلام أم مريم، بعد أن قالت (رب إني وضعتها أنثى) قالت (والله أعلم بما وضعتُ)، فلم يصح الوقف على هذه القراءة.

وهل يصح الوقف على قوله (والله أعلم بما وضعَتْ)؟

نص على الوقف هنا الهبطي والسجاوندي وجوزه الأشموني، وبين الأشموني أن التجويز هنا على قراءة سكون التاء يعني (بما وضعتْ)، بينما لا يصح الوقف على قراءة ضم التاء (بما وضعتُ)، ووجهه أنه على قراءة (والله أعلم بما وضعتْ) تكون هذه الجملة جملةً معترضةً بين كلام أم مريم، فأم مريم قالت (رب إني وضعتها أنثى)، (وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) وجاء قوله (والله أعلم بما وضعتْ) جملةً معترضةً في وسط كلام أم مريم، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

ومن العلماء من جعل (والله أعلم بما وضعتْ وليس الذكر كالأنثى) كله جملة معترضة ليس من كلام أم مريم، وإنما هو من كلام الله سبحانه وتعالى، وبناءً على هذا القول صححوا الوقف على قوله (وليس الذكر كالأنثى) والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وإني سميتها مريم)؟

صحح الوقف هنا الهبطي وجوزه الأنصاري، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قولها (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) جملةٌ معطوفةٌ على قولها (وإني سميتها مريم)، وهي جملةٌ معطوفةٌ على قولها (إني وضعتها أنثى)، وهذه الجمل المعطوفات كل جملةٍ قائمةٌ بنفسها، فأم مريم قالت (إني وضعتها أنثى) هذا هو الخبر الأول، ثم قالت (إني سميتها مريم) تسميتها، ثم طلبت طلبًا قالت (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)، فهي جملٌ ليس بينها ارتباطٌ لفظيٌ يمنع من الفصل بينها، فالوقف هنا له وجهٌ، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فتقبلها ربها بقبولٍ حسنٍ وأنبتها نباتًا حسنًا) هل يصح الوقف هنا؟

نص جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء على أن الوقف هنا يختلف باختلاف القراءات، فعلى قراءة تشديد الكاف في قوله (وكفّلها زكريا) لا يصح الوقف، وعلى قراءة تخفيف الفاء (وكفَلها زكريا) يصح الوقف، ووجه ذلك أنه

على قراءة التشديد صارت جمل معطوفات فاعلها الله سبحانه وتعالى، قال (فتقبلها ربها) (وأنبتها) يعني ربها (وكفّلها) يعني ربها، فقد اشتملت الجملة على ضميرٍ عائدٍ على الله سبحانه وتعالى.

أما على قراءة التخفيف (وكفَلها زكريا) فإنها جملةٌ مستقلةٌ فاعلها زكريا يعني: وكفل زكريا مريم، وليس فيها ضميرٌ عائدٌ على الله سبحانه وتعالى، فصح الفصل على هذه القراءة، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر ويعقوب.

وهل يصح الوقف على قوله (وكفّلها زكريا)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن هذه الجمل المعطوفات سواءً على قراءة تشديد الفاء أو تخفيفها قد انتهت، ثم ذكر موقفًا كان يحصل لزكريا عليه السلام حين دخوله على مريم، حين قال (كلما دخل عليها زكريا المحراب)، وهي جملةٌ متضمنةٌ معنى الشرط، فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وجد عندها رزقًا)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت، (كلما دخل عليها زكريا المحراب) الجواب (وجد عندها رزقًا)، ثم بدأ قول زكريا وسؤاله لمريم عن هذه الحال حين قال (يا مريم أنى لك هذا) فصح الفصل هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قال يا مريم أنى لك هذا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قول زكريا عليه السلام قد انتهى، ثم ابتدأ جواب مريم على قوله حين قالت (هو من عند الله)، فصح الفصل بين قوله وقولها.

وهل يصح الوقف على قوله (قالت هو من عند الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ما بعده جملة مستأنفة في قوله (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب)، واختلفوا هنا هل هذه الجملة من تتمة قول مريم أو أنها من قول الله سبحانه وتعالى تعقيبًا على قول مريم حين قالت (هو من عند الله)؟ فعلى القول بأنها من تتمة قول مريم الوصل أولى، وعلى القول بأنها من قول الله سبحانه وتعالى الوقف أولى، ويصح الوقف على كلا الوجهين؛ لأن جملة (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب) جملةٌ قائمةٌ بنفسها ليس فيها ضميرٌ أو تقديرٌ أو حذفٌ يعود إلى جملةٍ سابقةٍ أو لاحقةٍ، فصح الوقف على كلا القولين، والله أعلم.

الآية التي تليها: (هنالك دعا زكريا ربه) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه عندهم أن الجملة التي بعدها جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًا للدعاء الذي أُجمل في هذه الجملة الأولى، يعني: لما سمع زكريا قول مريم (هو من عند الله) دعا ربه، ثم ذكر الله هذا الدعاء تفصيلاً فقال: (قال رب هب لي من لدنك ذريةً طيبةً)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ذريةً طيبةً)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده (إنّ) التي يصح الابتداء بها عادةً، لكن (إنّ) هنا هي من تتمة دعاء زكريا عليه السلام، ثم إن هذه الجملة قد اشتملت على وسيلة طلب هذا الدعاء (إنك سميع الدعاء)، فهو يتوسل بكون الله سميعًا للدعاء سمع استجابةٍ أن يتقبل دعاءه، ثم إن الجملة اشتملت على كاف الخطاب العائد على الله سبحانه وتعالى، وهذا كله يدل على أن الوصل هنا أولى، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلى في المحراب) هل يصح الوقف هنا؟

نص جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء على أن الوقف هنا يختلف باختلاف القراءات، فعلى قراءة الفتح (أن الله يبشرك) وهي قراءة الجمهور لا وقف، لأن (أنّ) لا يُبتدأ بها في الكلام، فلا يصح الوقف قبلها والابتداء بها، وعلى قراءة (إن الله يبشرك) كما هي قراءة ابن عامر وحمزة يصح الوقف هنا، لأن (إنّ) لها الصدارة في جملتها فيصح الابتداء بها عادةً، فتكون الجملة على تقدير: قالوا إن الله يبشرك بيحيى، وإن كان السجاوندي رحمه الله منع من الوقف هنا حتى على قراءة الكسر، لأن من كسر جعل النداء بمعنى القول، يعني (فنادته الملائكة) أي: فقالت له الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك، فهو من ذكر قول الملائكة الذي أشير إليه في قوله (فنادته)، فلم يصحح الوقف هنا، ولعل هذا هو الأوجه، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (مصدقًا بكلمةٍ من الله)؟

الجواب: لا يصح، ونص عليه النحاس، ووجهه أن قوله (وسيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين) هي كلماتٌ مفردةٌ معطوفةٌ على قوله (مصدقًا) ولا يصح الفصل بين الكلمات المعطوفات، والله أعلم.

الآية التي تليها: (قال رب أنى يكون لي غلام) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (وقد بلغني الكبر) جملةٌ حاليةٌ، يعني: والحال أنه قد بلغني الكبر فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وامرأتي عاقرٌ)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قول زكريا عليه السلام قد انتهى هنا، ثم ابتدأ جواب الله سبحانه وتعالى له في قوله (قال كذلك الله يفعل ما يشاء)، فصح الوقف هنا للفصل بين القولين.

الآية التي تليها: (قال رب اجعل لي آية) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قول زكريا عليه السلام قد انتهى، ثم ابتدأ جواب الله له في قوله (قال آيتك ألا تكلم الناس) إلى آخر الجملة، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثلاثة أيامٍ إلا رمزًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جواب سؤال زكريا قد انتهى هنا، فهو سأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل له آية، فأخبره الله أن الآية أنه لن يستطيع أن يكلم الناس ثلاثة أيامٍ إلا بالإشارة، ثم أمره بأمرٍ عامٍ ووصيةٍ عامةٍ في قوله (واذكر ربك كثيرًا وسبح بالعشي والإبكار) فصح الفصل بين الجواب وبين الأمر العام، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (واذكر ربك كثيرًا)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (وسبح بالعشي والإبكار) هو من الذكر، فجملة (وسبح بالعشي والإبكار) وإن كانت جملةً معطوفةً على جملةٍ سابقةٍ إلا أنها من تتمة بيان الجملة السابقة، فالعطف هنا وثيق الصلة، فكأنه قال: اذكر ربك كثيرًا بتسبيحه بالعشي والإبكار، فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ٣٣-٤١

(إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين):

قال السعدي: اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: {ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا}.

واصطفى نوحا فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاءه واجتباءه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيفان، ودعا إلى ربه ليلا ونهارا وسرا وجهارا، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق صلى الله عليه وسلم الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم.

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلهذا قال تعالى {ذرية بعضها من بعض}. تفسير السعدي (ص: ١٢٨-١٢٩).

وقال أيضا: ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نحبهم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وألّا نزال نزري أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضا من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فلله ما أعظم جوده وكرمه

وأكثر فوائد معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكارهم مخلدة ومناقبهم مؤبدة لكفى بذلك فضلا. تفسير السعدي (ص: ١٢٩).

وقال ابن تيمية: لفظ آل فلان إذا أطلق في الكتاب والسنة دخل فيه فلان. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ١٩٥).

كما قالت الملائكة: {رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت} وإبراهيم فيهم.

وكما قال: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم»، وإبراهيم داخل فيهم.

وكما في قوله تعالى: {إلا آل لوط نجيناهم}، فإن لوطا دخل فيهم.

وكذلك قوله: {إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين}، فقد دخل إبراهيم في الاصطفاء.

وكذلك قوله: {سلام على إل ياسين} فقد دخل ياسين في السلام. منهاج السنة النبوية (٧/ ٢٤١-٢٤٢).

وقال أيضا: محمد صلى الله عليه وسلم هو من آل إبراهيم، كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: {إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين}، قال ابن عباس: محمد من آل إبراهيم. وهذا بين؛ فإنه إذا دخل غيره من الأنبياء في آل إبراهيم، فهو أحق بالدخول فيهم. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ١٩٨).

(وليس الذكر كالأنثى):

قال ابن القيم: الله سبحانه فضل الذكر على الأنثى، كما قال: {وليس الذكر كالأنثى}، ومقتضى هذا التفاضل ترجيحه عليها في الأحكام، وقد جاءت الشريعة بهذا التفضيل في جعل الذكر كالأنثيين في الشهادة والميراث والدية، كذلك ألحقت العقيقة بهذه الأحكام. زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/ ٣٠٢).

وقال الزركشي: الأصل وليس الأنثى كالذكر، وإنما عدل عن الأصل لأن معنى: {وليس الذكر} الذي طلبَتْ {كالأنثى} التي وُهبَت لها؛ لأن الأنثى أفضل منه، وقيل: لمراعاة الفواصل لأن قبله: {إني وضعتها أنثى}. البرهان في علوم القرآن (٣/ ٤٢٦)

(وإني سميتها مريم):

قال ابن كثير: فيه دلالة على جواز التسمية يوم الولادة كما هو الظاهر من السياق؛ لأنه شرع من قبلنا، وقد حكي مقررا، وبذلك ثبتت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: (وُلد لي الليلة ولد سميته باسم أبي إبراهيم). أخرجاه.

وكذلك ثبت فيهما أن أنس بن مالك ذهب بأخيه، حين ولدته أمه، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحنكه وسماه عبد الله.

وفي صحيح البخاري: أن رجلا قال: يا رسول الله، ولد لي ولد، فما أسميه؟ قال: (أسم ولدك عبد الرحمن).

وثبت في الصحيح أيضا: أنه لما جاءه أبو أسيد بابنه ليحنكه، فذَهل عنه، فأمر به أبوه فرده إلى منزلهم، فلما ذَكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس سماه المنذر. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣-٣٤).

(وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم):

قال ابن كثير: أي: عوذتها بالله، عز وجل، من شر الشيطان، وعوذت ذريتها، وهو ولدها عيسى، عليه السلام. فاستجاب الله لها ذلك كما قال... رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان حين يولد، فيستهل صارخا من مسه إياه، إلا مريم وابنها). ثم يقول أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: {وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم} أخرجاه...

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم). ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: {وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم}...

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين تلده أمه، إلا عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن في الحجاب). تفسير ابن كثير (٢/ ٣٤-٣٥).

(وكفّلها زكريا):

قال ابن كثير: أي جعله كافلا لها. قال ابن إسحاق: وما ذاك إلا أنها كانت يتيمة. وذكر غيره أن بني إسرائيل أصابتهم سنة جدب، فكفل زكريا مريم لذلك. ولا منافاة بين القولين. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥).

وقال ابن تيمية: هذه مريم احتاجت إلى من يكفلها ويحضنها حتى اقترعوا على كفالتها، فكيف بمن سواها من النساء؟ وهذا أمر يعرف بالتجربة: أن المرأة تحتاج من الحفظ والصيانة إلى مالا يحتاج إليه الصبي، وكلما كان أستر لها وأصون كان أصلح لها. مختصر الفتاوى المصرية (ص: ٦٢٨).

(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا):

قال ابن كثير: قال مجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، وأبو الشعثاء، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وقتادة، والربيع بن أنس، وعطية العوفي، والسدي والشعبي، يعني: وجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف... وفيه دلالة على كرامات الأولياء. وفي السنة لهذا نظائر كثيرة. تفسير ابن كثير (٢/ ٣٦).

عن ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله عز وجل: {إني نذرت لك ما في بطني محررا} تلا إلى قوله {وجد عندها رزقا} قال: كفلها زكريا فدخل عليها المحراب، فوجد عندها عنبا في مكتل في غير حينه، قال زكريا: {أنى لك هذا قالت هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب} قال: إن الذي يرزقك العنب في غير حينه لقادر أن يرزقني من العاقر الكبير العقيم ولدا، {هنالك دعا زكريا ربه} فلما بشر بيحيى قال: {رب اجعل لي آية قال: آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا}، قال: يعتقل لسانك من غير مرض وأنت سوي. المستدرك على الصحيحين للحاكم (٢/ ٣١٩).

عن ابن عباس قال: لما رأى ذلك زكريا - يعني فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف - عند مريم قال: إنّ الذي يأتي بهذا مريمَ في غير زمانه، قادرٌ أن يرزقني ولدًا، قال الله عز وجل: (هنالك دعا زكريا ربه)، قال: فذلك حين دعا. تفسير الطبري (٦/ ٣٦١)

(هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة):

قال ابن تيمية: ما يعطيه الله للعبد على وجهين:

منه ما يكون بسبب فعله، كالرزق الذي يرزقه بكسبه، والسيئات التي تغفر له بالحسنات الماحية لها، والولد الذي يرزقه بالنكاح المعتاد، والعلم الذي يناله بالتعلم المعهود، والرحمة التي تصيبه بالأسباب التي يفعلها.

ومنه ما يعطيه للعبد ولا يحوجه إلى السبب الذي ينال به في غالب الأمر، كما أعطى زكريا الولد مع أن امرأته كانت عاقرا، وكان قد بلغ من الكبر عتيا، فهذا الولد وهبه الله من لدنه لم يهبه بالأسباب المعتادة، فإن العادة لا تحصل بهذا الولد، وكذلك العلم الذي علمه الخضر من لدنه لم يكن بالتعلم المعهود...

إن للأشياء وجهين: منها ما جعل سببا من العبد يوفيه عليه، ومنها ما يفعله بدون ذلك السبب، بل إجابة لسؤاله وإحسانا إليه. واستعمال لفظ "من عندك" في هذا المعنى هو المناسب... ولهذا يقول الرجل لما يطلبه: "أعطني من عندك" لما يطلبه منه بغير سبب، بخلاف ما يطلبه من الحقوق التي عليه كالدين والنفقة، فإنه لا يقال فيه "من عندك". جامع المسائل لابن تيمية (٤/ ٦٦-٦٨).

(ذرية طيبة):

قال القرطبي: زكريا عليه السلام تحرز فقال: (ذرية طيبة) وقال: (واجعله رب رضيا). والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه في الدنيا والآخرة، وخرج من حد العداوة والفتنة إلى حد المسرة والنعمة، وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأنس خادمه فقال: (اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته)، فدعا له بالبركة تحرزا مما يؤدي إليه الإكثار من الهلكة. وهكذا فليتضرع العبد إلى مولاه في هداية ولده، ونجاته في أولاه وأخراه اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء. تفسير القرطبي (١١/ ٨٠).

(فنادته الملائكة...):

قال ابن جرير: الصّواب من القول في تأويله، أنْ يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر أنّ الملائكة نادته. والظاهرُ من ذلك، أنها جماعة من الملائكة دون الواحد، وجبريلُ واحد. ولا يجوز أن يحمل تأويل القرآن إلا على الأظهر الأكثر من الكلام المستعمل في ألسن العرب، دون الأقل = ما وُجِد إلى ذلك سبيل. ولم تَضطَّرنا

حاجةٌ إلى صرف ذلك إلى أنه بمعنى واحد، فيحتاج له إلى طلب المخرج بالخفيّ من الكلام والمعاني. وبما قلنا في ذلك من التأويل قال جماعة من أهل العلم. تفسير الطبري (٦/ ٣٦٥).

(أن الله يبشّرك بيحيى):

قال ابن القيم: ولما كانت البشارة تسر العبد وتفرحه استحب للمسلم أن يبادر إلى مسرة أخيه وإعلامه بما يفرحه... فإن فاتته البشارة استحب له تهنئته، والفرق بينهما: أن البشارة إعلام له بما يسره، والتهنئة دعاء له بالخير فيه بعد أن علم به. تحفة المودود بأحكام المولود (ص: ٢٨).

(وحصورا):

قال البغوي: والحصور في قول ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وعطاء والحسن: الذي لا يأتي النساء ولا يقربهن، وهو على هذا القول، فعول بمعنى فاعل، يعني: أنه يحصر نفسه عن الشهوات.
وقال سعيد بن المسيب: هو العنين الذي لا ماء له، فيكون الحصور بمعنى المحصور، يعني: الممنوع من النساء، قال سعيد بن المسيب: كان له مثل هدبة الثوب، وقد تزوج مع ذلك ليكون أغض لبصره.
وفيه قول آخر: إن الحصور هو الممتنع من الوطء مع القدرة عليه، واختار قوم هذا القول لوجهين، أحدهما: لأن الكلام خرج مخرج الثناء، وهذا أقرب إلى استحقاق الثناء. والثاني: أنه أبعد من إلحاق الآفة بالأنبياء. تفسير البغوي (١/ ٤٣٧).

(وقد بلغني الكبر):

قال البغوي: هذا من المقلوب، أي: وقد بلغت الكبر وشخت، كما تقول: بلغني الجهد، أي: أنا في الجهد، وقيل: معناه: وقد نالني الكبر وأدركني وأضعفني. تفسير البغوي (١/ ٤٣٧).

وقال برهان الدين الكرماني: {قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر} قدّم في هذه السورة ذكر الكبر وأخّر ذكر المرأة، وقال في سورة مريم {وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا}، فقدّم ذكر المرأة لأن في مريم قد تقدّم ذكر الكبر في قوله {وهن العظم مني}، وتأخّر ذكر المرأة في قوله {وإني

خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرا}، ثم أعاد ذكرها فأخّر ذكر الكبر ليوافق {عتيا} ما بعده من الآيات، وهي {سويا} و {عشيا} و {صبيا}. أسرار التكرار في القرآن (ص: ٨٩).

(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا):

قال السعدي: أي: ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذه آية عظيمة ألّا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجدها بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره. تفسير السعدي (ص: ١٣٠).

(واذكر ربك كثيرا):

عن محمد بن كعب القرظي، قال: (لو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا عليه السلام، قال الله تعالى {آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا}، ولو رخص لأحد في ترك الذكر لرخص للذين يقاتلون في سبيل الله تعالى، قال الله تعالى {يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا}. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٢١٥).

(وسبّح بالعشيّ والإبكار)

قال البغوي: قيل: المراد بالتسبيح: الصلاة، والعشي: ما بين زوال الشمس إلى غروبها، ومنه سميت صلاة الظهر والعصر صلاتي العشي، والإبكار: ما بين صلاة الفجر إلى الضحى. تفسير البغوي (١/ ٤٣٨).

وقال ابن القيم: {وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار}، فالإبكار أول النهار والعشي آخره، وقال تعالى: {وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب}، وهذا تفسير ما جاء في الأحاديث: من قال كذا وكذا حين يصبح وحين يمسي، أن المراد به قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر. الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ٩٣).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ٣٣-٤١

١- الله سبحانه يصطفي من يشاء من عباده لعبادته وطاعته، وهو سبحانه سميع لمن دعاه، عليم بمن ناجاه، عليم بمن يحبه، عليم بمن يبحث عن مرضاته، عليم بمن يسعى لجنته، عليم بمن يتّقيه، عليم بمن يتّقي عذابه، فأرِ الله من نفسك خيرا وصدقا، واسأله أن يجعلك من عباده الصالحين وأوليائه المتقين (إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم).

٢- الجأ إلى الله بالدعاء في كل مطلوب لك، سهلا كان أو صعبا، صغيرا أو كبيرا، مع بذل الأسباب الممكنة لتحقيق مطلوبك، مقتديا في ذلك بالأنبياء والصالحين، ومتوسلا إلى الله باسمه السميع والعليم (إذ قالت امرأت عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محررا فتقبل مني إنك أنت السميع العليم)، (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم)، (قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء).

٣- ليست المرأة كالرجل في جسمه وبنيته وقوته وعقله ودينه، ولذلك جاءت الشريعة بجعل مسؤوليات الرجل أكثر وواجباته أكبر، ومن واجباته رعاية المرأة وحمايتها وصونها وكفالتها لضعفها وحاجتها إلى الرجل، فلا يجوز للمرأة أن تحاولَ الخروج من طبيعتها وتتشبّه بالرجل، كما لا يجوز للرجل أن يتخنّث ويتشبّه بالنساء (وليس الذكر كالأنثى)، (وكفّلها زكريا).

٤- أعِذ نفسك وأهلك وذرّيّتك من الشيطان الرجيم دوما، حتى تسلم أنت وهم من حباله ومكائده، ومن جنده وذريته (وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم).

٥- لا تحمل همّ الرزق، فإن الله قد تكفّل به، وهو سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب، ويأتي بالرزق من حيث لا تحتسب، فابذل الأسباب المباحة لتحصيله، واسأل الله من فضله (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب).

٦- إذا رأيت نعمة من الله أنعم بها على غيرك فلا تحسِده عليها، بل اسأل الله من فضله، فإنه يُنعم على من يشاء من عباده (قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب * هنالك دعا زكريا ربه).

٧- إذا أردت الذرية الطيبة الصالحة المباركة فعليك بدعوة زكريا عليه السلام (رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء).

٨- الصلاة مجلبة للرزق والخيرات، مطردة للهم والغم والمكدّرات، فاستعن على حوائجك بالصلاة (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشّرك بيحيى)، (وسبّح بالعشيّ والإبكار).

٩- الله سبحانه مسبب الأسباب، فهو الذي يجعل الأسباب محققة للنتائج المرجوّة منها، ولو شاء لعطّل النتيجة عن السبب فلم تتحقق، ولو شاء لحقّق النتيجة بدون سبب كرما منه وفضلا، فعلّق قلبك بالله وحده (قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله)، (قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء)، فهذه كرامات مع عدم السبب، (قال آيتك ألا تكلّم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا) وهذا منع لنتيجة سبب موجود، فسبحان الله العظيم.

١٠- اذكر الله كثيرا، واجعل لسانك رطبا بذكر الله، فاذكره صباحا ومساء، واذكره عند النوم واليقظة، واذكره قائما وقاعدا وعلى جنب، واذكره في الصلوات وفي أدبارها، وأبشر بتحقيق حاجاتك، فإن الله قال لزكريا وهو ينتظر ما طلبه من الولد (واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإبكار).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (٤٢-٥١) من التفسير الميسّر

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢)

واذكر -أيها الرسول- حين قالت الملائكة: يا مريم إن الله اختاركِ لطاعته وطهَّركِ من الأخلاق الرذيلة، واختاركِ على نساء العالمين في زمانك.

يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣)

يا مريم داومي على الطاعة لربك، وقومي في خشوع وتواضع، واسجدي واركعي مع الراكعين؛ شكرًا لله على ما أولاكِ من نعمه.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

ذلك الذي قصصناه عليك -أيها الرسول- من أخبار الغيب التي أوحاها الله إليك، إذ لم تكن معهم حين اختلفوا في كفالة مريم أيُّهم أحق بها وأولى، ووقع بينهم الخصام، فأجْرَوْا القرعة بإلقاء أقلامهم، فأصابت زكريا عليه السلام، ففاز بكفالتها.

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)

وما كنت -يا نبي الله- هناك حين قالت الملائكة: يا مريم إن الله يُبَشِّرْكِ بولد يكون وجوده بكلمة من الله، أي يقول له: «كن» ، فيكون، اسمه المسيح عيسى ابن مريم، له الجاه العظيم في الدنيا والآخرة، ومن المقربين عند الله يوم القيامة.

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦)

ويكلم الناس وهو رضيع قبل أوان الكلام، ويدعوهم إلى الله وهو كبير قد اجتمعت قوته وكمل شبابه بما أوحاه الله إليه. وهذا تكليم النبوَّة والدعوة والإرشاد، وهو معدود من أهل الصلاح والفضل في قوله وعمله.

قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧)

قالت مريم متعجبة من هذا الأمر: أَنَّى يكون لي ولد وأنا لست بذات زوج ولا بَغِيٍّ؟ قال لها المَلَك: هذا الذي يحدث لكِ ليس بمستبعد على الإله القادر، الذي يوجِد ما يشاء من العدم، فإذا أراد إيجاد شيء فإنما يقول له: «كُن» فيكون.

وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨)

ويعلمه الكتابة، والسداد في القول والفعل، والتوراة التي أوحاها الله إلى موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزل الله عليه.

وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩)

ويجعله رسولا إلى بني إسرائيل، ويقول لهم: إني قد جئتكم بعلامة من ربكم تدلُّ على أني مرسل من الله، وهي أني أصنع لكم من الطين مثل شكل الطير، فأنفخ فيه فيكون طيرًا حقيقيا بإذن الله، وأَشفي مَن وُلِد أعمى، ومَن به برص، وأُحيي من كان ميتًا بإذن الله، وأخبركم بما تأكلون وتدَّخرون في بيوتكم من طعامكم. إن في هذه الأمور العظيمة التي ليست في قدرة البشر لدليلا على أني نبي الله ورسوله، إن كنتم مصدِّقين حجج الله وآياته، مقرِّين بتوحيده.

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠)

وجئتكم مصدقًا بما في التوراة، ولأحلَّ لكم بوحي من الله بعض ما حرَّمه الله عليكم تخفيفًا من الله ورحمة، وجئتكم بحجة من ربكم على صدق ما أقول لكم، فاتقوا الله ولا تخالفوا أمره، وأطيعوني فيما أبلغكم به عن الله.

إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

إن الله الذي أدعوكم إليه هو وحده ربي وربكم فاعبدوه، فأنا وأنتم سواء في العبودية والخضوع له، وهذا هو الطريق الذي لا اعوجاج فيه.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (٤٢-٥١)

الكلمة	المعنى
اصطَفاكِ	اختارَكِ
اقنُتي	داومي على الطاعة، وأطيلي القيام، وقومي في خشوع
يُلقُون أَقلامَهم	يطرحون سِهامهم للاقتراع
بِكَلِمَةٍ منه	بولد يوجد بكلمة من الله وهي: (كُن) من غير أب
وَجِيهًا	له مكانة عظيمة وقدر وشرف
في المهد	وهو رضيع
وكَهْلا	وهو كبير يكلّمهم بالوحي، أو يكلّمهم بعد نزوله من السماء
ويعلّمه الكتابَ	ويعلّمه الخطّ باليد
والحِكمَة	والصواب في القول والفعل
أخلُق لكم	أصوّر وأقدّر لكم
وأُبرِئ	وأَشفِي
الأَكْمَه	من وُلد أعمى
وما تَدّخِرون	وما تُخبّئونه للأكل فيما بعد

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ٤٢-٥١

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الثانية والأربعين وحتى الآية الحادية والخمسين.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) هل يوجد وقف في هذه الآية؟

الجواب: لا، لماذا؟ لأن العطف فيها عطفٌ وثيق الصلة، ووجه ذلك أنه من كلام الملائكة أنهم ذكروا لمريم أن الله اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، فهي ثلاثة أوصافٍ ذكروها في قولهم فلا يصح الفصل بينها.

الآية التي تليها: (يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) هل يصح الوقف في شيءٍ منها؟

الجواب: لا، لماذا؟ كما سبق في الآية الأولى أن هذه معطوفاتٌ على بعضها، وهو عطفٌ وثيق الصلة، ووجهه أنها أوامر أمرت بها في مقولٍ واحدٍ، قالوا لها (يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين)، وهذه الثلاث كلها متعلقةٌ بالصلاة.

الآية التي تليها: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) هل يصح الوقف هنا؟

الجوب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة قد انتهت في بيان أن الله قد أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم هذه الأخبار الغيبية، ثم ابتدأ جملة نفيٍ في خبرٍ جديدٍ فيما حصل في كفالة مريم، قال (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) وهذه جملةٌ مبدوءةٌ بالنفي، فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أيهم يكفل مريم)؟

نص جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء على صحة الوقف هنا، ووجهه عندهم أن الجملة التي بعده جملة نفيٍ جديدةٍ، وإذا تأملنا فإن قوله (وما كنت لديهم إذ يختصمون) وإن كانت جملة نفيٍ جديدةٍ معطوفة عطف جملٍ على ما قبلها إلا أنها متصلةٌ بها اتصالاً وثيقًا؛ إذ هي في بيان أنهم كانوا يختصمون في كفالة مريم فيلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم، وهذا وجهٌ معنويٌ لا لفظيٌ، وإلا فإنه من حيث اللفظ هما جملتان معطوفتان على بعض، والجملة الثانية مبدوءةٌ بالنفي، فالوقف هنا له وجهٌ لكن الوصل أولى، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمةٍ منه) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء ولم ينص عليه البعض، ووجه الوقف عندهم أن قوله (اسمه المسيح عيسى ابن مريم) مبتدأٌ وخبرٌ، وهو مستأنفٌ، بدليل تذكير كلمة (اسمه) يعني أنه لم يؤنثها، فلو كانت صفةً للكلمة لقال: اسمها المسيح عيسى ابن مريم، لأن من منع من الوقف قال: قوله (اسمه المسيح عيسى ابن مريم) هذه الجملة صفةٌ لهذه الكلمة التي بشرت بها مريم، لكن يجاب عن هذا: بأن الكلمة وإن كانت مونثةً لفظًا إلا أن المراد بها الولد الذي بشرت به، وهو ذكرٌ، اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وإنما كان بالكلمة، فخلقه الله بكلمة (كن) بدون أب، فكأن الله قال: إن الله يبشرك بولدٍ يكون بكلمةٍ منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وبناءً عليه صارت جملة (اسمه المسيح عيسى ابن مريم) في محل جر صفة للولد المقدّر في الجملة الأولى، وعليه فلا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (اسمه المسيح عيسى ابن مريم)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (وجيهًا في الدنيا والآخرة) منصوبٌ على الحال من عيسى، أي أن عيسى سيكون وجيهًا في الدنيا والآخرة.

وهل يصح الوقف على قوله (في الدنيا والآخرة) قبل قوله (ومن المقربين)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه عندهم أن قوله (ومن المقربين) على تقدير: وهو من المقربين، وهو يحتمل أيضًا أن يكون على تقدير: وكائنًا من المقربين، معطوفٌ على (وجيهًا) يعني: وجيهًا في الدنيا والآخرة وكائنًا من المقربين، وبناءً على هذا التقدير لا وقف هنا، وعلى تقدير أنها: وهو من المقربين يصح الوقف، والتقدير الأول أقرب، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ويكلم الناس في المهد وكهلاً) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه الأكثر، وإذا تأملنا فإن قوله (ويكلم الناس في المهد وكهلاً)، (وكهلا) معطوفةٌ على (في المهد)، يعني: ويكلم الناس في الكهولة، وأما قوله (ومن الصالحين) فهو معطوفٌ على أصل الجملة، يعني على (ويكلم الناس)، فهي معطوفةٌ على جملةٍ عُطف فيها كلمتان على بعض، وهي (في المهد وكهلاً)، فالأمر هنا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (قالت رب أنى يكون لي ولدٌ) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟

لأن قوله (ولم يمسسني بشرٌ في محل حال، يعني: والحال أنه لم يمسسني بشرٌ فكيف يكون لي ولدٌ، فلم تتم الجملة هنا، وهو أيضًا من تتمة قولها قالت (أنى يكون لي ولدٌ ولم يمسسني بشرٌ) فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولم يمسسني بشرٌ)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قول مريم قد انتهى، ثم ابتدأ الجواب على قولها في قوله تعالى (قال كذلكِ الله يخلق ما يشاء) فصح الفصل بين قولها والجواب على قولها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يخلق ما يشاء)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنهم اعتبروا هذه الجملة هي نهاية الجواب على قول مريم، وأن قوله (إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون) هو تتمةٌ في بيان قدرة الله سبحانه وتعالى في خلقه للمخلوقات، هذا من ناحيةٍ معنويةٍ، أما من الناحية اللفظية فإن الجملة قد انتهت، ثم بدأت بعدها جملةٌ شرطيةٌ مبدءةٌ بـ (إذا)، والشرط يصح الابتداء به عادةً فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن) قبل (فيكون)؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت هنا، وهي قوله (إذا قضى أمرًا) الجواب (فإنما يقول له كن)، النتيجة وهي كونه يكون ليست جزءًا من جملة الشرط، وإنما هي نتيجة للقول الذي يقوله الله وهو (كن)، النتيجة أنه (يكون)، والأمر في هذا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) هل يصح الوقف في شيءٍ منها؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأنها كلماتٌ معطوفاتٌ على بعضها فلم يصح الفصل بينها، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ورسولاً إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم) هل يصح الوقف هنا؟

ذكر أكثر عماء الوقف والابتداء أن الوقف هنا يختلف باختلاف القراءات، فمن قرأ (إني أخلق لكم من الطين) بكسر همزة (إنّ) صح الوقف له هنا، وهي قراءة نافع وأبي جعفر، ومن قرأ (أني أخلق لكم من الطين) بفتح الهمزة لم يصح له الوقف هنا، وهي قراءة الأكثر.

ووجه صحة الوقف على قراءة الكسر، أن (إنّ) لها صدارةٌ في جملتها، ويصح الابتداء بها عادةً، وهو على جعلها جملةً مستأنفةً استئنافًا بيانيًا، يعني كأنه يفسر الآية التي جاء بها من الله سبحانه وتعالى بهذه الجملة المبدوءة بـ (إنّ) فكأنه لما أخبرهم فقال (أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم) كأنه سُئل ما الآية؟ فبين وقال (إني أخلق لكم من الطين) إلى آخر الجملة.

أما على قراءة فتح الهمزة فلا يصح الوقف لأن (أنّ) المفتوحة لا يصح الابتداء بها، وهي كذلك تصير في موضع جرٍّ بدلاً من قوله (بآية) يعني كأنه قال: أني قد جئتكم بآيةٍ هي أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير، فهذا هو بيان الآية.

وقد نص النحاس رحمه الله على عدم صحة الوقف هنا على القراءتين، قال: لأن الابتداء بهذه الجملة ليس بحسن في قوله (إني أخلق لكم) أو (أني أخلق لكم)، وذلك أن هذه المعجزة التي كانت لعيسى عليه السلام إنما كانت من الله سبحانه وتعالى، وهذا إنما يتبين إذا وصلنا فقلنا (بآيةٍ من ربكم أني أخلق لكم من الطين) فالوصل هنا أبين في أن هذه الآية من الله وأبعد عن نسبة مجرد الخلق ابتداءً إلى غير الله سبحانه وتعالى، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فيكون طيرًا بإذن الله)؟

الجواب: نعم، ونص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي بين فيها تفصيلاً الآية الأولى وهي أنه (يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله) قد انتهت هنا، ثم ابتدأ جملةً جديدةً في بيان آيةٍ أخرى، فصح الفصل بين الآيتين.

وهل يصح الوقف على قوله (وأحيي الموتى بإذن الله)؟

الجواب: نعم، ووجهه أنه قد انتهى من ذكر الآية الأخرى وهي إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله، وهذا هو الذي نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وما تدّخرون في بيوتكم)؟

الجواب: نعم، ووجهه أن الجملة قد انتهت في بيان الآية الثالثة، وهي أنه ينبئُهم ويخبرهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ثم ابتدأ بعدها جملةً مستأنفةً بـ (إنّ) التي لها الصدارة في الكلام، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إن في ذلك لآية لكم) قبل (إن كنتم مؤمنين)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ مع أن (إن كنتم) جملة شرطية، والأصل في الشرط أنه يصح الابتداء به؟

الجواب: أن هذا الشرط جوابه محذوفٌ يدل عليه ما قبله، فلذلك لم يصح فصله عما قبله، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ومصدقًا لما بين يدي من التوراة) هل يصح الوقف هنا؟

نص النحاس على أن الوقف هنا صالح، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ووجهه عنده أن التقدير في الجملة التي تليها: ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم جئتكم، فجعلها جملةً مرتبطةً بما بعدها، وهذا بعيدٌ، بل لو قيل أن الوقف هنا من باب عطف الجمل التي ليس بينها صلةٌ وثيقةٌ لكان له وجهٌ، وذلك أن الجملة الأولى

هي في بيان أن عيسى عليه السلام جاء مصدقًا للتوراة وليس معارضًا لها، ثم الجملة الثانية فيها بيان المصلحة التي جاء لتحقيقها لبني إسرائيل وهي أنه يحل لهم بعض الذي حرم عليهم وبعض الآصار التي كانت عليهم، فهي جملتان معطوفتان على بعض وليس بينهما صلةٌ وثيقةٌ، لكن لأنه لم ينص عليه أكثر علماء الوقف والابتداء فترك الوقف هنا أولى، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم)؟

نص على الوقف هنا الهبطي والأشموني، ووضعت علامة الوقف الجائز في مصحف المدينة، والأشموني فصّل في هذا فقال: إذا اعتبرنا ما بعده مستأنفًا صح الوقف، وليس بوقفٍ إن كان ما بعده معطوفًا، وهو قوله (وجئتكم بآيةٍ من ربكم) فدل على أن هذه الجملة تحتمل الاستئناف والعطف، وهي حتى لو كانت معطوفةً فهي من قبيل عطف الجمل التي ليس بينها صلةٌ وثيقةٌ فصح الفصل بينها، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وجئتكم بآيةٍ من ربكم)؟

نص على الوقف هنا بعضٌ من علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه البعض، وذلك أن قوله (فاتقوا الله وأطيعون) تضمن الفاء العاطفة لربط المسبب بالسبب، يعني: لأني جئتكم بآيةٍ من ربكم فاتقوا الله وأطيعوني واتبعوني، فهي مرتبطةٌ بما قبلها ارتباطًا وثيقًا، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية الأخيرة: (إن الله ربي وربكم فاعبدوه) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن ما بعده جملةٌ مستأنفةٌ وهي قوله (هذا صراطٌ مستقيمٌ) هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ أخرى أن جملة (إنّ) قد انتهت باسمها وخبرها وما ارتبط بها من الأمر في قوله (فاعبدوه) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ٤٢-٥١

(وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك...):

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». صحيح البخاري (٥/ ٢٩)، صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٦).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (خيرُ نسائها مريم بنت عمران، وخيرُ نسائها خديجة بنت خويلد)، (خير نسائها): خير نساء أهل الجنة. صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٦).

وعن أنس، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون). مسند أحمد (١٩/ ٣٨٣)، سنن الترمذي (٦/ ١٨٦).

(وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين):

قال البغوي: (وطهّرك) قيل: من مسيس الرجال، وقيل: من الحيض والنفاس، قال السدي: كانت مريم لا تحيض، وقيل: من الذنوب.

(واصطفاك على نساء العالمين)، قيل: على نساء عالمي زمانها، وقيل: على جميع نساء العالمين في أنها ولدت بلا أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء، وقيل: بالتحرير في المسجد ولم يحرر فيه أحد من النساء إلا هي. تفسير البغوي (١/ ٤٣٨).

وقال ابن الجوزي: وفي هذا الاصطفاء الثاني أربعة أقوال:

أحدها: أنه تأكيد للأول.

والثاني: أن الأول للعبادة، والثاني لولادة عيسى عليه السلام.

والثالث: أن الاصطفاء الأول اختيار مبهم، وعموم يدخل فيه صوالح من النساء، فأعاد الاصطفاء لتفضيلها على نساء العالمين.

والرابع: أنه لما أطلق الاصطفاء الاول، أبان بالثاني أنها مصطفاة على النساء دون الرجال. زاد المسير في علم التفسير (١/ ٢٨١).

وقال السيوطي: التأكيد لا يفصل بينه وبين مؤكده نحو: {اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله} {إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين} فالآيتان من باب التكرير لا التأكيد اللفظي الصناعي. الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٢٦).

(يا مريم اقنتي لربك):

قال الطبري: أخلصي الطاعة لربك وحده. تفسير الطبري (٦/ ٤٠١).

وقال ابن كثير: أما القنوت فهو الطاعة في خشوع كما قال تعالى: {بل له ما في السماوات والأرض كل له قانتون}. تفسير ابن كثير (٢/ ٤١).

وقال الأوزاعي: (يا مريم اقنتي لربك) قال: كانت تقوم حتى يَسيل القيح من قدميها. تفسير الطبري (٦/ ٤٠٣).

(واسجدي واركعي مع الراكعين):

قال البغوي: قيل: إنما قدم السجود على الركوع لأنه كان كذلك في شريعتهم، وقيل: بل كان الركوع قبل السجود في الشرائع كلها، وليس الواو للترتيب بل للجمع، يجوز أن يقول الرجل: رأيت زيدا وعمرا وإن كان قد رأى عمرا قبل زيد. تفسير البغوي (١/ ٤٤٠).

قال ابن تيمية: قوله (مع الراكعين) أمر بصلاة الجماعة، ودل بذلك على وجوبها، وأمر بالركوع معهم لأنه بالركوع يكون مدركا للركعة، فإذا ركع معهم فقد فعل بقية الأفعال معهم، وما قبل الركوع من القيام لا يجب فعله معهم، فما بعده لازم. بخلاف مالو قال (قوموا) أو (اسجدوا) لم يدل على ذلك.

وقال لمريم: (اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين) قد يكون أمرا لها بصلاة الجماعة -وإن كانت امرأة- لأنها كانت محررة منذورة لله عاكفة في المسجد. جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٣٥٤).

وقال أيضا: خص الركوع بالذكر لأنه تدرك به الصلاة، فمن أدرك الركعة فقد أدرك السجدة، فأمر بما يدرك به الركعة، كما قال لمريم: {اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين} فإنه لو قيل: اقنتي مع القانتين لدل على وجوب إدراك القيام، ولو قيل: اسجدي لم يدل على وجوب إدراك الركوع، بخلاف قوله: {واركعي مع الراكعين} فإنه يدل على الأمر بإدراك الركوع وما بعده دون ما قبله. الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٢/ ٢٧١).

وقال أيضا: ويعبر عن الصلاة تارة بلفظ الركوع، كما في قوله: (واركعوا مع الراكعين)، وقوله: (اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين). ولهذا إذا كانت السجدة في آخر السورة أجزأ ما في الصلاة من السجود والركوع عن سجود التلاوة، كما يروى ذلك عن ابن مسعود، وهذا هو المنصوص عن أحمد، وهو قول من قال من فقهاء العراق وغيرهم. جامع المسائل لابن تيمية (٦/ ٢٩٦).

وقال ابن القيم: قوله: {وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ} ولم يقل اسجدي مع الساجدين، فإنما عبر بالسجود عن الصلاة وأراد صلاتها في بيتها؛ لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها مع قومها، ثم قال لها: {اركعي مع الراكعين} أي: صلي مع المصلين في بيت المقدس، ولم يرد أيضا الركوع وحده دون أجزاء الصلاة، ولكنه عبر بالركوع عن الصلاة، كما تقول: ركعت ركعتين وأربع ركعات، تريد الصلاة لا الركوع بمجرده، فصارت الآية متضمنة لصلاتين: صلاتها وحدها عبر عنها بالسجود؛ لأن السجود أفضل حالات العبد، وكذلك صلاة المرأة في بيتها أفضل لها، ثم صلاتها في المسجد عبر عنها بالركوع؛ لأنه في الفضل دون السجود، وكذلك صلاتها مع المصلين دون صلاتها وحدها في بيتها ومحرابها، وهذا نظم بديع وفقه دقيق. بدائع الفوائد (١/ ٦٤).

وقال أيضا: لا بد لقوله: {مَعَ الرَّاكِعِينَ} من فائدة أخرى وليست إلا فعلها مع جماعة المصلين، والمعية تفيد ذلك. إذا ثبت هذا الأمر المقيد بصفة أو حال لا يكون المأمور ممتثلا إلا بالإتيان به على تلك الصفة والحال، فإن قيل: فهذا ينتقض بقوله تعالى: {يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ}، والمرأة لا يجب عليها حضور الجماعة، قيل: الآية لم تدل على تناول الأمر بذلك لكل امرأة، بل مريم بخصوصها أمرت بذلك، بخلاف قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}، ومريم كانت لها خاصة لم تكن لغيرها من النساء، فإن أمها نذرتها أن تكون محررة لله ولعبادته ولزوم المسجد، وكانت لا تفارقه، فأمرت أن

تركع مع أهله، ولما اصطفاها الله وطهرها على نساء العالمين أمرها من طاعته بأمر اختصها به على سائر النساء. الصلاة وأحكام تاركها (ص: ١٠١).

وقال السعدي: خص السجود والركوع لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله. تفسير السعدي (ص: ١٣٠).

وقال الألوسي: وصوها بالمحافظة على الصلاة بعد أن أخبروها بعلو درجتها وكمال قربها إلى الله تعالى لئلا تفتر ولا تغفل عن العبادة... ويراد بالركوع الخشوع والتواضع وكأن أمرها بذلك حفظا لها من الوقوع في مهاوي التكبر والاستعلاء بما لها من علو الدرجة. روح المعاني (٢/ ١٥١).

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك...):

قال الطبري: أخبر تعالى ذكره نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أنه أوحى ذلك إليه، حجةً على نبوته، وتحقيقًا لصدقه، وقطعًا منه به عذرَ منكري رسالته من كفار أهل الكتابين، الذين يعلمون أنّ محمدًا لم يصل إلى علم هذه الأنباء مع خفائها، ولم يدرك معرفتها مع خُمولها عند أهلها، إلا بإعلام الله ذلك إياه. إذ كان معلومًا عندهم أنّ محمدًا صلى الله عليه وسلم أميٌّ لا يكتب فيقرأ الكتب، فيصل إلى علم ذلك من قِبَل الكتب، ولا صاحبَ أهل الكتُب فيأخذ علمه من قِبَلهم. تفسير الطبري (٦/ ٤٠٤).

وقال أيضا: أصل الإيحاء: إلقاء الموحِي إلى الموحَى إليه، وذلك قد يكون بكتاب وإشارة وإيماء، وبإلهام، وبرسالة، كما قال جل ثناؤه: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)، بمعنى: ألقى ذلك إليها فألهمها، وكما قال: (وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ)، بمعنى: ألقيت إليهم علمَ ذلك إلهامًا... وكما قال جل ثناؤه: (فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا)، بمعنى: فألقى ذلك إليهم إيماء. والأصل فيه ما وصفتُ، من إلقاء ذلك إليهم.

وقد يكون إلقاؤه ذلك إليهم إيماءً، ويكون بكتاب. ومن ذلك قوله: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ)، يلقون إليهم ذلك وسوسةً، وقوله: (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ)، ألقي إليّ بمجيء جبريل عليه السلام به إليّ من عند الله عز وجل. تفسير الطبري (٦/ ٤٠٥-٤٠٦).

وقال ابن تيمية: قصة نوح - لا سيما قصته في سورة هود كما تقدم - لا يعلمها إلا نبي، أو من تلقاها عن نبي، فإذا عرف أنه لم يتلقاها عن أحد، علم أنه نبي، ولهذا قال تعالى في آخرها: {تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين}، والقول في سائر القصص، كالقول فيها. وكما قال في سورة يوسف: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون}، وقال في سورة آل عمران، لما ذكر قصة زكريا ومريم: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون}. وقال في قصة موسى: {وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين - ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين - وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك} الآية.

والإنسان إنما يعلم مثل هذا بمشاهدة أو خبر، فنبّه بقوله: (وما كنت لديهم) على أنه إنما علمت ذلك بإخبارنا وإيحائنا إليك وإعلامنا لك بذلك، إذ كان معلوما عند كل من عرفه: أنه لم يسمع ذلك من بشر، وأنه لم يكن هو ولا قومه يعلمون ذلك. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٥/ ٣٣٣-٣٣٤).

(وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم):

قال ابن القيم: ومن طرق الأحكام: الحكم بالقرعة، قال تعالى: {ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون}، قال قتادة: كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم، فتشاحّ عليها بنو إسرائيل، فاقترعوا عليها بسهامهم، أيهم يكفلها، فقرع زكريا، وكان زوج أختها، فضمها إليه. وروي نحوه عن مجاهد، وقال ابن عباس: (لما وضعت مريم في المسجد اقترع عليها أهل المصلى، وهم يكتبون الوحي، فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها)، وهذا متفق عليه بين أهل التفسير. الطرق الحكمية (ص: ٢٤٥).

(إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه...):

قال ابن تيمية: في هذا الكلام وجوه تبين أنه مخلوق وليس هو ما يقوله النصارى:

منها: أنه قال: (بكلمة منه)، وقوله بكلمة منه نكرة في الإثبات تقتضي أنه كلمة من كلمات الله، ليس هو كلامه كله كما يقول النصارى.

ومنها: أنه يبين مراده بقوله: (بكلمة منه)، وأنه مخلوق حيث قال: {كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون}، كما قال في الآية الأخرى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون}، وقال تعالى في سورة كهيعص: {ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون - ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} فهذه ثلاث آيات في القرآن تبين أنه قال له: (كن فيكون) وهذا تفسير كونه كلمة منه.

وقال: (اسمه المسيح عيسى ابن مريم) أخبر أنه ابن مريم، وأخبر أنه وجيه في الدنيا والآخرة ومن المقربين، وهذه كلها صفة مخلوق، والله تعالى وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيء من ذلك.

وقالت مريم: (أنى يكون لي ولد)، فبين أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم، لا ولد الله سبحانه وتعالى. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٦٣-٦٤).

وقال السعدي: سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حالته خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الذكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي روح الله. تفسير السعدي (ص: ١٣١).

(اسمه المسيح عيسى ابن مريم):

قال ابن كثير: وسمي المسيح، قال بعض السلف: لكثرة سياحته. وقيل: لأنه كان مسيح القدمين: أي: لا أخمص لهما. وقيل: لأنه كان إذا مسح أحدا من ذوي العاهات برئ بإذن الله تعالى. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٣).

وقال زكريا الأنصاري: فإن قلت: كيف قال (ابن مريم) والخطاب معها، وهي تعلم أن الولد الذي بشرت به يكون ابنها؟

قلت: لأن الناس ينسبون إلى الآباء، لا إلى الأمهات، فأعلمت بنسبته إليها أنه يولد من غير أب، فلا ينسب إلا إلى أمه. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٨٨).

(وجيها في الدنيا والآخرة):

قال ابن تيمية: وقد أخبرنا سبحانه عن موسى وعيسى عليهما السلام أنهما وجيهان عند الله، فقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها}، وقال تعالى: {إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين}. فإذا كان موسى وعيسى وجيهين عند الله عز وجل؛ فكيف بسيد ولد آدم صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون؛ وصاحب الكوثر والحوض المورود الذي آنيته عدد نجوم السماء، وماؤه أشد بياضا من اللبن، وأحلى من العسل، ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا؟ وهو صاحب الشفاعة يوم القيامة حين يتأخر عنها آدم وأولو العزم - نوح وإبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - ويتقدم هو إليها، وهو صاحب اللواء آدم ومن دونه تحت لوائه، وهو سيد ولد آدم وأكرمهم على ربه عز وجل، وهو إمام الأنبياء إذا اجتمعوا وخطيبهم إذا وفدوا، ذو الجاه العظيم صلى الله عليه وسلم. مجموع الفتاوى (١/ ٣١٩).

(ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين):

عن محمد بن جعفر بن الزبير: (ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين): يخبرهم بحالاته التي يتقلب بها في عمره، كتقلب بني آدم في أعمارهم صغارًا وكبارًا، إلا أن الله خَصّه بالكلام في مهده آيةً لنبوته، وتعريفًا للعباد مواقع قدرته. تفسير الطبري (٦/ ٤١٩).

عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلا عابدا، فاتخذ صومعة، فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي، فقالت: يا جريج فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي، فقالت: يا جريج فقال: يا رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج فقال:

أي رب أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه الموسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجا وعبادته وكانت امرأة بغي يتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم، قال: فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعيا كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغي، فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أصلي، فصلى، فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه، وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي، قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا. وبينا صبي يرضع من أمه، فمر رجل راكب على دابة فارهة، وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه، فنظر إليه، فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع). قال: فكأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصها، قال: (ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث، فقالت: حلقى! مر رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون زنيت، سرقت، فقلت: اللهم لا تجعل ابني مثلها فقلت: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جبارا، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق فقلت: اللهم اجعلني مثلها). صحيح البخاري (٤/ ١٦٥)، صحيح مسلم (٤/ ١٩٧٦).

(قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر...):

قال برهان الدين الكرماني: قوله {قالت رب أنى يكون لي ولد}، وفي مريم {قالت رب أنى يكون لي غلام}؛ لأن في هذه السورة تقدم ذكر المسيح وهو ولدها، وفي مريم تقدم ذكر الغلام حيث قال: {لأهب لك غلاما زكيا}. أسرار التكرار في القرآن (ص: ٨٩).

(قال كذلك الله يخلق ما يشاء):

قال ابن كثير: وصرّح هاهنا بقوله: {يخلق} ولم يقل: (يفعل) كما في قصة زكريا، بل نص هاهنا على أنه يخلق؛ لئلا يبقى شبهة، وأكد ذلك بقوله: {إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} أي: فلا يتأخر شيئا، بل يوجد عقيب الأمر بلا مهلة، كقوله تعالى: {وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر}، أي: إنما نأمر مرة واحدة لا مثنوية فيها، فيكون ذلك الشيء سريعا كلمح بالبصر. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤).

وقال ابن عاشور: وعبر عن تكوين الله لعيسى بفعل (يخلق): لأنه إيجاد كائن من غير الأسباب المعتادة لإيجاد مثله، فهو خلق أنف غير ناشئ عن أسباب إيجاد الناس، فكان لفعل (يخلق) هنا موقع متعين، فإن الصانع إذا صنع شيئا من مواد معتادة وصنعة معتادة، لا يقول خلقت وإنما يقول صنعت. التحرير والتنوير (٣/ ٢٤٩).

وقال السعدي: ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بإخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب؛ ليدل عباده أنه الفعال لما يريد، وأنه ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن. تفسير السعدي (ص: ١٣١).

(إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون):

قال ابن القيم: وتقرير هذه الحجة أن من كانت قدرته تعالى كافية في إيجاد ما يريد إيجاده بمجرد أمره وقوله: (كن)، فأي حاجة به إلى ولد، وهو لا يتكثر به من قلة ولا يتعزز به ولا يستعين به، يعجز عن خلق ما يريد خلقه، وإنما يحتاج إلى الولد من لا يخلق، ولا إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، وهذا المخلوق العاجز المحتاج الذي لا يقدر على تكوين ما أراد. بدائع الفوائد (٤/ ١٥٤).

(ويعلمه الكتاب والحكمة...):

قال ابن القيم: الحكمة في كتاب الله نوعان: مفردة. ومقترنة بالكتاب.

فالمفردة: فسرت بالنبوة، وفسرت بعلم القرآن. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي علم القرآن: ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه. ومقدمه ومؤخره. وحلاله وحرامه. وأمثاله. وقال الضحاك: هي القرآن والفهم فيه. وقال مجاهد: هي القرآن والعلم والفقه. وفي رواية أخرى عنه: هي الإصابة في القول والفعل. وقال النخعي: هي معاني الأشياء وفهمها. وقال الحسن: الورع في دين الله. كأنه فسرها بثمرتها ومقتضاها.

وأما الحكمة المقرونة بالكتاب: فهي السنة. وكذلك قال الشافعي وغيره من الأئمة. وقيل: هي القضاء بالوحي. وتفسيرها بالسنة أعم وأشهر.

وأحسن ما قيل في الحكمة قول مجاهد، ومالك: إنها معرفة الحق والعمل به. والإصابة في القول والعمل. وهذا لا يكون إلا بفهم القرآن، والفقه في شرائع الإسلام، وحقائق الإيمان.

والحكمة حكمتان: علمية، وعملية. فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء. ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها، خلقا وأمرا. قدرا وشرعا. والعملية كما قال صاحب المنازل: هي وضع الشيء في موضعه. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٤٤٨).

(أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله):

قال ابن تيمية: الجواب عما ذكروه هنا من وجوه:

أحدها: أن الله لم يذكر عن المسيح خلقا مطلقا، ولا خلقا عاما، كما ذكر عن نفسه تبارك وتعالى... قال المسيح عن نفسه: {أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله}، فلم يذكر إلا خلق شيء معين خاص بإذن الله، فكيف يكون هذا الخالق هو ذاك؟

الوجه الثاني: أنه خلق من الطين كهيئة الطير، والمراد به تصويره بصورة الطير، وهذا الخلق يقدر عليه عامة الناس، فإنه يمكن أحدهم أن يصور من الطين كهيئة الطير، وغير الطير من الحيوانات، ولكن هذا التصوير محرم، بخلاف تصوير المسيح، فإن الله أذن له فيه. والمعجزة أنه ينفخ فيه الروح فيصير طيرا بإذن الله عز وجل ليس المعجزة مجرد خلقه من الطين، فإن هذا مشترك...

الوجه الثالث: أن الله أخبر المسيح أنه إنما فعل التصوير والنفخ بإذنه تعالى، وأخبر المسيح عليه السلام أنه فعله بإذن الله، وأخبر الله أن هذا من نعمه التي أنعم بها على المسيح عليه السلام. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ٤٦-٤٧).

(وأحيي الموتى بإذن الله):

قال الطبري: وكان إحياء عيسى الموتى بدعاء الله، يدعو لهم، فيستجيب له. تفسير الطبري (٦/ ٤٣١).

(وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون في بيوتكم):

قال الطبري: فإن قال قائل: وما كان في قوله لهم: (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم) من الحجة له على صدقه، وقد رأينا المتنجِّمة والمتكهِّنة تخبرُ بذلك كثيرًا فتصيب؟

قيل: إن المتنجِّم والمتكهِّن معلوم منهما عند من يخبرانه بذلك أنهما ينبئان به عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه. ولم يكن ذلك كذلك من عيسى صلوات الله عليه ومن سائر أنبياء الله ورُسله، وإنما كان عيسى يخبر به عن غير استخراج، ولا طلب لمعرفته باحتيال، ولكن ابتداءً بإعلام الله إياه، من غير أصل تقدّم ذلك احتذاه، أو بنى عليه، أو فزع إليه، كما يفزَع المتنجم إلى حسابه، والمتكهن إلى رئيِّه. فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها، وبين علم سائر المتكذِّبة على الله، أو المدَّعية علم ذلك. تفسير الطبري (٦/ ٤٣٢-٤٣٣).

وقال ابن تيمية: وأما ما يعلمه بعض المخلوقين: فهو غيب عمن لم يعلمه، وهو شهادة لمن علمه.

فهذا أيضـًا تُخبر منه الأنبياء بما لا يمكن الشياطين أن تُخبر به، كما في إخبار المسيح بقوله: {وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ}؛ فإنّ الجن قد يخبرون بما يأكله بعض الناس، وبما يدّخرونه، لكن الشياطين إنما تتسلط على من لا يذكر اسم الله؛ كالذي لا يذكر اسم الله إذا دخل، فيدخلون معه، وإن لم يذكر اسم الله إذا أكل، فإنهم يأكلون معه. وكذلك إذا ادّخر شيئـًا، ولم يذكر اسم الله عليه، عرفوا به، وقد يسرقون بعضه، كما جرى هذا لكثيرٍ من الناس.

وأما من يذكر اسم الله على طعامه، وعلى ما يختاره، فلا سلطان لهم عليه، لا يعرفون ذلك، ولا يستطيعون أخذه.

والمسيح عليه السلام كان يخبر المؤمنين بما يأكلون وما يدخرون ممّا ذُكر اسم الله عليه، والشياطين لا تعلم به، ولهذا من تكون أخباره عن شياطين تُخبره، لا يكاشف أهل الإيمان والتوحيد، وأهل القلوب المنورة بنور الله، بل يهرب منهم، ويعترف أنه لا يكاشف هؤلاء وأمثالهم. النبوات لابن تيمية (٢/ ١٠٢٢).

(بإذن الله):

قال برهان الدين الكرماني: قوله {بإذن الله} ذكر في هذه الآية مرتين، وقال في المائدة {بإذني} أربع مرات؛ لأن ما في هذه السورة كلام عيسى، فما يتصور أن يكون من فعل البشر أضافه إلى نفسه، وهو الخلق الذي معناه التقدير، والنفخ الذي هو إخراج الريح من الفم، وما يتصور إضافته إلى الله تعالى أضافه إليه، وهو قوله (فيكون طيرا بإذن الله)، (وأبرئ الأكمه والأبرص) بما يكون في طوق البشر، فإن الأكمه عند بعض المفسرين: الأعمش، وعند بعضهم: الأعشى، وعند بعضهم: الذي يولد أعمى، وإحياء الموتى من فعل الله فأضافه إليه.

وما في المائدة من كلام الله سبحانه وتعالى، فأضاف جميع ذلك إلى صنعه إظهارا لعجز البشر؛ ولأن فعل العبد مخلوق لله تعالى. أسرار التكرار في القرآن (ص: ٩٠).

(إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين):

قال ابن تيمية: استدللتم على ربوبيته بأنه أحيا الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص، ومشى على الماء، وصعد إلى السماء، وصير الماء خمرا، وكثر القليل، فيجب الآن أن ينظر إلى كل من فعل من هذه الأمور فعلا فنجعله ربا وإلها، وإلا فما الفرق؟ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/ ١٢٠).

قال ابن كثير: قال كثير من العلماء: بعث الله كل نبي من الأنبياء بمعجزة تناسب أهل زمانه:

فكان الغالب على زمان موسى عليه السلام، السحر وتعظيم السحرة. فبعثه الله بمعجزة بهرت الأبصار وحيرت كل سحار، فلما استيقنوا أنها من عند العظيم الجبار انقادوا للإسلام، وصاروا من الأبرار.

وأما عيسى عليه السلام، فبعث في زمن الأطباء وأصحاب علم الطبيعة، فجاءهم من الآيات بما لا سبيل لأحد إليه، إلا أن يكون مؤيدا من الذي شرع الشريعة. فمن أين للطبيب قدرة على إحياء الجماد، أو على مداواة الأكمه، والأبرص، وبعث من هو في قبره رهين إلى يوم التناد؟

وكذلك محمد صلى الله عليه وسلم بعثه الله في زمن الفصحاء والبلغاء ونحارير الشعراء، فأتاهم بكتاب من الله، عز وجل، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله لم يستطيعوا أبدا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، وما ذاك إلا لأن كلام الرب لا يشبهه كلام الخلق أبدا. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥).

(ومصدقا لما بين يدي من التوراة...):

قال السعدي: أي: أتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تخالف ولا تناقض، بخلاف من ادعى دعوى كاذبة، خصوصا أعظم الدعاوى وهي دعوى النبوة، فالكاذب فيها لا بد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبها وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية بعباده، إذ لا يشتبه الصادق بالكاذب في دعوى النبوة أبدا، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد يشتبه فيها الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يتبين لكل من له عقل. تفسير السعدي (ص: ١٣١).

(ولأحل لكم بعض الذي حرّم عليكم):

قال ابن تيمية: وأما المسيح فإنه قال: {ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم} فأحل لهم بعض المحرمات، وهو في الأكثر متبع لشريعة التوراة. ولهذا لم يكن بد لمن اتبع المسيح من أن يقرأ التوراة ويتبع ما فيها؛ إذ كان الإنجيل تبعا لها.

وأما القرآن فإنه مستقل بنفسه لم يحوج أصحابه إلى كتاب آخر بل اشتمل على جميع ما في الكتب من المحاسن؛ وعلى زيادات كثيرة لا توجد في الكتب. مجموع الفتاوى (١٩/ ١٨٤).

(إن الله ربي وربكم فاعبدوه...):

قال السعدي: استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعما ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نألهه بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مدبر مخلوق، كما قال {إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيا}، وقال تعالى: {وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته} إلى قوله {ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم}. تفسير السعدي (ص: ١٣٢).

قال ابن جماعة: قوله تعالى: (إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ)، وكذلك في مريم. وفي الزخرف: (إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ) بزيادة (هو)؟

جوابه: أن آية آل عمران ومريم تقدم من الآيات الدالة على توحيد الرب تعالى وقدرته وعبودية المسيح له ما أغنى عن التأكيد. وفي الزخرف: لم يتقدم مثل ذلك، فناسب توكيد انفراده بالربوبية وحده. كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١٢٩).

(هذا صراط مستقيم):

قال البقاعي: (هذا) أي: الذي دعوتكم إليه (صراط مستقيم) أنا وأنتم فيه سواء، لا أدعوكم إلى شيء إلا كنت أول فاعل له، ولا أدعي أني إله، ولا أدعو إلى عبادة غير الله تعالى كما يدعي الدجال وغيره من الكذبة الذين تظهر الخوارق على أيديهم امتحانا من الله سبحانه وتعالى لعباده فيجعلونها سببا للعلو في الأرض والترفع على الناس. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/ ٤٠٩).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ٤٢-٥١

١- اعلم أنه كلما عظُمت نعمة الله عليك في دينك أو دنياك عظُم ما يجب عليك من الشكر لله سبحانه وتعالى (وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين).

٢- مما يزيد إيمانك بالنبي صلى الله عليه وسلم ويقوّيه ويثبّته ما ثبت من دلائل نبوته عليه الصلاة والسلام، ومن ذلك إخباره بما حصل للأنبياء السابقين وأممهم تفصيلا، وهو أميّ لا يقرأ ولا يكتب، فلم يقرأ التوراة ولا الإنجيل، ولا صاحب أحدا من أهل الكتاب أو تلقى عنه، فدل على أنه وحي من الله العليم الخبير (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون).

٣- يُشرع استعمال القرعة عند اشتباه الأمور وعدم وجود البيّنة أو القرينة التي تبيّن صاحب الحق، أو عند تزاحم أصحاب الحق (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون).

٤- هدى الله المسلم للحق في عيسى عليه السلام بعد أن ضلّ فيه اليهود والنصارى، فهو مخلوق بكلمة: (كُن) من غير أب، إظهارا لقدرة الله سبحانه، وإكراما له عليه السلام، فليس هو ابنا لله ولا ثالث ثلاثة، وليس له من الربوبية والألوهية شيء، بل هو ابن مريم الذي حملت به ثم ولدته ثم نشأ صبيا حتى بلغ الكهولة كعامة البشر (إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين * ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسسني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون * ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل).

٥- علّق قلبك بالله رغبة ورهبة، وخوفا ورجاء، فهو سبحانه يوجد الأشياء بأسبابها عادة، ولكنه قد يوجد الأشياء بدون أسباب، وقد يعطّل الأسباب فلا يوجد الشيء مع وجودها، فكل شيء بقضاء الله وقدره، فالجأ إلى الله وحده مستحضرا عظيم قدرته وكمال سلطانه (قال كذلكِ الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون).

٦- العلم هبة من الله سبحانه وتعالى، وأعظم العلم فهم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فاسأل الله سبحانه أن يعلّمك العلم النافع من القرآن والسنة والحكمة، فهو الذي يعلّم من يشاء ما يشاء (ويعلّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل).

٧- آيات الأنبياء ومعجزاتهم إنما هي من الله وبإذن الله، والنبي لا يملك فعلها من نفسه، ولا قدرة له عليها، ولا تدل هذه الآيات على أن له في الربوبية والألوهية شيء، بل هي من الله وحده، وإنما يجريها الله على يديه تأييدا له، وإظهارا لحجّته، وقمعًا لأعدائه (أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله).

٨- خلْق الله للمخلوقات كلها ورزقها وتدبيرها بأحسن تدبير وأكمله يجعلك تذعن لربك، وتعترف بربوبيته، وتُفرده بالعبادة، وتبتعد عن الشرك وأهله (إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (٥٢-٦٣) من التفسير الميسّر

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢)

فلما استشعر عيسى منهم التصميم على الكفر نادى في أصحابه الخُلَّص: مَن يكون معي في نصرة دين الله؟ قال أصفياء عيسى: نحن أنصار دين الله والداعون إليه، صدَّقنا بالله واتبعناك، واشهد أنت يا عيسى بأنا مستسلمون لله بالتوحيد والطاعة.

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣)

ربنا صدَّقنا بما أنزلت من الإنجيل، واتبعنا رسولك عيسى عليه السلام، فاجعلنا ممن شهدوا لك بالوحدانية ولأنبيائك بالرسالة، وهم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون للرسل بأنهم بلَّغوا أممهم.

وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)

ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل بعيسى عليه السلام، بأن وكَّلوا به من يقتله غِيْلة، فألقى الله شَبَه عيسى على رجل دلَّهم عليه فأمسكوا به، وقتلوه وصلبوه ظناً منهم أنه عيسى عليه السلام، والله خير الماكرين. وفي هذا إثبات صفة المكر لله -تعالى- على ما يليق بجلاله وكماله؛ لأنه مكر بحق، وفي مقابلة مكر الماكرين.

إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥)

ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى: إني قابضك من الأرض من غير أن ينالك سوء، ورافعك إليَّ ببدنك وروحك، ومخلصك من الذين كفروا بك، وجاعل الذين اتبعوك -أي على دينك وما جئت به عن الله من الدين والبشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وآمَنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، بعد بعثته، والتزموا شريعته- ظاهرين على الذين جحدوا نبوتك إلى يوم القيامة، ثم إليّ مصيركم جميعًا يوم الحساب، فأفصِل بينكم فيما كنتم فيه تختلفون من أمر عيسى عليه السلام.

فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦)

فأمَّا الذين كفروا بالمسيح من اليهود أو غَلَوا فيه من النصارى، فأعذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا: بالقتل وسلْبِ الأموال وإزالة الملك، وفي الآخرة بالنار، وما لهم مِن ناصر ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله.

وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧)

وأما الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الأعمال الصالحة، فيعطيهم الله ثواب أعمالهم كاملا غير منقوص. والله لا يحب الظالمين بالشرك والكفر.

ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

ذلك الذي نقصُّه عليك في شأن عيسى، من الدلائل الواضحة على صحة رسالتك، وصحة القرآن الحكيم الذي يفصل بين الحق والباطل، فلا شك فيه ولا امتراء.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩)

إنَّ خَلْقَ الله لعيسى من غير أب مثَلُه كمثل خلق الله لآدم من غير أب ولا أم، إذ خلقه من تراب الأرض، ثم قال له: «كن بشرًا» فكان. فدعوى إلهية عيسى لكونه خلق من غير أب دعوى باطلة؛ فآدم عليه السلام خلق من غير أب ولا أم، واتفق الجميع على أنه عَبْد من عباد الله.

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠)

الحق الذي لا شك فيه في أمر عيسى هو الذي جاءك -أيها الرسول- من ربك، فدم على يقينك، وعلى ما أنت عليه من ترك الافتراء، ولا تكن من الشاكِّين، وفي هذا تثبيت وطمأنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم.

فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١)

فمَن جادلك -أيها الرسول- في المسيح عيسى ابن مريم من بعد ما جاءك من العلم في أمر عيسى عليه السلام، فقل لهم: تعالوا نُحْضِر أبناءنا وأبناءكم، ونساءنا ونساءكم، وأنفسنا وأنفسكم، ثم نتجه إلى الله بالدعاء أن يُنزل عقوبته ولعنته على الكاذبين في قولهم، المصرِّين على عنادهم.

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢)

إن هذا الذي أنبأتك به -أيها الرسول- من أمر عيسى لهو النبأ الحق الذي لا شك فيه، وما من معبود يستحق العبادة إلا الله وحده، وإن الله لهو العزيز في ملكه، الحكيم في تدبيره وفعله.

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

فإن أعرضوا عن تصديقك واتباعك فهم المفسدون، والله عليم بهم، وسيجازيهم على ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (٥٢-٦٣)

الكلمة	المعنى
أحسَّ	عَلِم
الحواريّون	خواصّ عيسى وأنصاره
ومكروا	أي: الكفار حيث دبّروا لقتله
مُتوفّيك	قابضك من الأرض من غير موت
ومُطهّرك	ومُخلّصك
اتّبعوك	آمنوا بك وبما جئت به، ومن ذلك بشارتك بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم
فيُوفّيهم أجورَهم	فيُعطيهم ثواب أعمالهم كاملا
مثَلَ عيسى	مثَل خلْق الله لعيسى من غير أب
المُمترين	الشاكّين المتردّدين
حاجّك	جادَلَك
نبْتهِل	نتضرّع إلى الله بالدعاء أن يلعن الكاذب منا
العزيز	القوي الغالب الممتنع
الحكيم	الذي يضع الأشياء في مواضعها اللائقة بها

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ٥٢-٦٣

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الثانية والخمسين وحتى الآية الثالثة والستين.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى (فلما أحسّ عيسى منهم الكفر) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جواب (لمّا) لم يأت بعد، يعني: لما أحس عيسى منهم الكفر ما الذي حصل؟ قال (من أنصاري إلى الله)، فجوابها (قال من أنصاري إلى الله)، فلا يصح الوقف قبل أن يأتي جوابها.

وهل يصح الوقف على قوله (قال من أنصاري إلى الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة الشرط قد انتهت، وهي جملة (لمّا) بفعلها وجوابها، ومعها انتهى قول عيسى عليه السلام، ثم ابتدأ جوابهم على قوله حين قالوا (نحن أنصار الله) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قال الحواريون نحن أنصار الله)؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوزه السجاوندي، وحسنه الأنصاري، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ومنع منه الأشموني، وإذا تأملنا فإن قولهم (آمنا بالله) هو من تتمة كلامهم، لكن قولهم (نحن أنصار الله) هو الجواب المباشر لسؤال عيسى عليه السلام لما سأل (من أنصاري إلى الله)، فكان الجواب (نحن أنصار الله). فجملة (آمنا بالله) هي من تتمة قولهم لكنها ليست من صريح جوابهم على سؤال عيسى، وقد يقال إنها من صريح جوابهم؛ لأنهم قالوا (نحن أنصار الله) في الدعوة إلى دين الله لأننا آمنا بالله، فكأنه تعليلٌ لكونهم دعاةً إلى الله سبحانه وتعالى، ويحتمل أن يكون: نحن أنصار الله وقد آمنا بالله، يعني على الحال، وعلى كلا التقديرين لا يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (آمنا بالله)؟

جوز الوقف هنا السجاوندي، وحسنه الأنصاري، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، ونص السجاوندي على أن النظم قد انقطع هنا مع اتحاد مقصود الكلام، يعني بقوله: أنّ خبرهم عن أنهم أنصار الله

قد انتهى، ثم ابتدؤوا بفعل أمرٍ في قولهم (واشهد بأنا مسلمون)، فاختلف الخبر عن الأمر، فصح الفصل بينهما، والأمر في هذا محتمل، والأولى عدم الوقف، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ربنا آمنا بما أنزلت)، (واتبعنا الرسول) هل يصح الوقف في هذين الموضعين؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن هذا من تتمة دعائهم، فإنهم إنما توسلوا بإيمانهم بما أنزل الله سبحانه وتعالى وباتباعهم للرسول ثم جاء الطلب في قولهم (فاكتبنا مع الشاهدين) فلم يأت الدعاء إلا في نهاية الآية، فلا وقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ومكروا ومكر الله) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (والله خير الماكرين) جملةٌ مستأنفةٌ لفظًا وإن كانت مرتبطةً بما قبلها معنًى، فيصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك) هل يصح الوقف هنا؟

جوز الوقف هنا الأنصاري والأشموني دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (ورافعك إلي) معطوفٌ على قوله (متوفيك) عطف كلمات، وقوله (ومطهرك) أيضًا معطوفٌ على (متوفيك)، و (متوفيك) هو خبر (إنّ) فهي كلماتٌ معطوفةٌ على خبر (إنّ)، ولا يصح الفصل بين المعطوفات عطف كلمات، وبالتالي لم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (ورافعك إلي)؟

الجواب: لا يصح، لنفس العلة السابقة، أنها معطوفةٌ على بعضها عطف كلماتٍ، فلم يصح الوقف هنا، مع ملاحظة أنه من تتمة قول الله سبحانه وتعالى لعيسى عليه السلام، والله سبحانه وتعالى قد أخبره أنه متوفيه ورافعه إليه ومطهره من الذين كفروا، وهذا كله من تتمة قول الله سبحانه وتعالى، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ومطهرك من الذين كفروا)؟

اختلف علماء الوقف والابتداء في هذا الموضع، واختلافهم مبنيٌّ على النظر إلى الواو في قوله (وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة) فمنهم من جعلها واوًا استئنافيةً، يعني أن الكلام بعدها كلامٌ جديدٌ مبتدأٌ وليس كلامًا معطوفًا على ما سبق، وبالتالي يكون المعنى عندهم في قوله (وجاعل الذين اتبعوك) موجهٌ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فكأنه قال: وجاعل الذين اتبعوك يا محمد فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة.

والقول الثاني: جعلوا الواو في قوله (وجاعل) واوًا عاطفةً، فهو من تتمة كلام الله لعيسى عليه السلام، فالله تعالى قد أخبر عيسى عليه السلام بأنه سيجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وهذا القول هو الذي عليه جمهور المفسرين، وهو الذي يقتضيه سياق الآية، فإنه لا يصح أن أقول: ومطهرك يا عيسى وجاعل الذين اتبعوك يا محمد إلا بقرينةٍ صريحةٍ واضحةٍ.

مع العلم أن معنى: وجاعل الذين اتبعوك يا عيسى فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، أنهم الذين اتبعوك بحق، وهذا الاتباع بحقٍّ إنما كان في حق من لم يحرف دينه، ومن اتبعه فيما جاء به، ومما جاء به البشارة بنبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وبالتالي من أدرك نبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم منهم فلم يؤمن به لم يكن من أتباع عيسى عليه السلام حقًا، فهذا هو معنى الآية الذي عليه جمهور المفسرين، وبالتالي لا وقف على قوله (ومطهرك من الذين كفروا) والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن خبر الله لعيسى عليه السلام قد انتهى هنا، فالله قد أخبره أنه سيتوفاه ويرفعه إليه ويطهره من الذين كفروا ويجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، فانتهت هذه الأخبار الأربعة، ثم ابتدأ خبرًا جديدًا بـ (ثم)، و (ثم) هنا لترتيب الأخبار وليس لمجرد عطف الأفعال، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابًا شديدًا في الدنيا والآخرة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (أما) وما ارتبط بها قد انتهى هنا، ثم جاء بعدها جملةٌ مبدوءةٌ بالنفي، والنفي يصح الابتداء به عادةً، وإن كانت الجملة التي بعدها وهي قوله (وما لهم من ناصرين) هي من تتمة عقابهم إلا أنه ليس عقابًا مباشرًا، بل هو عقابٌ معنويٌ مبنيٌ على أنهم في عذابهم لن يجدوا من ينصرهم أو يخرجهم من هذا العذاب، وهو مرتبطٌ بما قبله ارتباطًا معنويًا لا لفظيًّا، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (أما) وما ارتبط بها قد انتهى هنا، ثم ابتدأ جملةً مستأنفةً بقوله (والله لا يحب الظالمين)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها لا وقف فيها: (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم).

ثم الآية التي تليها: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) هل يصح الوقف هنا؟

صحح الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (خلقه من تراب) هي جملةٌ مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا، فهي تفسيرٌ للمثل، بعد أن أخبر أن مثل عيسى كمثل آدم بيّن مثل آدم عليه السلام بأنه خلقه من ترابٍ ثم قال له كن فيكون، ولا يصح أن تكون جملة (خلقه من تراب) صفةً لآدم عليه السلام، لماذا؟ لأن (آدم) معرفة، والمعرفة لا توصف بالنكرة، والجملة نكرة، ولا يصح أيضًا أن تكون حالاً، لأن (خلقه) فعلٌ ماضٍ، ولا يصح أن تكون الجملة الحالية فعلها ماضٍ، ومن العلماء من قدّر (آدم) بأنها على تقدير رجل، حتى يجعلوه نكرةً، فيجعلوا (خلقه من ترابٍ) صفةً له، وهذا بعيدٌ، فالأصح أنها جملةٌ مستأنفةٌ فيصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثم قال له كن)؟

مر معنا هذا مرارًا، والجواب أنه يصح، وقد نص على هذا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن فعل الله سبحانه وتعالى أنه خلق آدم من ترابٍ ثم قال له (كن)، ثم ذكر نتيجة هذا الفعل بجملةٍ مستأنفةٍ بقوله (فيكون) فيصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (الحق من ربك) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوزه الأشموني، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وجعلوا جملة (الحق من ربك) على تقدير مبتدأٍ محذوفٍ أي: أمر عيسى الذي أنبأناك به هو الحق من ربك، ونحو ذلك من التقديرات، والأصح أن نحمل الجملة على عدم التقدير، يعني أن الله سبحانه وتعالى بين له أن الحق هو ما يأتيه من ربه، وأمره تجاه ذلك ألا يكون من الشاكين والمترددين، وبالتالي لا وقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم):

لا وقف فيها إلى نهايتها، كما نص عليه جميع علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن الآية مرتبطةٌ ببعضها ارتباطًا وثيقًا، فلاحظ بدايتها اشتمل على شرط (من) ثم فعل الشرط (حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم) ثم جوابه (فقل) ثم جاء المقول (تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم) ثم كلماتٌ معطوفةٌ على بعضٍ (أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) ثم كلمةٌ معطوفةٌ على (ندع)، (ثم نبتهل) ثم ما يتعلق بهذا الابتهال بأننا ندع ونبتهل ونجعل لعنة الله على الكاذبين، فلا وقف فيها من أولها إلى آخرها.

ومن أراد أن يقف فيها وقفًا حسنًا فإنه يصح له أن يقف على قوله (فقل تعالوا)، ثم يعود فيقول (فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم) ويقف هنا، ثم يعود فيقول (وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين).

الآية التي تليها: (إن هذا لهو القصص الحق) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنّ) قد انتهت باسمها وخبرها، ثم ابتدأ بعدها جملةً مبدوءةً بالنفي فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وما من إلهٍ إلا الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي وما ارتبط بها من الاستثناء قد انتهى، ثم ابتدأ بعدها جملةً مستأنفةً في قوله (وإن الله لهو العزيز الحكيم) مبدوءةً بـ (إنّ) التي يصح الابتداء بها عادةً، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

ثم الآية الأخيرة: (فإن تولوا فإن الله عليمٌ بالمفسدين):

لا وقف فيها لأنها مشتملةٌ على جملةٍ شرطيةٍ بفعلها وخبرها، ففعلها (تولوا) وخبرها جملة (فإن الله عليمٌ بالمفسدين).

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ٥٢-٦٣

(فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله...):

قال ابن كثير: والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: (مَن رجل يؤويني على أن أبلّغ كلام ربي، فإن قريشا قد منعوني أن أبلّغ كلام ربي)، حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر، وهكذا عيسى ابن مريم انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٥-٤٦).

(قال الحواريون نحن أنصار الله):

قال ابن كثير: والصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير، فقال: (إن لكل نبي حواريا، وحواريي الزبير). تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦).

(واشهد بأنا مسلمون):

قال الطبري: وهذا خبرٌ من الله عز وجل أن الإسلامَ دينُه الذي ابتعثَ به عيسى والأنبياءَ قبله، لا النصرانية ولا اليهوديةَ، وتبرئةٌ من الله لعيسى ممن انتحل النصرانية ودان بها، كما برّأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام، وذلك احتجاجٌ من الله تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم على وفد نجران. تفسير الطبري (٦/ ٤٥١-٤٥٢).

قال برهان الدين الكرماني: قوله: {بأنا مسلمون} في هذه السورة، وفي المائدة {بأننا}؛ لأن ما في المائدة أول كلام الحواريين، فجاء على الأصل، وما في هذه السورة تكرار لكلامهم، فجاز فيه التخفيف؛ لأن التخفيف فرع، والتكرار فرع، والفرع بالفرع أولى. أسرار التكرار في القرآن (ص: ٩١)

وقال ابن جماعة: قوله تعالى: (آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)، وفي المائدة: (وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ)؟

جوابه: أن آية المائدة في خطاب الله تعالى لهم أولا، وفي سياق تعداد نعمه عليهم أولا، فناسب سياقه تأكيد انقيادهم إليه أولا عند إيحائه إليهم. وآية آل عمران في خطابهم المسيح لا في سياق تعداد النعم، فاكتفى ثانيا بـ (أَنَّا) لحصول المقصود. كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١٣٠).

عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا} الآية التي في البقرة، وفي الآخرة منهما: {آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون}. صحيح مسلم (١/ ٥٠٢).

عن أبي هريرة، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم، يقرأ في ركعتي الفجر: {قل آمنا بالله وما أنزل علينا} في الركعة الأولى، وفي الركعة الأخرى بهذه الآية: {ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين}. سنن أبي داود (٢/ ٢٠).

(فاكتبنا مع الشاهدين):

قال الطبري: يقول: فأثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقرُّوا لك بالتوحيد، وصدّقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحِلَّنا محلهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصدَّ عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك. تفسير الطبري (٦/ ٤٥٢).

(ومكروا ومكر الله...):

قال ابن كثير: قال تعالى مخبرا عن ملأ بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى عليه السلام، وإرادته بالسوء والصلب، حين تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافرا، فأنهوا إليه أن هاهنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك، ويفند الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه، إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زانية، حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكّل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله من بينهم، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، عليه

السلام، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك. وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعنادا للحق ملازما لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد؛ ولهذا قال تعالى: {ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين}. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦).

وقال ابن القيم: في قوله: {ومكروا مكرا ومكرنا مكرا}، وفي قوله: {ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين}. قد قيل: إن تسمية ذلك مكرا وكيدا واستهزاء وخداعا من باب الاستعارة ومجاز المقابلة، نحو: {وجزاء سيئة سيئة مثلها}، ونحو قوله: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم}.

وقيل: -وهو أصوب- بل تسميته بذلك حقيقة على بابه؛ فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح، وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه، وحسن، وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له؛ فالأول مذموم، والثاني ممدوح، والرب تعالى إنما يفعل من ذلك ما يُحمد عليه عدلا منه وحكمة، وهو تعالى يأخذ الظالم والفاجر من حيث لا يحتسب لا كما يفعل الظلمة بعباده. إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١٧١).

(إذ قال الله يا عيسى...):

قال السيوطي: خطاب العين نحو: {وقلنا يا آدم اسكن}، {يا نوح اهبط}، {يا إبراهيم قد صدّقت}، {يا موسى لا تخف}، {يا عيسى إني متوفيك}، ولم يقع في القرآن الخطاب بِـ "يا محمد"، بل {يا أيها النبي}، {يا أيها الرسول}، تعظيما له وتشريفا، وتخصيصا بذلك عما سواه، وتعليما للمؤمنين ألا ينادوه باسمه. الإتقان في علوم القرآن (٣/ ١١٠).

(إني متوفيك):

قال ابن كثير: اختلف المفسرون في قوله: {إني متوفيك ورافعك إلي}... وقال الأكثرون: المراد بالوفاة هاهنا: النوم، كما قال تعالى: {وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار}، وقال تعالى: {الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها}، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول -إذا قام من النوم-: (الحمد

لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور)، وقال الله تعالى: {وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما} إلى قوله: {وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما * وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا}، والضمير في قوله: {قبل موته} عائد على عيسى، عليه السلام، أي: وإن من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موت عيسى، وذلك حين ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٦-٤٧).

وقال الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا، قولُ من قال: معنى ذلك: إني قابضك من الأرض ورافعك إليّ، لتواتر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال، ثم يمكث في الأرض مدة ذكَرها، اختلفت الرواية في مبلغها، ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه. تفسير الطبري (٦/ ٤٥٨-٤٦٠).

وقال زكريا الأنصاري: قوله تعالى: (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي). إن قلت: كيف قاله والله رفعه ولم يتوفه؟

قلت: لما هدده اليهود بالقتل، بشره الله بأنه لا يقبض روحه، إلا بالوفاة لا بالقتل، والواو لا تقتضي الترتيب، أو: إني متوفي نفسك بالنوم من قوله تعالى: (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها)، ورافعك وأنت نائم لئلا تخاف، بل تستيقظ وأنت في السماء آمن مقرب. فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن (١/ ٩١).

(ورافعك إليّ):

نقل ابن تيمية عن أبي الحسن الأشعري في إثبات علو الله تعالى قوله: وقال سبحانه: (يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي)، وقال سبحانه: (وما قتلوه يقينا * بل رفعه الله إليه)، قال الأشعري: وأجمعت الأمة على أن الله رفع عيسى صلى الله عليه وسلم إلى السماء. قال ابن تيمية: وهذا كله تصريح بأن الرفع والصعود إلى الله نفسه. بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية (٨/ ١٨٤).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها»، ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: {وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا}. صحيح البخاري (٤/ ١٦٨)، صحيح مسلم (١/ ١٣٥).

(وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة):

قال ابن تيمية: وأما قوله تعالى: {يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة}، فهذا حق كما أخبر الله به، فمن اتبع المسيح عليه السلام جعله الله فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، وكان الذين اتبعوه على دينه الذي لم يبدل قد جعلهم الله فوق اليهود، وأيضا فالنصارى فوق اليهود الذين كفروا به إلى يوم القيامة.

وأما المسلمون فهم مؤمنون به ليسوا كافرين به، بل لما بدّل النصارى دينه وبعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم بدين الله الذي بعث به المسيح وغيره من الأنبياء جعل الله محمدا وأمته فوق النصارى إلى يوم القيامة، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد، وإن أولى الناس بابن مريم لأنا، إنه ليس بيني وبينه نبي». الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢/ ١٧٨).

وقال ابن كثير: {وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة} وهكذا وقع؛ فإن المسيح عليه السلام، لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعا بعده؛ فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته، ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا: هو الله. وآخرون قالوا: هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالاتهم في القرآن، ورد على كل فريق.

فاستمروا كذلك قريبا من ثلاثمائة سنة، ثم نبع لهم ملك من ملوك اليونان، يقال له: قسطنطين، فدخل في دين النصرانية، قيل: حيلة ليفسده، فإنه كان فيلسوفا، وقيل: جهلا منه، إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه، وزاد فيه ونقص منه، ووضعت له القوانين والأمانة الكبيرة التي هي الخيانة الحقيرة، وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس، وزادوا في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه، فيما

يزعمون. وصار دين المسيح دين قسطنطين، إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد، وبنى المدينة المنسوبة إليه، واتبعه الطائفة المَلْكية منهم. وهم في هذا كله قاهرون لليهود، أيدهم الله عليهم لأنهم أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفارا، عليهم لعائن الله.
فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم، فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق -كانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض-إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي، خاتم الرسل، وسيد ولد آدم، الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق، فكانوا أولى بكل نبي من أمته، الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته، مع ما قد حرفوا وبدلوا. تفسير ابن كثير (٢/ ٤٧-٤٨).

وقال السعدي: كان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم. تفسير السعدي (ص: ١٣٢).

(وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم):
قال السعدي: {فيوفيهم أجورهم} دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضرا موفرا، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه. تفسير السعدي (ص: ١٣٢).

سبب نزول: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم...):
عن ابن عباس قوله: (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)، وذلك أن رهطًا من أهل نجران قدموا على محمد صلى الله عليه وسلم = وكان فيهم السيّد والعاقب = فقالوا لمحمد: ما شأنك تذكر صاحبنا؟ فقال: من هو؟ قالوا: عيسَى، تزعم أنه عبدُ الله! فقال محمد: أجل، إنه عبد الله. قالوا له: فهل رأيت مثلَ عيسى، أو أنبئت به؟ ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل صلى الله عليه وسلم بأمر ربِّنا السميع العليم فقال: قل لهم إذا أتوك: (إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم)، إلى آخر الآية. تفسير الطبري (٦/ ٤٦٨-٤٦٩).

قال الزركشي: وأما قوله تعالى: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم} فهو من تشبيه الغريب بالأغرب؛ لأن خلق آدم أغرب من خلق عيسى، ليكون أقطع للخصم، وأوقع في النفس.
وفيه دليل على جواز القياس، وهو رد فرع إلى أصل لشبه ما؛ لأن عيسى رُدّ إلى آدم لشبه بينهما، والمعنى أن آدم خُلق من تراب ولم يكن له أب ولا أم، فكذلك خُلق عيسى من غير أب. البرهان في علوم القرآن (٣/ ٤٢٦).

(خلقه من تراب):

قال الزركشي: {إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب}، ولم يقل من طين، كما أخبر به سبحانه في غير موضع: {إني خالق بشرا من طين}، إنما عدل عن الطين الذي هو مجموع الماء والتراب إلى ذكر مجرد التراب لمعنى لطيف، وذلك أنه أدنى العنصرين وأكثفهما، لما كان المقصود مقابلة من ادّعى في المسيح الإلهية أتى بما يصغّر أمر خلقه عند من ادّعى ذلك، فلهذا كان الإتيان بلفظ التراب أمسّ في المعنى من غيره من العناصر، ولما أراد سبحانه الامتنان على بني إسرائيل أخبرهم أنه يخلق لهم (من الطين كهيئة الطير) تعظيما لأمر ما يخلقه بإذنه؛ إذ كان المطلوب الاعتداد عليهم بخلقه ليعظّموا قدر النعمة به. البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣٧٨).

(ثم قال له كن فيكون):

قال الطبري: وأما قوله: (ثم قال له كن فيكون)، فإنما قال: (فيكون) وقد ابتدأ الخبر عن خلق آدم، وذلك خبر عن أمر قد تقضَّى، وقد أخرجَ الخبر عنه مُخرَج الخبر عما قد مضَى فقال جل ثناؤه: (خلقه من تراب ثم قال له كن)، لأنه بمعنى الإعلام من الله نبيَّه أن تكوينه الأشياء بقوله: (كن)، ثم قال: (فيكون)، خبرًا مبتدأ، وقد تناهى الخبر عن أمر آدم عند قوله: (كنْ). فتأويل الكلام إذًا: (إن مثَلَ عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن)، واعلم يا محمد، أن ما قال له ربك: (كن) فهو كائن.

فلما كان في قوله: (كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن)، دلالةٌ على أن الكلام يرادُ به إعلام نبي الله صلى الله عليه وسلم وسائر خلقه أنه كائن ما كوّنه ابتداءً من غير أصل ولا أوّل ولا عُنصر، استغنى بدلالة الكلام على المعنى. تفسير الطبري (٦/ ٤٧١-٤٧٢).

وقال السعدي: وفي هذه الآية وما بعدها دليل على قاعدة شريفة، وهي أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى {فماذا بعد الحق إلا الضلال}، وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة، يوردها المتكلمون، ويرتبها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه. تفسير السعدي (ص: ١٣٣).

(فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا...):

قال الطبري: لما فصَل جل ثناؤه بين نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبين الوفد من نصارى نجران، بالقضاء الفاصل والحكم العادل، أمرَه إن هم تولوا عما دعاهم إليه من الإقرار بوحدانية الله، وأنه لا ولد له ولا صاحبة، وأنّ عيسى عبدُه ورسوله، وأبوا إلا الجدلَ والخصومة أن يدعوَهم إلى الملاعنة. ففعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، انخزلوا فامتنعوا من الملاعنة، ودعوا إلى المصالحة. تفسير الطبري (٦/ ٤٧٨).

عن حذيفة، قال: جاء العاقب والسيد، صاحبا نجران، إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فلاعنّا لا نفلح نحن، ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلا أمينا، ولا تبعث معنا إلا أمينا... صحيح البخاري (٥/ ١٧٢).

وعن ابن عباس قال: (لو خرج الذين يُباهلون النبّي صلى الله عليه وسلم لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا). تفسير الطبري (٦/ ٤٨٢).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ٥٢-٦٣

١- كن كالحواريين في المبادرة إلى نصرة دين الله، والدعوة إليه، والدفاع عنه، واعلم أن هذا من مقتضيات إيمانك بالله وانقيادك لشرعه (فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون).

٢- إذا أردت أن يستجيب الله دعاءك فتوسّل إليه سبحانه بإيمانك بالقرآن واتّباعك للرسول صلى الله عليه وسلم، ثمّ اطلب حاجتك وأبشر (ربنا آمنا بما أنزلت واتّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين).

٣- من شرار الناس من يمكرون بالعلماء والصالحين أو يكيدون بهم، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، ومن عادى لله وليا فقد آذنه الله بالحرب، ولا يحيق المكر السيّء إلا بأهله، والله ناصرٌ دينه ولو كره الكافرون (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين).

٤- أكرم الله عيسى عليه السلام برفعه حيا إلى السماء وتخليصه من كيد الكفار، وهو القادر على كل شيء سبحانه (إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا).

٥- وعد الله أتباع الأنبياء بحق وصدق أن تكون لهم العزة والرفعة في الدنيا قبل الآخرة، فما حصل لنا من ذل وهوان فهو بسبب ضعف اتّباعنا للنبي صلى الله عليه وسلم، ولا عزة ولا كرامة ولا رفعة إلا بالرجوع إلى هدي النبي صلى الله عليه وسلم، واتّباعه، والتواصي على ذلك، والتعاون عليه (وجاعل الذين اتّبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة).

٦- اعلم أنك سترجع إلى الله، فيحكم بينك وبين خصومك، فتمسّك بالحق وعضّ عليه بالنواجذ، وإياك وشبهات الزائغين، وتشويش المنحرفين، وإن زخرفوه لك بالقول (ثم إليّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم).

٧- احذر من الظلم، فإن الله لا يحب الظالمين، ولا يهدي القوم الظالمين، والظلم ظلمات يوم القيامة، وعاقبة الظلم وخيمة في الدنيا والآخرة، والمفلس حقا يوم القيامة هم الظالمون (والله لا يحب الظالمين).

٨- اجعل لنفسك وقتا تتدبّر فيه القرآن وتتفكّر في معانيه وأحكامه وتشريعاته، ليستنير قلبك، وتسمو نفسك، ويصفو عقلك، ويصلح بالك، وتستقيم حياتك، وتعلو همّتك، ويزيد إيمانك، فإنه ذكر حكيم من لدن عليم حكيم (ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم).

٩- من الأجوبة المفحِمة للخصم، المُسكِتة للمعاند، قياس المسألة المختلف فيها على ما يشبهها في الصورة مما يتّفق الطرفان على حكمه (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم).

١٠- إذا أتاك بيان حكم من الله في كتابه الحكيم أو على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم فاعلم أنه الحق الذي لا مرية فيه ولا شك يعتريه، فامتثله وتمسّك به مع كامل الرضا والسرور به، ولا تُشغِل نفسك بعد ذلك بشبهات المشكّكين، وتحريفات الزائغين، ولا تُلقِ لها بالا، ولا ترفع بها رأسا، بل ولا تستمع إليها، وامضِ في طريقك بثقة ويقين (الحق من ربك فلا تكن من الممترين)، (إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (٦٤-٧٤) من التفسير الميسّر

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)

قل -أيها الرسول- لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: تعالَوْا إلى كلمة عدل وحق نلتزم بها جميعًا: وهي أن نَخُص الله وحده بالعبادة، ولا نتخذ أي شريك معه، من وثن أو صنم أو صليب أو طاغوت أو غير ذلك، ولا يدين بعضنا لبعض بالطاعة من دون الله. فإن أعرضوا عن هذه الدعوة الطيبة فقولوا لهم -أيها المؤمنون-: اشهدوا علينا بأنا مسلمون منقادون لربنا بالعبودية والإخلاص. والدعوة إلى كلمة سواء، كما تُوجَّه إلى اليهود والنصارى، توجَّه إلى من جرى مجراهم.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٥)

يا أصحاب الكتب المنزلة من اليهود والنصارى، كيف يجادل كل منكم في أن إبراهيم عليه السلام كان على ملَّته، وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده؟ أفلا تفقهون خطأ قولكم: إن إبراهيم كان يهوديـًا أو نصرانيـًا، وقد علمتم أن اليهودية والنصرانية حدثت بعد وفاته بحين؟

هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٦٦)

ها أنتم يا هؤلاء جادلتم رسول الله محمدًا صلى الله عليه وسلم فيما لكم به علم مِن أمر دينكم، مما تعتقدون صحته في كتبكم، فلِمَ تجادلون فيما ليس لكم به علم من أمر إبراهيم؟ والله يعلم الأمور على خفائها، وأنتم لا تعلمون.

مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧)

ما كان إبراهيم يهوديـًا ولا نصرانيـًا، فلم تكن اليهودية ولا النصرانية إلا من بعده، ولكن كان متبعًا لأمر الله وطاعته، مستسلمًا لربه، وما كان من المشركين.

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

إنَّ أحق الناس بإبراهيم وأخصهم به، الذين آمنوا به وصدقوا برسالته واتبعوه على دينه، وهذا النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا به. والله وليُّ المؤمنين به المتبعين شرعه.

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩)

تمنَّت جماعة من اليهود والنصارى لو يضلونكم -أيها المسلمون- عن الإسلام، وما يضلون إلا أنفسهم وأتباعهم، وما يدرون ذلك ولا يعلمونه.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠)

يا أهل التوراة والإنجيل لم تجحدون آيات الله التي أنزلها على رسله في كتبهم، وفيها أن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو الرسول المنتظر، وأن ما جاءكم به هو الحق، وأنتم تشهدون بذلك؟ ولكنكم تنكرونه.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١)

يا أهل التوراة والإنجيل لِمَ تخلطون الحق في كتبكم بما حرفتموه وكتبتموه من الباطل بأيديكم، وتُخْفون ما فيهما من صفة محمد صلى الله عليه وسلم، وأن دينه هو الحق، وأنتم تعلمون ذلك؟

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢)

وقالت جماعة من أهل الكتاب من اليهود: صدِّقوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا أول النهار واكفروا آخره؛ لعلهم يتشككون في دينهم، ويرجعون عنه.

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣)

ولا تصدِّقوا تصديقًا صحيحًا إلا لمَن تبع دينكم فكان يهوديًا، قل لهم -أيها الرسول-: إن الهدى والتوفيق هدى الله وتوفيقه للإيمان الصحيح. وقالوا: لا تظهروا ما عندكم من العلم للمسلمين فيتعلمون منكم فيساووكم في العلم به، وتكون لهم الأفضلية عليكم، أو أن يتخذوه حجة عند ربكم يغلبونكم بها. قل لهم -أيها الرسول-: إن الفضل والعطاء والأمور كلها بيد الله وتحت تصرفه، يؤتيها من يشاء ممن آمن به وبرسوله. والله واسع عليم، يَسَعُ بعلمه وعطائه جميع مخلوقاته، ممن يستحق فضله ونعمه.

يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

إن الله يختص مِن خلقه مَن يشاء بالنبوة والهداية إلى أكمل الشرائع، والله ذو الإحسان والعطاء الكثير الواسع.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (٦٤-٧٤)

الكلمة	المعنى
كلمةٍ سواء	كلمةِ عدلٍ وحقٍ
أرْبابًا	آلهة يعبدونهم ويطيعونهم من دون الله
تُحاجّون	تُجادِلون
حنيفًا	مائلا عن الشرك إلى التوحيد
وليّ المؤمنين	ناصرهم ومؤيّدهم
ودّت	تَمنَّت
تَلبِسون	تَخلِطون وتسترون
وَجه النهار	أول النهار

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ٦٤-٧٤

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الرابعة والستين وحتى الآية الرابعة والسبعين.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على صحة الوقف هنا الإمام نافع والأنصاري، ولم ينص عليه بقية علماء الوقف والابتداء، وذلك أن جملة (ألا نعبد إلا الله) تحتمل أن تكون خبر مبتدأ محذوف، وتحتمل أيضًا أن تكون في محل جرٍ بدلاً من (كلمة) يعني: كلمةٍ هي ألا نعبد إلا الله، فيصير التقدير: تعالوا إلى ترك عبادة غير الله، وهذا هو الأقرب، وهو الذي عليه أكثر علماء الوقف والابتداء، والله أعلم.

وهنا نبه الأشموني رحمه الله إلى أن الغالب أنه لا يبتدأ بـ (ألّا)، لأن الغالب أنها تكون في محل نصبٍ أو جرٍ، فهي مفتقرةٌ إلى عاملها، يعني الناصب أو الجار، وبالتالي لا وقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ألّا نعبد إلا الله)؟

جوّز الوقف هنا الأنصاري دون غيره من علماء الوقف والابتداء، والصحيح أنه لا وقف هنا، لأن قوله (ولا نشرك به شيئًا) وإن كانت جملةً معطوفةً على ما قبلها، إلا أنها من تتمة بيان الجملة الأولى، فالكلمة التي تكون بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، وعدم عبادة غير الله يقتضي ألا نشرك به شيئًا، وألا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فهي جملٌ معطوفاتٌ لكن عطفها وثيق الصلة، لأنها مبينةٌ لبعضها، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الكلمة التي ندعوهم إليها وبيانها قد انتهى هنا، ثم بين حالهم إن تولوا عن ذلك وماذا يقال لهم؟ قال (فإن تولوا فقولوا اشهدوا)، وهذه جملةٌ شرطيةٌ، والشرط يصح الابتداء به عادةً.

الآية التي تليها: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده) جملةٌ حاليةٌ يعني كأنه قال: لم تحاجون في إبراهيم والحال أنه لم تنزل التوراة والإنجيل إلا من بعده، فلا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (إلا من بعده)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الاستفهام الأول الذي وجّه إليهم في قوله (لم تحاجّون في إبراهيم) قد انتهى مع ما ارتبط به من الجملة الحالية، ثم ابتدأ استفهامًا جديدًا في قوله (أفلا تعقلون) فيصح الابتداء به، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم) هل يصح الوقف هنا؟

جوز الوقف هنا الأشموني دون غيره من علماء الوقف والابتداء، ونص على أنه يصح للابتداء بالاستفهام بعده، وهو قوله (فلم تحاجون...)، لكن إذا تأملنا فإن الفاء هنا عاطفة، وهذا الاستفهام من تتمة بيان خطئهم في الاحتجاج، وذلك أنهم إذا حاجوا فيما لهم به علم فلمَ يخطئون ويحاجون فيما ليس لهم به علم، فتبين أنها جملةٌ مرتبطةٌ بما قبلها ارتباطًا وثيقًا، فلم يصح الوقف، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الجملة التي تضمنت بيان بطلان احتجاجهم وخطئهم في الاحتجاج فيما ليس لهم به علم قد انتهت هنا، ثم جاءت بعدها جملةٌ مستأنفةٌ في قوله (والله يعلم وأنتم لا تعلمون)، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا) هل يصح الوقف هنا؟

جوز الوقف هنا الأنصاري دون غيره من علماء الوقف والابتداء، بل نص الأشموني على المنع من الوقف هنا، قال: لأن (لكن) هنا حرفٌ يقع بين نقيضتين، وهما: اعتقاد الباطل واعتقاد الحق، ولا تتم الجملة إلا بتبرئة إبراهيم عليه السلام من اليهودية والنصرانية وإثبات كونه حنيفًا مسلمًا، وبالتالي لم يصح الوقف على قوله (ولا نصرانيّا).

وهل يصح الوقف على قوله (ولكن كان حنيفًا مسلمًا)؟

جوّز الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ولم ينص عليه البعض الآخر، وإذا تأملنا فإن قوله (وما كان من المشركين) جملةٌ معطوفةٌ على قوله (كان حنيفًا مسلمًا) لكن الوقف هنا له وجه، لأن بيان أن إبراهيم عليه السلام كان مسلمًا ولم يكن يهوديًا ولا نصرانيًا هو المطلوب في هذه الجملة، لأنها في محاجة من قال: إن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا، فانتهت الجملة والرد عليهم هنا، ثم زاد الله على ذلك بيان أنه لم يك من المشركين أيضًا، لينفي انتساب المشركين إليه أيضًا، كما نفى انتساب اليهود والنصارى إليه، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الإمام يعقوب، ونص النحاس على أنه خالفه غيره، إذ لم ينص عليه أحدٌ غيره، والصحيح عدم الوقف هنا، لأن قوله (وهذا النبي والذين آمنوا) معطوفٌ على (للذين اتبعوه) فمعنى الجملة: إن أولى الناس وأحقهم بإبراهيم عليه السلام الذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا، فهؤلاء كلهم هو أولى الناس بإبراهيم، فلا وقف إلا على قوله (والذين آمنوا) كما نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، لأنه نهاية جملة (إنّ) وما عطف عليها، ثم ابتدأ بعدها جملةً مستأنفةً في قوله (والله ولي المؤمنين) فصح الوقف هنا.

الآية التي تليها: (ودت طائفةٌ من أهل الكتاب لو يضلونكم) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، وإذا تأملنا فإن قوله (وما يضلون إلا أنفسهم) تحتمل أن تكون جملةً حاليةً، يعني: والحال أنهم لا يضلون إلا أنفسهم، وتحتمل أن تكون جملةً مستأنفةَ، بعد أن أخبر الله سبحانه وتعالى أنهم يتمنون أن يضلوا المسلمين بين أنهم لا يضلون إلا أنفسهم، وإذا جعلناها جملةً مستأنفةً صح الوقف هنا، وإذا جعلناها جملةً حاليةً لم يصح الوقف هنا، والأمر في هذا محتملٌ، والوصل أولى، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وما يضلون إلا أنفسهم)؟

الجواب: لا يصح، ووجه ذلك أن قوله (وما يشعرون) معطوفٌ على (وما يضلون إلا أنفسهم) لكنه عطفٌ وثيق الصلة، لأن من تتمة بيان أنهم لا يضلون إلا أنفسهم أنهم لا يشعرون بذلك، أي بأنهم لا يضلون إلا أنفسهم.

الآية التي تليها: (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (وأنتم تشهدون) جملةٌ حاليةٌ، فمعناها: لم تكفرون بآيات الله والحال أنكم تشهدون بالحق.

الآية التي تليها: (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وتكتمون الحق) مرتبطٌ بالاستفهام الذي قبله، أي كأنه قال: لم تلبسون الحق بالباطل ولم تكتمون الحق؟ فلم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (وتكتمون الحق)؟

الجواب: لا يصح، لأن جملة (وأنتم تعلمون) جملةٌ حاليةٌ، يعني والحال أنكم تعلمون الحق.

الآية التي تليها: (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (واكفروا آخره) من تتمة الأمر، فإنهم قالوا آمنوا بهم أول النهار واكفروا بهم آخره، فهو من تتمة أمرهم لأتباعهم.

وهل يصح الوقف على قوله (واكفروا آخره)؟

الجواب: لا يصح، نص على ذلك الأشموني، لماذا؟ لوجود حرف الترجي بعده وهو (لعل)، وهذا الترجي مرتبطٌ بالجملة السابقة، فكأنهم قالوا: آمنوا بهم وبما أنزل عليهم أول النهار واكفروا بذلك آخره لعلهم يشكون في دينهم، فهي من تتمة الجملة، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) أين الوقف في هذه الآية؟

هنا ثلاثة أقوال:

فمن العلماء من نص على الوقف على قوله (لمن تبع دينكم)، وهم الهبطي وأحمد بن موسى والسجاوندي والأنصاري.

ومنهم من نص على أن الوقف على قوله (قل إن الهدى هدى الله)، وهم يعقوب، وصححه السجاوندي والداني والأنصاري على قراءة ابن كثير في الجملة التي تليها وهي (أن يؤتى) على قراءة (آن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم)، ولم يصححوه على قراءة الجمهور، فلم يصححه على قراءة الجمهور إلا يعقوب.

والقول الثالث: أنه لا وقف في هاتين الجملتين.

وهذه الآية كما نص الواحدي رحمه الله من الآيات المشكلات المتشابهات التي اختلف فيها العلماء اختلافًا كبيرًا، حتى نص الأشموني على أن للقراء في محل جملة (أن يؤتى) خمسة أوجه، وللمعربين فيها تسعة أوجه، وتكلم عن الوقف في هذه الآية بكلامٍ طويلٍ جدًا ثم قال في نهاية ذلك: وهذا الوقف جديرٌ بأن يخصّ بتأليف.

وخلاصة ما في الأمر هو أنه قد جاءت جملةٌ معترضةٌ وهي قوله (قل إن الهدى هدى الله)، على قول أكثر المفسرين هي جملةٌ معترضةٌ، وأن قوله (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) مرتبط بقوله (أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم)، وبناءً على ذلك نظروا إلى أنه لا يصح الوقف في هاتين الجملتين لوجود الارتباط الوثيق بين جملة (ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) وجملة (أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم)، فالمعنى عندهم أي: لا تصدقوا أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم، أو: لا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم، أو: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم إلا من تبع دينكم، فكأنهم يقولون: إن معنى الآية: لا تصدقوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم قد نزل عليه الوحي وجاءته الرسالة كما جاءت موسى عليه السلام فلا تصدقوا بذلك، واعلموا أنه لن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم من النبوة والرسالة والشريعة ونحو ذلك، وعلى هذه التقديرات كلها لا وقف في هذين الموضعين،

وهذه التقديرات هي الأقرب في توجيه هذه الآية، وبناءً عليه لا وقف إلا على قوله (أو يحاجوكم عن ربكم) إلا على قراءة ابن كثير، كما سبق بيانه في أنه قرأ (آن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم) على الاستفهام، أي: تقدير ذلك عنده: هل لأنه أوتي أحدٌ مثل ما أوتيتم تصدقونه؟ فعلى هذه القراءة يصح الوقف على قوله (قل إن الهدى هدى الله) أما على قراءة الجمهور فإنه لا يصح الوقف إلا على قوله (أو يحاجوكم عند ربكم)، وقد نص على الوقف على قوله (عند ربكم) عامة علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن قولهم وتآمرهم فيما بينهم قد انتهى هنا، ثم بدأ رد الله سبحانه وتعالى عليهم في قوله (قل إن الفضل بيد الله).

وهل يصح الوقف على قوله (بيد الله)؟

نص على الوقف هنا الهبطي والسجاوندي والأشموني، وإذا تأملنا فإن قوله (يؤتيه من يشاء) جملةٌ تحتمل الاستئناف، وتحتمل أن تكون خبر مبتدأ محذوف تقديره: هو، أي هو سبحانه يؤتي فضله من يشاء، أو هي خبرٌ ثانٍ لـ (إنّ) وهذا هو الأقرب، وبناءً عليه لا وقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (يؤتيه من يشاء)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةً مستأنفةٌ وهي قوله (والله واسعٌ عليمٌ).

الآية الأخيرة: (يختصّ برحمته من يشاء) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده جملةٌ مستأنفةٌ وهي قوله (والله ذو الفضل العظيم).

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ٦٤-٧٤

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم...):

قال ابن تيمية: لفظ (الكلمة) في القرآن والحديث وسائر لغة العرب إنما يراد به: الجملة التامة، كقوله صلى الله عليه وسلم: {كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم}، وقوله: {إن أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل}، ومنه قوله تعالى: {كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا}، وقوله تعالى: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} الآية، وقوله تعالى: {وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا}، وأمثال ذلك؛ ولا يوجد لفظ الكلام في لغة العرب إلا بهذا المعنى، والنحاة اصطلحوا على أن يسموا الاسم وحده والفعل والحرف كلمة، ثم يقول بعضهم: وقد يراد بالكلمة الكلام؛ فيظن من اعتاد هذا أن هذا هو لغة العرب. مجموع الفتاوى (١/ ٢٤٥-٢٤٦).

(ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله):

قال ابن تيمية: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابـاً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا إِلَهـاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ}. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال فكانت تلك عبادتهم). وقال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئـاً} هذا حق الخالق، {وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضـاً أَرْبَابـاً مِنْ دُونِ اللهِ} وهذا حق المخلوق، {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}. فتارة يجعلون في المعظمين من البشر نوعا من الإلهية. بغية المرتاد (ص: ٤٩٧).

(فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون):

قال السعدي: وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فأشهدوهم أنكم مسلمون، ولعل الفائدة في ذلك:

أنكم إذا قلتم لهم ذلك وأنتم أهل العلم على الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم، كما استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين.

وأيضا: فإنكم إذا أسلمتم أنتم وآمنتم فلا يعبأ الله بعدم إسلام غيركم، لعدم زكائهم ولخبث طويتهم، كما قال تعالى: {قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا} الآية.

وأيضا: فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية ما يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن بإسلامه، إخبارا بيقينه وشكرا لنعمة ربه. تفسير السعدي (ص: ١٣٣-١٣٤).

قال السعدي: هذه الآية الكريمة، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحيانا في الركعة الأولى من سنة الفجر: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ} الآية، ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئا من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية. تفسير السعدي (ص: ٩٦٨).

عن عبد الله بن عباس، أنه كان يقول: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقرأ في ركعتيه قبل الفجر بفاتحة القرآن، والآيتين من خاتمة البقرة في الركعة الأولى، وفي الركعة الآخرة بفاتحة القرآن، وبالآية من آل عمران: {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم} حتى يختم الآية. مسند أحمد (٤/ ٢١٤).

عن ابن عباس قال: أكثر ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ في ركعتي الفجر {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم}، إلى آخر الآية، وفي الأخرى {قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم}، إلى قوله: {اشهدوا بأنا مسلمون}. صحيح ابن خزيمة (٢/ ١٦٣)، المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٤٥٠).

في الصحيحين من حديث ابن عباس أن هرقل دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين) و {يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}. صحيح البخاري (١/ ٩)، صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٥).

سبب نزول: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم...) وما بعدها:

عن ابن عباس قال: اجتمعت نصارى نجران وأحبارُ يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: ما كان إبراهيمُ إلا يهوديًّا، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانيًّا! فأنزل الله عز وجل فيهم: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراةُ والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون)، قالت النصارى: كان نصرانيًّا! وقالت اليهود: كان يهوديًّا! فأخبرهم الله أنّ التوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعده، وبعده كانت اليهودية والنصرانية. تفسير الطبري (٦/ ٤٩٠).

قال السعدي: لما ادّعى اليهود أن إبراهيم كان يهوديا، والنصارى أنه نصراني، وجادلوا على ذلك، رد تعالى محاجتهم ومجادلتهم من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في أمر هم أجانب عنه، وهم جادلوا في أحكام التوراة والإنجيل سواء أخطأوا أم أصابوا فليس معهم المحاجة في شأن إبراهيم.

الوجه الثاني: أن اليهود ينتسبون إلى أحكام التوراة، والنصارى ينتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم، فكيف ينسبون إبراهيم إليهم وهو قبلهم متقدم عليهم؟ فهل هذا يعقل؟! فلهذا قال {أفلا تعقلون}، أي: فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك.

الوجه الثالث: أن الله تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى والمشركين، وجعله حنيفا مسلما، وجعل أولى الناس به من آمن به من أمته، وهذا النبي وهو محمد صلى الله على وسلم ومن آمن معه، فهم الذين

اتبعوه وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وليهم وناصرهم ومؤيدهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود والنصارى والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب. تفسير السعدي (ص: ١٣٤).

وقال السعدي: وفيها أيضا حث على علم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من التاريخ. تفسير السعدي (ص: ١٣٤).

(فلم تحاجّون فيما ليس لكم به علم):

قال ابن تيمية: وقد يقول الرجل ويحكم بغير علم فيأثم على ذلك، كما يأثم إذا قال بخلاف ما يعلمه من الحق، وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة. رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق فقضى بخلافه فهو في النار). وقد ذم الله القول بغير علم ونهى عنه في غير موضع من كتابه. الإخنائية (ص: ٩٧).

وقال أيضا: الذي جاء به الكتاب والسنة النهي عن أمور:

منها: القول على الله بلا علم، كقوله {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}، وقوله {ولا تقف ما ليس لك به علم}.

ومنها: أن يقال عليه غير الحق، كقوله {ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق}، وقوله {لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق}.

ومنها: الجدل بغير علم، كقوله {ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم}.

ومنها: الجدل في الحق بعد ظهوره، كقوله {يجادلونك في الحق بعدما تبين}.

ومنها: الجدل بالباطل، كقوله {وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق}.

ومنها: الجدل في آياته، كقوله: {ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا}، وقوله {الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا}. مجموع الفتاوى (٣/ ٣٠٩-٣١٠).

(ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين):

عن ابن عمر: (أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين، ويتبعه، فلقي عالما من اليهود فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلي أن أدين دينكم، فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئا أبدا، وأنى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديا، ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله، فخرج زيد فلقي عالما من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئا أبدا، وأنى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفا، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهوديا ولا نصرانيا، ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم). صحيح البخاري (٥/ ٤٠-٤١) معلقا.

(إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتّبعوه وهذا النبي والذين آمنوا):

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم أبي، وخليل ربي عز وجل)، ثم قرأ: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا}. مسند أحمد (٧/ ١٦٧)، سنن الترمذي (٥/ ٧٣).

قال ابن تيمية: كل من رغب عن ملة إبراهيم فهو سفيه. قال أبو العالية: رغبت اليهود والنصارى عن ملة إبراهيم، وابتدعوا اليهودية والنصرانية، وليست من الله، وتركوا دين إبراهيم. وكذلك قال قتادة: بدلوا دين الأنبياء واتبعوا المنسوخ. فأما موسى والمسيح ومن اتبعهما فهم على ملة إبراهيم، متبعون له، وهو إمامهم. وهذا معنى قوله: {إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا}. فهو يتناول

الذين اتبعوه قبل مبعث محمد وبعد مبعثه. وقيل: إنه عام قال الحسن البصري: كل مؤمن ولي إبراهيم ممن مضى وممن بقي. وقال الربيع بن أنس: هم المؤمنون الذين صدقوا نبي الله واتبعوه، وكان محمد والذين معه من المؤمنين أولى الناس بإبراهيم. وهذا وغيره مما يبين أن اليهود والنصارى لا يعبدون الله وليسوا على ملة إبراهيم. مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٧٢).

(والله ولي المؤمنين):

قال ابن القيم: ولاية الله تعالى لعبده هي بحسب إيمانه، قال تعالى: {والله ولي المؤمنين}، وقال الله تعالى: {الله ولي الذين آمنوا}. وكذلك معيته الخاصة هي لأهل الإيمان، كما قال تعالى: {وأن الله مع المؤمنين}. فإذا نقص الإيمان وضعف، كان حظ العبد من ولاية الله له ومعيته الخاصة بقدر حظه من الإيمان.

وكذلك النصر والتأييد الكامل إنما هو لأهل الإيمان الكامل، قال تعالى: {إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد}، وقال: {فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين}. فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد.

ولهذا إذا أصيب العبد بمصيبة في نفسه أو ماله، أو بإدالة عدوه عليه، فإنما هي بذنوبه، إما بترك واجب، أو فعل محرم، وهو من نقص إيمانه.

وبهذا يزول الإشكال الذي يورده كثير من الناس على قوله تعالى: {ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا}، ويجيب عنه كثير منهم بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الآخرة، ويجيب آخرون بأنه لن يجعل لهم عليهم سبيلا في الحجة.

والتحقيق: أنها مثل هذه الآيات، وأن انتفاء السبيل عن أهل الإيمان الكامل، فإذا ضعف الإيمان صار لعدوهم عليهم من السبيل بحسب ما نقص من إيمانهم، فهم جعلوا لهم عليهم السبيل بما تركوا من طاعة الله تعالى.

فالمؤمن عزيز غالب مؤيد منصور مكفي، مدفوع عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته ظاهرا وباطنا. وقد قال تعالى للمؤمنين: {ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٨٢-١٨٣).

(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم...):

قال السعدي: ومن المعلوم أن من ود شيئا سعى بجهده على تحصيل مراده، فهذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طريق يقدرون عليه، ولكن من لطف الله أنه لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فلهذا قال تعالى: {وما يضلون إلا أنفسهم}، فسعيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة عذاب لهم. تفسير السعدي (ص: ١٣٤).

سبب نزول: (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق...):

عن ابن عباس قال: (قال عبد الله بن الصيِّف، وعَدي بن زيد، والحارث بن عوف، بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدْوةً ونكفُر به عشيةً، حتى نلبّس عليهم دينهم، لعلهم يصنعون كما نصنعُ، فيرجعوا عن دينهم! فأنزل الله عز وجل فيهم: (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحقّ بالباطل) إلى قوله: (والله واسع عليم). تفسير الطبري (٦/ ٥٠٤)

قال ابن تيمية: قوله: {يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون} ذمهم على الوصفين، وكل منهما مقتض للذم، وهما متلازمان؛ ولهذا نهى عنهما جميعا في قوله: {ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون}، فإنه من لبس الحق بالباطل فغطاه به لزم أن يكتم الحق الذي تبين أنه باطل؛ إذ لو بينه زال الباطل الذي لبّس به الحق. مجموع الفتاوى (١٩/ ١٩٤)

وقال السعدي: العلماء إذا لبّسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أبقوا الأمر مبهما، وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، ولم يهتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفته حتى يؤثروه، والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلنوا به، ويميزوا الحق من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيب، والحلال والحرام، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة، ليهتدي المهتدون ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين. تفسير السعدي (ص: ١٣٤-١٣٥).

وقال ابن تيمية: ومن استقرأ أحوال الناس رأى أن عامة من ينتصر للبدع مظهرًا أنه ينصر الرسول، هو بالعكس، ليس له في نصر الله، ورسوله، والجهاد في سبيله، سعي مشكور، ولا مقام مذكور، بل هم معرضون عن الجهاد المأمور به، وعن نصر كتاب الله، ودينه، ورسوله، وكثير منهم هو محاد لله ورسوله، يكذب بما أخبر به الرسول، وينفي ما أثبته، ويثبت ما نفاه، ويأمر بما نهى عنه، وينهى عما أمر به. وكثير منهم، أو أكثرهم، يفعل ذلك ضلالاً، وجهلاً، وظنًّا أنه على الحق. قاعدة عظيمة في الفرق بين عبادات أهل الإسلام والإيمان وعبادات أهل الشرك والنفاق (ص: ١٤٥).

وقال ابن القيم: البدع لو كانت باطلا محضا لما قبلت، ولبادر كل أحد إلى ردها وإنكارها، ولو كانت حقا محضا لم تكن بدعة، وكانت موافقة للسنة، ولكنها تشتمل على الحق والباطل، ويلتبس فيها الحق والباطل، كما قال الله تعالى: {لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون}، فنهى عن لبس الحق بالباطل، ولبسه به: خلطه به حتى يلتبس أحدهما بالآخر، ومنه التدليس، وهو التدليس والغش الذي باطنه خلاف ظاهره، فكذلك الحق إذا لبّس بالباطل يكون فاعله قد أظهر الباطل في صورة الحق وتكلم بلفظ له معنيان، معنى صحيح ومعنى باطل، فيتوهم السامع أنه أراد المعنى الصحيح، ومراده الباطل، فهذا من الإجمال في اللفظ.
وأما الاشتباه في المعنى فيكون له وجهان، وهو حق من أحدهما، وباطل من الآخر، فيوهم إرادة الوجه الصحيح، ويكون غرضه الباطل، فأصل ضلال بني آدم من الألفاظ المجملة والمعاني المشيبة، ولا سيما إذا صادفت أذهانا سقيمة، فكيف إذا انضاف إلى ذلك هوى وتعصب؟ فنسأل الله مثبت القلوب أن يثبت قلوبنا على دينه. مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (ص: ١٣٤).

سبب نزول: (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار...):
عن السدي: كان أحبارُ قُرَى عربيةَ اثني عشر حبرًا، فقالوا لبعضهم: ادخلوا في دين محمد أول النهار، وقولوا: نشهد أن محمدًا حقّ صادقٌ، فإذا كان آخر النهار فاكفروا وقولوا: إنا رجعنا إلى علمائنا وأحبارنا فسألناهم، فحدَّثونا أن محمدًا كاذب، وأنكم لستم على شيء، وقد رجعنا إلى ديننا فهو أعجب إلينا من

دينكم، لعلهم يشكّون، يقولون: هؤلاء كانوا معنا أوّل النهار، فما بالهم؟ فأخبر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بذلك. تفسير الطبري (٦/ ٥٠٧).

(وجه النهار):

قال الطبري: وسمَّى أوّله وجهًا له، لأنه أحسنه، وأوّلُ ما يواجه الناظرَ فيراه منه، كما يقال لأول الثوب: وجهه، وكما قال ربيع بن زياد: مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بمَقْتَلِ مَالِكٍ ... فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ. تفسير الطبري (٦/ ٥٠٩).

(ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله):

قال البغوي: (قل إن الهدى هدى الله)، هذا خبر من الله تعالى أن البيان بيانه، ثم اختلفوا فيه:

فمنهم من قال: هذا كلام معترض بين كلامين، وما بعده متصل بالكلام الأول إخبار عن قول اليهود بعضهم لبعض، ومعناه: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم والكتاب والحكمة والآيات من المن والسلوى وفلق البحر وغيرها من الكرامات، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنكم أصح دينا منهم، وهذا معنى قول مجاهد.

وقيل: إن اليهود قالت لسفلتهم: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من العلم، أي: لئلا يؤتى أحد، و «لا» فيه مضمرة، كقوله تعالى: (يبين الله لكم أن تضلوا)، أي: لئلا تضلوا، يقول: لا تصدقوهم لئلا يعلموا مثل ما علمتم فيكون لكم الفضل عليهم في العلم، ولئلا يحاجوكم عند ربكم فيقولوا: عرفتم أن ديننا حق، وهذا معنى قول ابن جريج. تفسير البغوي (١/ ٤٥٦).

وقال السعدي: {ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم} أي: لا تثقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، واكتموا أمركم، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحجة وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالحاصل أنهم جعلوا عدم إخبار المؤمنين بما معهم من العلم قاطعا عنهم العلم، لأن العلم بزعمهم لا يكون إلا عندهم وموجبا للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن {الهدى هدى الله} فمادة الهدى

من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم الحق، أو إيثاره، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لخبث نياتهم وسوء مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم ولله الحمد من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فلهذا قال تعالى: {قل إن الفضل بيد الله} أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان {يؤتيه من يشاء} ممن أتى بأسبابه. تفسير السعدي (ص: ١٣٥).

(قل إن الهدى هدى الله):

قال برهان الدين الكرماني: قوله: {قل إن الهدى هدى الله} في هذه السورة، وفي البقرة: {قل إن هدى الله هو الهدى}؛ لأن الهدى في هذه السورة هو الدين، وقد تقدم في قوله: {لمن تبع دينكم}، وهدى الله الإسلام، فكأنه قال بعد قولهم {ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم} قل إن الدين عند الله الإسلام كما سبق في أول السورة، والذي في البقرة معناه: القبلة؛ لأن الآية نزلت في تحويل القبلة، وتقديره: قل إن قبلة الله هي الكعبة. أسرار التكرار في القرآن (ص: ٩٢).

(يختصّ برحمته من يشاء...):

قال ابن تيمية: تخصيصه سبحانه لمن هداه - بأن استعمله ابتداء فيما خلق له وهذا لم يستعمله - هو تخصيص منه بفضله ورحمته. ولهذا يقول الله {والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم}، ولذلك حكمة ورحمة هو أعلم بها، كما خص بعض الأبدان بقوى لا توجد في غيرها، وبسبب عدم القوة قد تحصل له أمراض وجودية وغير ذلك من حكمته. وبتحقيق هذا يدفع شبهات هذا الباب. مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٣٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ٦٤-٧٤

١- بداية دعوة غير المسلمين تكون إلى عبادة الله وحده، ونبذ الشرك، وعدم طاعة أحد في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرّمه، وهذا مما اتّفقت عليه الرسالات الإلهية كلها، فاحرص على هذا في دعوتك لغير المسلمين (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألّا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله).

٢- أظهر اعتزازك بالإسلام أمام المعرضين والمعاندين، وأشهدهم على ثباتك على الإسلام مهما حاولوا تشويهه بالأكاذيب والشبهات (فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون).

٣- ادرس التاريخ فإنه يفيدك في الرد على بعض الشبهات المخالفة للحقائق التاريخية الواضحة (يا أهل الكتاب لمَ تحاجّون في إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون).

٤- إياك والمحاجّة فيما ليس لك به علم، ولو أردت بذلك نصرة الحق، فإن الحق لا يُنصر بالجهل، بل قد يكون نصرة الحق بالجهل سببا في تشويه الحق وصدّ الناس عنه، فتسلّح بالعلم خاصّة عند محاجّة المخالفين من أصحاب الديانات المحرّفة والبدع المضلّة (ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم).

٥- اليهودية والنصرانية مخالفة للإسلام، وشتان بينهما وبين الإسلام، فالإسلام دين الأنبياء كلهم، بينما اليهودية والنصرانية ديانات محرّفة ومبدّلة (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين).

٦- اعلم أن الدعاوى اللسانيّة المجرّدة عن الأعمال لا تفيد شيئا، ولا تنفع أبدا، فالانتساب إلى ملّة إبراهيم عليه السلام باللسان، ومخالفتها بالأفعال يدل على الجهل والزيغ والانحراف، بل أولى الناس به حقيقة من اتّبعوه على دينه وشريعته (إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتّبعوه وهذا النبي والذين آمنوا).

٧- الله سبحانه ولي المؤمنين وناصرهم ومؤيدهم، فلو أردنا النصر والعزة والتأييد والتمكين فلنحقق الإيمان الكامل، وحينئذ ينصرنا الله، و(إن ينصركم الله فلا غالب لكم)، ولنعلم أنه بقدر نقص إيماننا ينقص النصر والتمكين، فإذا كان الغالب علينا ضعف الإيمان تسلّط الأعداء علينا، وعاثوا

في الأرض فسادا، فلتبدأ بإصلاح نفسك ثم أهلك ثم مجتمعك، فلو عمل كل واحد منا بذلك عادت العزة للمسلمين، (ولينصرن الله من ينصره)، والله المستعان (والله وليّ المؤمنين).

٨- اعلم أن طائفة من اليهود والنصارى يريدون أن يصدّوك عن دينك ويُضلوك عنه، (حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق)، ويبذلون في سبيل ذلك كل ما يملكونه من وسائل - وما أكثرها اليوم! - ويمكرون مكرا كبارا، ويكيدون كيدا عظيما، ولن يرضيهم تنازلك عن بعض شرائع الدين، بل لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتّبع ملّتهم، لكنّ المؤمن القويّ المتمسّك بدينه المعتزّ بإيمانه لا يزيده مكرهم إلا ثباتا، والحمد لله (ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون).

٩- احذر من ردّ الحق بعد علمه، أو تركه بعد ظهوره، أو لبس الحق بالباطل عمدا، أو كتمان الحق عدوانا، فإن ذلك من صفات أهل الكتاب، ولا يفعله إلا من مات قلبه وخبثت طويّته فصار ممن لا يرجون لله وقارا (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون).

١٠- اعلم أن بعض الكفار قد يدخلون في الإسلام مكرا وكيدا لأهل الإسلام، وحرصا على إفساده من الداخل، وقد حصل هذا كثيرا سابقا ولا يزال، وما حال ابن سبأ عنا ببعيد، (ولتعرفنّهم في لحن القول)، فالحذر الحذر (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون).

١١- اعلم أن الهدى هدى الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، وأنه سبحانه يختصّ برحمته من يشاء، فاحرص على الهداية، وابذل أسبابها، واسأل الله أن يؤتيك من فضله، وأن يختصّك برحمته، متوسلا إليه بأنه واسع عليم، وأنه ذو الفضل العظيم (قل إن الهدى هدى الله)، (قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * يختصّ برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (٧٥-٨٢) من التفسير الميسّر

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥)

ومن أهل الكتاب من اليهود مَن إنْ تأمنه على كثير من المال يؤدِّه إليك من غير خيانة، ومنهم مَن إنْ تأمنه على دينار واحد لا يؤدِّه اليك، إلا إذا بذلت غاية الجهد في مطالبته. وسبب ذلك عقيدة فاسدة تجعلهم يستحلُّون أموال العرب بالباطل، ويقولون: ليس علينا في أكل أموالهم إثم ولا حرج؛ لأن الله أحلَّها لنا. وهذا كذب على الله، يقولونه بألسنتهم، وهم يعلمون أنهم كاذبون.

بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦)

ليس الأمر كما زعم هؤلاء الكاذبون، فإن المتقي حقـًا هو من أوفى بما عاهد الله عليه من أداء الأمانة والإيمان به وبرسله والتزم هديه وشرعه، وخاف الله عز وجل فامتثل أمره وانتهى عما نهى عنه. والله يحب المتقين الذين يتقون الشرك والمعاصي.

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

إن الذين يستبدلون بعهد الله ووصيته التي أوصى بها في الكتب التي أنزلها على أنبيائهم، عوضًا وبدلا خسيسًا من عرض الدنيا وحطامها، أولئك لا نصيب لهم من الثواب في الآخرة، ولا يكلمهم الله بما يسرهم، ولا ينظر إليهم يوم القيامة بعين الرحمة، ولا يطهرهم من دنس الذنوب والكفر، ولهم عذاب موجع.

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

وإن مِن اليهود لَجماعةً يحرفون الكلام عن مواضعه، ويبدلون كلام الله؛ ليوهموا غيرهم أن هذا من الكلام المنزل، وهو التوراة، وما هو منها في شيء، ويقولون: هذا من عند الله أوحاه الله إلى نبيه موسى، وما هو من عند الله، وهم لأجل دنياهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون أنهم كاذبون.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩)

ما ينبغي لأحد من البشر أن يُنزِّل الله عليه كتابه ويجعله حكمًا بين خلقه ويختاره نبيـًا، ثم يقول للناس: اعبدوني من دون الله، ولكن يقول: كونوا حكماء فقهاء علماء بما كنتم تُعَلِّمونه غيركم من وحي الله تعالى، وبما تدرسونه منه حفظًا وعلمًا وفقهًا.

وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (٨٠)

وما كان لأحد منهم أن يأمركم باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا تعبدونهم من دون الله. أَيُعْقَلُ -أيها الناس- أن يأمركم بالكفر بالله بعد انقيادكم لأمره؟

وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)

واذكر -أيها الرسول- إذ أخذ الله سبحانه العهد المؤكد على جميع الأنبياء: لَئِنْ آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول من عندي، مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنَّه. فهل أقررتم واعترفتم بذلك وأخذتم على ذلك عهدي الموثق؟ قالوا: أقررنا بذلك، قال: فليشهدْ بعضكم على بعض، واشهدوا على أممكم بذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم. وفي هذا أن الله أخذ الميثاق على كل نبي أن يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأخذ الميثاق على أمم الأنبياء بذلك.

فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢)

فمن أعرض عن دعوة الإسلام بعد هذا البيان وهذا العهد الذي أخذه الله على أنبيائه، فأولئك هم الخارجون عن دين الله وطاعة ربهم.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (٧٥-٨٢)

الكلمة	المعنى
بِقِنطَار	بمالٍ كثيرٍ
ما دُمت عليه قائما	ملا زما له تطالبه بحقّك
في الأُمّيّين	في أموال العرب؛ لأنهم كانوا لا يقرؤون ولا يكتبون
سبيل	إثم وحرج
بلى	ليس الأمر كما زعموا
أوفى بِعَهده	أدّى أمانته
لا خلاق لهم	لا نصيب لهم من الأجر
ولا يزكّيهم	ولا يطهّرهم من الذنوب والكفر
يَلوون أَلسنتهم بالكتاب	يميلونها ليحرّفوا كتاب الله
والحُكم	والعلم والفهم
ربّانيّين	علماء عاملين معلّمين
ميثاق	عهد
جاءكم رسول	هو محمد صلى الله عليه وسلم
إِصْرِي	عهدي الشديد الموثّق

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ٧٥-٨٢

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الخامسة والسبعين وحتى الآية الثانية والثمانين.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطارٍ يؤده إليك) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن الله سبحانه وتعالى ذكر حالين لأهل الكتاب، حال من يؤدِ إليك ما ائتمنته فيه، وحال من يخونك ولا يؤده إليك، فصح الفصل بين ذكر الحالتين المتضادتين، يعني: (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطارٍ يؤده إليك) هنا بداية الحالة الأولى، ثم بدأ الحالة الثانية فقال (ومنهم من إن تأمنه بدينارٍ لا يؤده إليك).

وهل يصح الوقف على قوله (لا يؤده إليك)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعدها استثناء (إلا ما دمت عليه قائمًا)، ولا يصح الوقف قبل الاستثناء.

وهل يصح الوقف على قوله (إلا ما دمت عليه قائمًا)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الحالة الثانية التي ذكرها الله سبحانه وتعالى لليهود قد انتهت هنا، ثم جاء قوله (ذلك بأنهم قالوا)، و(ذلك) هنا مبتدأ، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قال بعدها: (ويقولون على الله الكذب)، والواو هنا للاستئناف، يعني للابتداء، ثم هناك فرقٌ بين جملة (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل) وجملة (ويقولون)، (قالوا) جاءت بفعلٍ ماضٍ، (ويقولون) بفعلٍ مضارعٍ، وجملة (قالوا) هنا هي تعليلٌ لكونهم لا يؤدون الأمانة، أنهم قالوا ليس علينا في أموال العرب إثمٌ ولا حرجٌ، ثم قال الله (ويقولون على الله الكذب) هذا وصفٌ عامٌ لحالهم، غير مرتبطٍ باستحلال أموال العرب، وليس مرتبطًا أيضًا بأنهم لا يؤدون ما ائتمنوا عليه، فصح الوقف على قوله (سبيل)، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (بلى) هل يصح الوقف عليها هنا؟

نص على الوقف هنا الزجاج والداني، ووضعت علامة الوقف الجائز في مصحف المدينة، ووجهه أن (بلى) هنا نفيٌ لما ذكروه سابقًا، يعني: بلى عليهم سبيلٌ في أكلهم لأموال العرب، ثم ابتدأ بعد ذلك جملةً شرطيةً بقوله (من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) يعني أنه في البداية نفى ألّا يكون عليهم سبيلٌ في أكل أموال العرب، ثم بيّن حكمًا عامًا متعلقًا بالوفاء بالعهود والمواثيق وأداء الأمانات، قال (من أوفى بعهده واتقى) فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (من أوفى بعهده واتقى)؟

الجواب: لا يصح، لأن جواب الشرط لم يأتِ بعد، فأداة الشرط (مَن) وفعله (أوفى بعهده)، (واتقى) عطف على فعل الشرط، الجواب (فإن الله يحب المتقين).

الآية التي تليها: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن خبر (إنّ) لم يأتِ بعد، (إنّ) لها اسمٌ وخبرٌ، اسمها هنا جملة (الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً)، وخبرها جملة (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة) فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أولئك لا خلاق لهم في الآخرة)، وعلى قوله (ولا يكلمهم الله)، وعلى قوله (ولا ينظر إليهم يوم القيامة)، وعلى قوله (ولا يزكيهم)؟

أكثر العلماء على عدم الوقف في هذه المواضع كلها، ووجه ذلك أن هذا من عقوباتهم التي عوقبوا بها، والجمع بين العقوبات أولى وأظهر في بيان العقوبة التامة، وهي جملٌ معطوفاتٌ على بعض، لكن العطف هنا وثيق الصلة، لأنه ذكر عقوبةً إثر عقوبةٍ، فلم يصح الوقف في شيءٍ من هذه الجمل، والله تعالى أعلم.

لكن جماعةً من علماء الوقف والابتداء نص على الوقف على قوله (ولا يزكيهم)، قبل (ولهم عذابٌ أليمٌ)، ووجه ذلك أنه نفى عنهم أمورًا، قال: (لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم) ثم أثبت شيئًا واحدًا، وهو شيءٌ عامٌ يشمل الأمور الأربعة السابقة وزيادة (ولهم عذابٌ أليمٌ)، فصح الفصل لاختلاف الجملة بين النفي والإثبات من ناحيةٍ، وبين العموم والتفصيل من ناحيةٍ أخرى، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإن منهم لفريقًا يلوون ألسنتهم بالكتاب) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (لتحسبوه) تعليلٌ لما قبله، فلم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (لتحسبوه من الكتاب)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (وما هو من الكتاب) جملةٌ حاليةٌ يعني: والحال أنه ليس من الكتاب.

وهل يصح الوقف على قوله (وما هو من الكتاب)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجه ذلك أن الواو في قوله (ويقولون هو من عند الله) تحتمل العطف والاستئناف، فإذا قلنا إنها عاطفة فهي من قبيل عطف الجملة على الجملة، وهنا عطفٌ جاء بينه وبين المعطوف عليه فاصلٌ بجملٍ معترضةٍ، وبيان ذلك أن قوله (ويقولون هو من عند الله) معطوفٌ على قوله (يلوون ألسنتهم بالكتاب) فجاء بعد تلك الجملة المعطوف عليها (لتحسبوه من الكتاب) تعليلاً لها (وما هو من الكتاب) حالٌ لها، فصح الفصل بينهما بسبب ارتباط الجملة الأولى بتعليلٍ وحال.

وأما إذا قلنا إن الواو هنا استئنافيةٌ فإن الوقف يصح على جميع الأحوال، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويقولون هو من عند الله)؟

نص على الوقف هنا الهبطي وجوزه الأشموني على استئناف (وما هو من عند الله)، والصحيح أن قوله (وما هو من عند الله) جملةٌ حاليةٌ مثل ما قلنا في (وما هو من الكتاب)، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وما هو من عند الله)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بعده (ويقولون على الله الكذب) معطوفٌ على (يلوون) ثم عطف عليها (ويقولون هو من عند الله) ثم (ويقولون على الله الكذب)، وهنا جملٌ معطوفاتٌ، وكل جملةٍ اشتملت على ما ارتبط بها، فصح الفصل بينها، فالجملة الأولى اشتملت على تعليلٍ وحالٍ، والثانية اشتملت على حالٍ، وهذه الثالثة اشتملت على جملةٍ حاليةٍ بعدها أيضًا، فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ويقولون على الله الكذب)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن جملة (وهم يعلمون) جملةٌ حاليةٌ، يعني: والحال أنهم يعلمون ذلك، والله أعلم.

الآية التي تليها: (ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لأن بعده (ثم) العاطفة، بدليل أنه قال (ثم يقولَ للناس) بنصبها عطفًا على (أن يؤتيَه الله)، وكذلك هي جملةٌ من تتمة بيان النفي، يعني: ما كان لبشرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة فيكون حاله أن

يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله، فهي مرتبطةٌ بما بعدها ارتباطًا وثيقًا، وهي من تتمة بيان جملة النفي، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ثم يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله)؟

صحح الوقف هنا الأنصاري وحده دون بقية علماء الوقف والابتداء، ونص الأشموني على المنع منه، واستبعده العمّاني بسبب تعلق الجملة بما بعده استدراكًا وعطفًا، الاستدراك في قوله (لكن) والعطف في الواو قال (ولكن كونوا ربانيين) يعني: ولكن حاله أن يقول للناس كونوا ربانيين... إلى آخر الجملة، فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولكن كونوا ربانيين)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (بما كنتم تعلّمون الكتاب) أي: بتعليمكم الكتاب، فهي مرتبطةٌ بما قبلها، فكأنه قال: كونوا ربانيين بتعليمكم الكتاب وبدراستكم له، فلم يصح الوقف إلى نهاية الآية.

فهذه الآية كاملة لا وقف فيها، فمن أراد أن يقف وقفًا حسنًا فيها فأين يقف؟

له أن يقف على قوله (أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة)، ثم يعود فيقول (أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله)، ثم يعود فيقول (ثم يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين)، ثم يعود فيقول (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون).

الآية التي تليها: (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي قد انتهت هنا، وهي قوله (ولا يأمركم) إلى آخر الجملة، ثم ابتدأ بعدها استفهامًا تعجبيًا في قوله (أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتابٍ وحكمةٍ) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن ما بعده معطوفٌ عليه (ثم جاءكم رسول) هذا من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ ثانيةٍ أن جواب القسم لم يأت بعد، أين القسم؟ في قوله (لما آتيتكم) اللام هنا موطئةٌ للقسم، فهي تبحث عن جوابٍ، والجواب في قوله (لتؤمنن به ولتنصرنه) فلم يصح الوقف هنا، ولا على قوله (ثم جاءكم رسولٌ مصدقٌ لما معكم) لأن جواب القسم بعده، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولتنصرنه)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن الميثاق الذي أُخذ عليهم وجملة القسم التي تضمنت الميثاق قد انتهى هنا، ثم سألهم سؤالاً توكيديا للميثاق فقال (قال أأقررتم) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري)؟

الجواب: نعم، ونص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنه قد انتهى قول الله لهم هنا، ثم ابتدأ جوابهم على قول الله سبحانه وتعالى، فصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (قالوا أقررنا)؟

الجواب: نعم، نص عليه جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جوابهم قد انتهى هنا، ثم بدأ قول الله لهم (قال فاشهدوا) فصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (قال فاشهدوا)؟

الجواب: لا يصح، لأن قوله (وأنا معكم من الشاهدين) من تتمة قول الله سبحانه وتعالى، وهي كذلك من بيان تتمة الشهادة، اشهدوا أنتم وأنا كذلك معكم من الشاهدين.

الآية الأخيرة: (فمن تولى بعد ذلك) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن بعدها جواب الشرط، الشرط في قوله (مَن) وفعل الشرط (تولى بعد ذلك) والجواب (فأولئك هم الفاسقون).

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ٧٥-٨٢

(ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك...):

قال الطبري: فإن قال قائل: وما وجه إخبار الله عز وجل بذلك نبيَّه صلى الله عليه وسلم، وقد علمتَ أنّ الناس لم يزالوا كذلك: منهم المؤدِّي أمانته والخائنُها؟

قيل: إنما أراد جل وعز بإخباره المؤمنين خبرَهم - على ما بينه في كتابه بهذه الآيات - تحذيرَهم أن يأتمنوهم على أموالهم، وتخويفهم الاغترارَ بهم، لاستحلال كثير منهم أموالَ المؤمنين. تفسير الطبري (٦/ ٥١٩).

وقال ابن تيمية: فإن المشركين وأهل الكتاب فيهم المؤتمن كما قال تعالى: {ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما} ولهذا جاز ائتمان أحدهم على المال، وجاز أن يستطبّ المسلم الكافر إذا كان ثقة، نص على ذلك الأئمة كأحمد وغيره، إذ ذلك من قبول خبرهم فيما يعلمونه من أمر الدنيا، وائتمان لهم على ذلك، وهو جائز إذا لم يكن فيه مفسدة راجحة، مثل ولايته على المسلمين، وعلوه عليهم، ونحو ذلك. مجموع الفتاوى (٤/ ١١٤).

سبب نزول: (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل):

عن ابن جريج: (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل)، قال: بايع اليهودَ رجالٌ من المسلمين في الجاهلية، فلما أسلموا تقاضوهم ثمنَ بُيوعهم، فقالوا: ليس لكم علينا أمانةٌ، ولا قضاءَ لكم عندنا، لأنكم تركتم دينكم الذي كنتم عليه! قال: وادّعوا أنهم وجدوا ذلك في كتابهم، فقال الله عز وجل: (ويقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون). تفسير الطبري (٦/ ٥٢٣).

عن صعصعة: أن رجلا سأل ابن عباس فقال: إنا نصيب في الغزْو من أموال أهل الذمة الدجاجةَ والشاة، فقال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا بذلك بأس! قال: هذا كما قال أهل الكتاب: (ليس

علينا في الأميين سبيل)! إنهم إذا أدّوا الجزية لم تحلّ لكم أموالهم إلا بطِيب أنفسهم. تفسير الطبري (٦/ ٥٢٤).

(ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون):

قال السعدي: جمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله، وكان هذا كذبا على الله، لأن العالم الذي يحلل الأشياء المحرمة قد كان عند الناس معلوم أنه يخبر عن حكم الله ليس يخبر عن نفسه، وذلك هو الكذب، فلهذا قال {ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون}، وهذا أعظم إثما من القول على الله بلا علم. تفسير السعدي (ص: ١٣٥).

(من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين):

قال القرطبي: الأمانة عظيمة القدر في الدين، ومن عظم قدرها أنها تقوم هي والرحم على جنبتي الصراط، كما في صحيح مسلم. فلا يمكّن من الجواز إلا من حفظهما. وروى مسلم عن حذيفة قال حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن رفع الأمانة، قال: (ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه) الحديث. تفسير القرطبي (٤/ ١١٧).

وقال ابن تيمية: الوفاء بالعهود من التقوى التي يحبها الله والوفاء بالعهود هو جملة المأمور به فإن الواجب إما بالشرع أو بالشرط وكل ذلك فعل مأمور به. وذلك وفاء بعهد الله وعهد العبيد. مجموع الفتاوى (٢٠/ ١٣٥).

وقال السعدي: {من أوفى بعهده واتقى} والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل، فلم يوف بعهده ولم يتق الله، لم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله، وإذا كان الأميون قد عرفوا بوفاء

العهود وبتقوى الله وعدم التجرؤ على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا} ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئا من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقتطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية. تفسير السعدي (ص: ١٣٥-١٣٦).

وعن عبد الله بن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر). صحيح البخاري (١/ ١٦)، صحيح مسلم (١/ ٧٨).

سبب نزول: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة):

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: «أن رجلا أقام سلعة وهو في السوق، فحلف بالله لقد أعطي بها ما لم يعط ليوقع فيها رجلا من المسلمين» فنزلت: {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا}. صحيح البخاري (٣/ ٦٠).

قال ابن تيمية: إذا كانت اليمين غموسا كانت من الكبائر الموجبة للنار، كما قال سبحانه: {إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم}، وذكرها صلى الله عليه وسلم في عد الكبائر فيما روى الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خمس ليس لهن كفارة: الشرك بالله، وقتل النفس بغير حق، وبهت مؤمن، والفرار يوم الزحف، ويمين صابرة يقطع بها مالا بغير حق». وذلك: لأنه إذا تعمد أن يعقد بالله ما ليس منعقدا به، فقد نقص الصلة التي بينه وبين ربه. القواعد النورانية (ص: ٣٣٦).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من حلف يمين صبر ليقتطع بها مال امرئ مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان» فأنزل الله تصديق ذلك: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا، أولئك لا خلاق لهم في الآخرة) إلى آخر الآية، قال: فدخل الأشعث بن قيس، وقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ قلنا: كذا وكذا، قال: فيّ أنزلت كانت لي بئر في أرض ابن عم لي، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «بينتك أو يمينه» فقلت: إذا يحلف يا رسول الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من حلف على يمين صبر، يقتطع بها مال امرئ مسلم، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان». صحيح البخاري (٦/ ٣٤)، صحيح مسلم (١/ ١٢٢).

جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الحضرمي: يا رسول الله، إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي، فقال الكندي: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحضرمي: «ألك بينة؟» قال: لا، قال: «فلك يمينه»، قال: يا رسول الله، إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع من شيء، فقال: «ليس لك منه إلا ذلك»، فانطلق ليحلف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أدبر: «أما لئن حلف على ماله ليأكله ظلما، ليلقين الله وهو عنه معرض». صحيح مسلم (١/ ١٢٣).

عن أبي أمامة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة» فقال له رجل: وإن كان شيئا يسيرا يا رسول الله؟ قال: «وإن قضيبا من أراك». صحيح مسلم (١/ ١٢٢).

(ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم):

عن أبي ذر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» قال: فقرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرار، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب». صحيح مسلم (١/ ١٠٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل على فضل ماء بطريق، يمنع منه ابن السبيل، ورجل بايع رجلا لا يبايعه إلا للدنيا، فإن أعطاه ما يريد وفى له وإلا لم يف له، ورجل ساوم رجلا بسلعة بعد العصر، فحلف بالله لقد أعطي بها كذا وكذا فأخذها). صحيح البخاري (٣/ ١٧٨)، صحيح مسلم (١/ ١٠٣).

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر). صحيح مسلم (١/ ١٠٢).

(وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب):

قال الراغب: الكتاب الأول: ما كتبوه بأيديهم المذكور في قوله تعالى: {فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم}، والكتاب الثاني: التوراة، والثالث: الجنس، كتب الله كلها. الإتقان في علوم القرآن (٣/ ٢٢٨).

وقال ابن القيم: اللي مثل الفتل، وهو التحريف، وهو نوعان: ليّ في اللفظ وليّ في المعنى:

فالليّ في اللفظ أن يلفظ بها على وجه لا يستلزم الحق، إما بزيادة لفظة أو نقصانها أو إبدالها بغيرها، ولي في كيفية أدائها وإيهام السامع لفظاً وإرادة غيره، كما كان اليهود يلوون ألسنتهم بالسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وغيره فهذا أحد نوعي اللي.

والنوع الثاني منه: ليّ المعنى: وهو تحريفه وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم... أو يسقط منه بعض المراد به، ونحو هذا من ليّ المعاني. الرسالة التبوكية (ص: ٣٥).

وقال ابن عاشور: وجيء بالمضارع في هاته الأفعال: يلوون، ويقولون، للدلالة على تجدد ذلك وأنه دأبهم. التحرير والتنوير (٣/ ٢٩٢).

عن جابر بن عبد الله، أن عمر بن الخطاب، أتى النبي صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتب، فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم فغضب وقال: (أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حيا، ما وسعه إلا أن يتبعني). مسند أحمد (٢٣/ ٣٤٩).

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: (يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب، وكتابكم الذي أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله، تقرؤونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله وغيروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله ما رأينا منهم رجلا قط يسألكم عن الذي أنزل عليكم). صحيح البخاري (٣/ ١٨١).

سبب نزول: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة...):

عن ابن عباس قال: قال أبو رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودعاهم إلى الإسلام: أتريد يا محمد أن نعبدك، كما تعبد النصارَى عيسى ابن مريم؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرِّبِّيس: أوَ ذاك تريد منا يا محمد، وإليه تدعونا! أو كما قال = فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (معاذَ الله أن نَعبُد غيرَ الله، أو نأمر بعبادة غيره! ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني)، أو كما قال. فأنزل الله عز وجل في ذلك من قولهم: (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوّة) الآية إلى قوله: (بعد إذ أنتم مسلمون). تفسير الطبري (٦/ ٥٣٩).

(كونوا ربانيين):

قال البغوي: وقال المبرّد: هم أرباب العلم، سموا به لأنهم يربون بالعلم، ويقومون به، ويربون المتعلمين بصغار العلوم قبل كبارها، وكل من قام بإصلاح الشيء وإتمامه فقد ربه يربه، واحدها: رَبّان، كما قالوا: ريان وعطشان وشبعان وغرثان، ثم ضُمت إليه ياء النسبة... وحكي عن علي رضي الله عنه أنه قال: هو

الذي يربي علمه بعمله، قال محمد بن الحنفية يوم مات ابن عباس: اليوم مات رباني هذه الأمة. تفسير البغوي (١/ ٤٦٣).

وقال ابن القيم: العالم الرباني هو الذي لا زيادة على فضله لفاضل، ولا منزلة فوق منزلته لمجتهد، وقد دخل في الوصف له بأنه رباني وصفه بالصفات التي يقتضيها العلم لأهله، ويمنع وصفه بما خالفها، ومعنى الرباني في اللغة: الرفيع الدرجة في العلم، العالي المنزلة فيه، وعلى ذلك حملوا قوله تعالى: {لولا ينهاهم الربانيون}، وقوله {كونوا ربانيين}، قال ابن عباس: حكماء فقهاء، وقال أبو رزين: فقهاء علماء، وقال أبو عمر الزاهد: سألت ثعلبا عن هذا الحرف وهو الرباني، فقال: سألت ابن الأعرابي، فقال: إذا كان الرجل عالما عاملا معلما قيل له هذا رباني، فإن خرم عن خصلة منها لم نقل له رباني. مفتاح دار السعادة (١/ ١٢٤).

وقال الضحاك: {ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب} قال: «حق على كل من قرأ القرآن، أن يكون فقيها». سنن الدارمي (١/ ٣٥٣).

(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون):

قال ابن تيمية: فهذا بيان أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا كفر - مع وجوب الإيمان بهم - ما لم يحصل بعبادة الأوثان، فإن الأوثان تستحق الإهانة وأن تكسر، كما كسر إبراهيم الأصنام، وكما حرق موسى العجل ونسفه، وكما كان نبينا صلى الله عليه وسلم يكسر الأصنام ويهدم بيوتها، وقد قال تعالى: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون}، فإهانتها من تمام التوحيد والإيمان. والملائكة والأنبياء -بل الصالحون- يستحقون المحبة والموالاة والتكريم والثناء مع أنه يحرم الغلو والشرك بهم، فلهذا صار بعض الناس يزيد في التعظيم على ما يستحقونه فيصير شركًا، وبعضهم يقصر عما يجب لهم من الحق فيصير فيه نوع من الكفر، والصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وهو القيام بما أمر الله به ورسله في هذا وهذا. الإخنائية (ص: ٤٨٥).

وقال أيضا: بيّن تعالى أن من يتخذ الملائكة والنبيين أربابا فهو كافر مع اعتقاده أنهم مخلوقون، فإنه لم يقل أحد قط: إن جميع الملائكة والنبيين مشاركون لله سبحانه في خلق العالم، وقد قال تعالى: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: تسألهم من خلق السماوات والأرض؟ يقولون: الله، وهم يعبدون غيره، وقد قال تعالى: {ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله} في غير موضع، فأخبر تعالى عن المشركين أنهم كانوا يقرون بأن خالق العالم واحد، مع اتخاذهم آلهة يعبدونهم من دونه سبحانه، يتخذونهم شفعاء إليه، ويتقربون بهم إليه. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١/ ٣٥٩-٣٦٠).

وقال أيضا: بين سبحانه: أن اتخاذ الملائكة والنبيين أربابا كفر. فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم، ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين. الواسطة بين الحق والخلق (ص: ٢٢).

وقال أيضا: فإذا كان من اتخذ الملائكة والنبيين أربابا هو كافر، فكيف من اتخذ مريم أو غيرها من الشيوخ؟ جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٣٧٤)

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه):

قال ابن تيمية: ذكر أنه أخذ الميثاق على النبيين وأممهم: مهما آتيتكم من كتاب وحكمة، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه. وهذا يتناول الأمر لكل أهل الكتاب إذا جاءهم رسول ثان أن يؤمنوا به وينصرونه، وإن كان عندهم من الكتاب والحكمة ما كان، ولا يقولون: نحن مستغنون بما عندنا من الكتاب والحكمة، لا نؤمن بالرسول الذي جاءنا.

ونخص الإيمان بمحمد - صلى الله عليه وسلم -، فإنه خاتم الرسل، وهو آخر رسول جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب، فوجب على من جاءه أن يؤمن به وينصره، وإن كان عنده من الكتاب والحكمة ما

كان. وهذا الميثاق أخذه الله على الأنبياء، وأخذوه على أممهم. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٣/ ٨١).

وقال أيضا: روي عن غير واحد من السلف - علي وابن عباس وغيرهما - قالوا: لم يبعث الله نبيا من عهد نوح إلا أخذ عليه الميثاق: لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. وهو سبحانه أخذ الميثاق على النبي المتقدم أن يصدق من يأتي بعده، وعلى النبي المتأخر أن يصدق من كان قبله؛ ولهذا لم تختلف الأنبياء بل دينهم واحد. مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٦٣-٣٦٤)

وقال أيضا: فإنه هو الإمام المطلق في الهدى لأول بني آدم وآخرهم، كما قال: {أنا سيد ولد آدم ولا فخر، آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر}، وهو شفيع الأولين والآخرين في الحساب بينهم؛ وهو أول من يستفتح باب الجنة، وذلك أن جميع الخلائق أخذ الله عليهم ميثاق الإيمان به، كما أخذ على كل نبي أن يؤمن بمن قبله من الأنبياء؛ ويصدق بمن بعده، قال تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه} الآية. فافتتح الكلام باللام الموطئة للقسم التي يؤتى بها إذا اشتمل الكلام على قسم وشرط؛ وأدخل اللام على (ما) الشرطية ليبين العموم ويكون المعنى: مهما آتيكم من كتاب وحكمة فعليكم إذا جاءكم ذلك النبي المصدق الإيمان به ونصره... والله تعالى قد نوه بذكره وأعلنه في الملأ الأعلى ما بين خلق جسد آدم ونفخ الروح فيه؛ كما في حديث ميسرة الفجر قال: قلت: يا رسول الله متى كنت نبيا؟ - وفي رواية - متى كتبت نبيا؟ فقال: {وآدم بين الروح والجسد} رواه أحمد. وكذلك في حديث العرباض بن سارية الذي رواه أحمد وهو حديث حسن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: {إني عند الله لخاتم النبيين. وإن آدم لمنجدل في طينته} الحديث. مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٢٧-٧٢٨).

وقال ابن كثير: الرسول محمد خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، دائما إلى يوم الدين، وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان

إمامَهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لفصل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النوبة إليه، فيكون هو المخصوصَ به. تفسير ابن كثير (٢/ ٦٨).

وقال السعدي: فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضا؛ لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد علم أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو خاتمهم، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم صلى الله عليه وسلم. تفسير السعدي (ص: ١٣٦)

(فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون):

قال الطبري: وهاتان الآيتان، وإن كان مَخرَج الخبر فيهما من الله عز وجل بما أخبر أنه أشهدَ وأخذَ به ميثاقَ منْ أخذَ ميثاقه به، عن أنبيائه ورسله، فإنه مقصودٌ به إخبارُ من كان حوالَي مهاجَر رسول الله صلى الله عليه وسلم من يهود بني إسرائيل أيام حياته صلى الله عليه وسلم، عَمَّا لله عليهم من العهد في الإيمان بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ومعنيٌّ به تذكيرُهم ما كان الله آخذًا على آبائهم وأسلافهم من المواثيق والعهود، وما كانت أنبياءُ الله عرَّفتهم وتقدّمت إليهم في تصديقه واتباعه ونُصرته على من خالفه وكذبه، وتعريفهم ما في كتب الله، التي أنزلها إلى أنبيائه التي ابتعثها إليهم، من صفته وعلامته. تفسير الطبري (٦/ ٥٦٣).

قال السعدي: {فأولئك هم الفاسقون} فعلى هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم. تفسير السعدي (ص: ١٣٧).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ٧٥-٨٢

١- كن أمينا في تعاملاتك، مؤديا الأمانات إلى أهلها، حريصا على الوفاء بالعهود والعقود التي بينك وبين الناس، فإن ذلك من علامات وجود التقوى في القلب، وإياك وخيانة الأمانة، ونقض العهد، وإن كان صاحب الحق ممن يخالفك في الدين، أو كان دونك في النسب والجاه (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما)، (بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين).

٢- عليك بالعدل والإنصاف في حكمك على الآخرين، ولو كانوا من أعدائك، وإياك والظلم والاعتداء، (ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى)، فإن الله قد بيّن أمانة بعض أهل الكتاب، ولمّا ذكر تحريفهم للكتاب نصّ على أنه حصل من فريق منهم (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك)، (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب).

٣- لا تجعلنّ الحلف بالله وسيلة لبيعك وشرائك، ولو كنت صادقا، فإن كثرة الحلف أمر مذموم، ولا يأمن صاحبه من الوقوع في الكذب ولو بعد حين، فأما إن تعمّدت الحلف بالله كاذبا لتحصيل منفعة دنيوية فقد آثرت متاع الدنيا القليل الفاني على ثواب الآخرة العظيم الباقي، وبئست التجارة، وبئس المصير (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم).

٤- إياك واستحلال شيء من المحرمات، فإن ذلك أعظم جرما من ارتكاب المحرم والإصرار عليه، لأنه قول على الله بغير علم، وفيه تجرئة للنفس على فعل المحرّم وعدم التوبة منه؛ لأنه صار في اعتقادك حلالا (ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)، (ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله).

٥- احذر من الكلام في معاني القرآن عن هوى أو جهل أو تعصب أو عناد، دون اتّباع لكلام الأئمة المحققين من علماء التفسير، فإن ذلك من تحريف معاني كتاب الله، وهو من القول على الله بغير علم، ومن الكذب على الله سبحانه وتعالى (وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من

الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون).

٦- اعلم أن رسالات جميع الأنبياء قائمة على تقرير توحيد الله والدعوة إليه وبيان وسائله، ونبذ الشرك والتحذير منه ومن وسائله، فكل من أتى بنقل عن نبي من الأنبياء يخالف هذا الأصل العظيم فإنه إما كاذب في نقله أو أنه قد فهمه على غير وجهه (ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله).

٧- إذا منّ الله عليك بدراسة القرآن وتعليمه فلتكن ربانيا، وذلك بالجمع بين العلم والعمل والتعليم والحكمة والقدوة الحسنة، وما أحوج الأمة إلى ذلك اليوم! وما أكثر النقص والخلل فيه! فاعقد العزم على أن تسدّ هذه الثغرة مستعينا بالله على ذلك، وابدأ بمسألة مسألة مما تعلّمته، فاعمل بها، ثم علّمها من حولك بالحكمة والموعظة الحسنة، وبذلك تكون قد بدأت السير في طريق الربانيين (ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون).

٨- لا تلجأ لأحد غير الله في حاجاتك كلها، ولا تجعل بينك وبين الله واسطة، لا ملَكا ولا نبيا ولا وليا، بل اصرف العبادة كلها لله، والجأ إليه وحده، وتوكل عليه وحده، واستعن به وحده (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون).

٩- لم يبعث الله نبيا من الأنبياء إلا أخذ عليه وعلى أمته العهد والميثاق إن أدركوا محمدا صلى الله عليه وسلم أن يؤمنوا به وينصروه، فما أعظمها من كرامة، وما أجلّها من منزلة لهذا النبي الكريم، ولا غرابة فهو سيد ولد آدم، وإمام الأنبياء، وصاحب المقام المحمود، وأول من يستفتح باب الجنة، وأول شافع، وأول مشفّع صلى الله عليه وسلم، فليخسأ المستهزؤون، وليموتوا بغيظهم (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين).

١٠- كل من ادّعى أنه يتّبع نبيا من الأنبياء إذا أدرك محمدا صلى الله عليه وسلم ولم يؤمن به فإنه كاذب في دعواه، ناقض لعهده مع الله، الذي ورد في كتابه وعلى لسان نبيه، وهو بذلك مكذب لنبيه الذي ينتسب إليه (فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون).

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة آل عمران (٨٣-٩٢) من التفسير الميسّر

أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

أيريد هؤلاء الفاسقون من أهل الكتاب غير دين الله -وهو الإسلام الذي بعث الله به محمدا صلى الله عليه وسلم-، مع أن كل مَن في السموات والأرض استسلم وانقاد وخضع لله طواعية -كالمؤمنين- ورغمًا عنهم عند الشدائد، حين لا ينفعهم ذلك وهم الكفار، كما خضع له سائر الكائنات، وإليه يُرجَعون يوم المعاد، فيجازي كلا بعمله. وهذا تحذير من الله تعالى لخلقه أن يرجع إليه أحد منهم على غير ملة الإسلام.

قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)

قل لهم -أيها الرسول-: صدَّقنا بالله وأطعنا، فلا رب لنا غيره، ولا معبود لنا سواه، وآمنَّا بالوحي الذي أنزله الله علينا، والذي أنزله على إبراهيم خليل الله، وابنيه إسماعيل وإسحاق، وابن ابنه يعقوب بن إسحاق، والذي أنزله على الأسباط -وهم الأنبياء الذين كانوا في قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة مِن ولد يعقوب- وما أوتي موسى وعيسى من التوراة والإنجيل، وما أنزله الله على أنبيائه، نؤمن بذلك كله، ولا نفرق بين أحد منهم، ونحن لله وحده منقادون بالطاعة، مُقِرُّون له بالربوبية والألوهية والعبادة.

وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)

ومن يطلب دينًا غير دين الإسلام الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة، والعبودية، ولرسوله النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم بالإيمان به وبمتابعته ومحبته ظاهرًا وباطنًا، فلن يُقبل منه ذلك، وهو في الآخرة من الخاسرين الذين بخسوا أنفسهم حظوظها.

كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦)

كيف يوفق الله للإيمان به وبرسوله قومًا جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم به، وشهدوا أن محمدًا صلى الله عليه وسلم حق وما جاء به هو الحق، وجاءهم الحجج من عند الله والدلائل بصحة

ذلك؟ والله لا يوفق للحق والصواب الجماعة الظلمة، وهم الذين عدلوا عن الحق إلى الباطل، فاختاروا الكفر على الإيمان.

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧)

أولئك الظالمون جزاؤهم أنَّ عليهم لعنة الله والملائكة والناسِ أجمعين، فهم مطرودون من رحمة الله.

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨)

ماكثين في النار، لا يُرفع عنهم العذاب قليلا ليستريحوا، ولا يُؤخر عنهم لمعذرة يعتذرون بها.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

إلا الذين رجعوا إلى ربهم بالتوبة النصوح من بعد كفرهم وظلمهم، وأصلحوا ما أفسدوه بتوبتهم فإن الله يقبلها، فهو غفور لذنوب عباده، رحيم بهم.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)

إن الذين كفروا بعد إيمانهم واستمروا على الكفر إلى الممات لن تُقبل لهم توبة عند حضور الموت، وأولئك هم الذين ضلُّوا السبيل، فأخطَؤُوا منهجه.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)

إن الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وماتوا على الكفر بالله ورسوله، فلن يُقبل من أحدهم يوم القيامة ملء الأرض ذهبًا؛ ليفتدي به نفسه من عذاب الله، ولو افتدى به نفسه فِعْلا. أولئك لهم عذاب موجع، وما لهم من أحد ينقذهم من عذاب الله.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

لن تدركوا الجنة حتى تتصدقوا مما تحبون، وأي شيء تتصدقوا به مهما كان قليلا أو كثيرًا فإن الله به عليم، وسيجازي كل منفق بحسب عمله.

بسم الله الرحمن الرحيم

معاني كلمات سورة آل عمران (٨٣-٩٢)

الكلمة	المعنى
يبْغُون	يُريدون
أَسْلَمَ	استسلم وخضع
والأَسبَاط	والأنبياء من ذرية يعقوب عليه السلام
لا نفرّق بين أحدٍ منهم	لا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم
يبْتَغِ	يطلب ويريد
كيف يهدي الله...	كيف يوفّق الله للإيمان...
البيّنات	الدلائل الواضحات
يُنظَرون	يُؤخّرون عن العذاب
ثم ازدادوا كفرا	ثم استمروا على الكفر إلى الممات
لن تُقبل توبتهم	لن يُقبل رجوعهم عند حضور الموت
ولوِ افتدى به	ولو قدّمه ليُنجي نفسه من العذاب
لن تنالوا البِرّ	لن تُدركوا الجنةَ أو ثوابَ أهل البِرّ

بسم الله الرحمن الرحيم

الوقف والابتداء في سورة آل عمران ٨٣-٩٢

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله في هذه الفقرة المتعلقة بالوقف والابتداء في الآيات من سورة آل عمران من الآية الثالثة والثمانين وحتى الآية الثانية والتسعين.

أبدأ بالآية الأولى: وهي قول الله تعالى: (أفغير دين الله يبغون) هل يصح الوقف هنا؟

نص على الوقف هنا الأنصاري والأشموني دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء، والصحيح أنه لا يصح الوقف هنا، ووجه ذلك أن قوله (وله أسلم من في السموات والأرض) جملةٌ حاليةٌ، وتقدير الآية: أيبغون غير دين الله الذي أسلم له من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا؟ وبالتالي لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (طوعًا وكرهًا)؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وصححه الأنصاري والأشموني على قراءة (وإليه ترجعون) بالتاء لمن قرأ (أفغير دين الله يبغون) بالياء، ووجه ذلك أنه انتقل من الغيبة إلى الخطاب، فصح الفصل بينهما.

أما من قرأهما بالياء (يبغون) و (يرجعون)، أو بالتاء (تبغون) و (ترجعون) فإنه لا وقف بالنسبة له هنا، لأن الجملة في قوله تعالى (وإليه يرجعون) هي من تتمة بيان الحال الذي في قوله (وله أسلم)، يعني: والحال أنه أسلم له من في السماوات والأرض طوعًا وكرهًا وأنهم إليه يرجعون، فتبين أنه لا وقف هنا إلا لمن قرأ (أفغير دين الله يبغون) بالياء (وإليه ترجعون) بالتاء، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (قل آمنا بالله وما أنزل علينا) لا وقف فيها إلا على قوله تعالى (لا نفرق بين أحدٍ منهم).

وبيان ذلك أن قوله (وما أنزل علينا) معطوفٌ على مفردٍ وهو اسم الجلالة (الله) فالتقدير هنا: قل آمنا بالله وآمنا بما أنزل علينا وآمنا بما أنزل على إبراهيم... إلى آخر ما في الجملة، فهي بحاجة إلى تقدير آمنا بـ ... كذا، بالإضافة إلى أنها جملٌ لكنها معطوفةٌ على مفرد، وهو اسم الجلالة (الله) فلم يصح الوقف هنا إلى قوله (والنبيون من ربهم) هنا صحح الوقف بعض علماء الوقف والابتداء، لكن إذا تأملنا في فوله (لا نفرق بين أحدٍ منهم) يعني: من النبيين بالإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم صار تقدير الجملة: وآمنا بما أوتي النبيون من ربهم غير مفرقين بين أحدٍ منهم، فهي جملةٌ حاليةٌ، وبالتالي لا وقف هنا، والله أعلم.

ثم نأتي عند قوله (لا نفرق بين أحدٍ منهم) جعل الأشموني الوقف هنا صالحًا، ونص السجاوندي على أنه قد يجوز، لأن ما بعده وهو قوله تعالى (ونحن له مسلمون) يصلح أن يكون استئنافًا أو أن يكون حالاً، يعني والحال أننا له مسلمون، وبالتالي الوقف هنا محتملٌ، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (ومن يبتغ غير الإسلام دينًا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (فلن يقبل منه) جواب الشرط، الشرط في قوله (مَن) ثم فعل الشرط (يبتغ غير الإسلام دينًا)، جوابه (فلن يقبل منه) فلم يصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (فلن يقبل منه)؟

نص على الوقف هنا الهبطي، وجوزه السجاوندي والأشموني، وإذا تأملنا فإن قوله تعالى (وهو في الآخرة من الخاسرين) جملةٌ معطوفةٌ على جملة جواب الشرط (فلن يقبل منه)، والعطف هنا وثيق الصلة، لأنه من تتمة الجزاء، فلن يقبل منه يوم القيامة وهو في الآخرة كذلك من الخاسرين، فلم يصح الفصل هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (وشهدوا أن الرسول حقٌّ) هو من تتمة بيان حالهم، يعني: كفروا بعد إيمانهم وبعد أن شهدوا أن الرسول حقٌّ، فلم يصح الوقف هنا.

وهل يصح الوقف على قوله (وشهدوا أن الرسول حق)؟

نص على الوقف هنا الإمام نافع، وجوزه الأشموني دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء. وإذا تأملنا فإن قوله (وجاءهم البينات) هو من تتمة بيان حالهم، يعني أن الله سبحانه وتعالى بين أنهم كفروا بعد أن آمنوا وبعد أن شهدوا أن الرسول حقٌّ وبعد أن جاءهم البينات، فهذه الجمل وإن كانت معطوفةً على بعضٍ إلا أن عطفها وثيق الصلة؛ لأنها من تتمة بيان حال هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم فلم يصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (وجاءهم البينات)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن بيان حال الذين كفروا بعد إيمانهم قد انتهى هنا، ثم جاءت جملةٌ مستأنفةٌ بعد ذلك في قوله (والله لا يهدي القوم الظالمين) فصح الوقف قبلها والابتداء بها، والله أعلم.

الآية التي تليها: (أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) لا وقف فيها، لأنها جملةٌ مرتبطةٌ ببعضها، ثم جاءت فيها كلماتٌ معطوفةٌ على بعض.

الآية التي تليها: (خالدين فيها) هل يصح الوقف هنا؟

صحح الوقف هنا بعض علماء الوقف والابتداء، ووجهه أنهم اعتبروا جملة (لا يخفف عنهم العذاب) تحتمل الاستئناف، والصحيح أنها جملةٌ حاليةٌ، يعني هي من بيان حال خلودهم أنهم لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون، يعني يؤخرون عن العذاب، فالأولى عدم الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن قوله (فإن الله غفورٌ رحيمٌ) هي جملةٌ بيانيةٌ لحال من تاب وأصلح، يعني من تاب وأصلح فإن الله سيغفر له، فلا يصح الوقف هنا، والله أعلم.

الآية التي تليها: (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرًا) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن خبر (إنّ) لم يأتِ بعد، (إن) لها اسمٌ وخبرٌ، اسمها (الذين كفروا بعد إيمانهم)، ثم عطف على اسمها (ثم ازدادوا كفرًا)، وخبرها (لن تقبل توبتهم) هنا انتهت الجملة، فلم يصح الوقف قبل خبر (إنّ) والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (لن تقبل توبتهم)؟

صحح الوقف هنا الهبطي، وجوزه السجاوندي، دون غيرهما من علماء الوقف والابتداء، ونص السجاوندي على أن الوقف هنا جائزٌ لعطف الجملتين المختلفتين، وقصده بالاختلاف أن جملة (لن تقبل توبتهم) هي جملةٌ فعليةٌ منفيةٌ، بينما قوله (وأولئك هم الضالون) جملةٌ اسميةٌ مثبتةٌ، فصح الفصل بينهما، والله تعالى أعلم.

الآية التي تليها: (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفارٌ) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ لأن خبر (إنّ) لم يأتِ بعد، (إنّ) اسمها (الذين كفروا)، وعطف عليه (وماتوا وهم كفارٌ)، خبرها (فلن يقبل من أحدهم...) إلى آخر الجملة.

وهل يصح الوقف على قوله (فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا)؟

الجواب: لا يصح، لماذا؟ إذا تأملنا فيما بعدها قوله (ولو افتدى به) جملةٌ متضمنةٌ معنى الشرط، لكنه شرطٌ جوابه محذوفٌ دل عليه ما قبله، فلم يصح الوقف قبله، يعني: ولو افتدى به فلن يقبل منه، فدل على أنه لا وقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (ولو افتدى به)؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة (إنّ) وما ارتبط بها من اسمها وخبرها والشرط قد انتهى هنا، ثم ابتدأ بعد ذلك جملةً مستأنفةً بمبتدأ وخبرٍ في قوله (أولئك لهم عذابٌ أليمٌ) فصح الوقف هنا، والله أعلم.

وهل يصح الوقف على قوله (أولئك لهم عذابٌ أليمٌ)؟

نص على الوقف هنا جماعةٌ من علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن قوله (وما لهم من ناصرين) وإن كانت جملةً معطوفةً على قوله (لهم عذابٌ أليمٌ) إلا أنها من قبيل عطف الجمل، وهي مبدوءةٌ بالنفي، والعطف هنا أيضًا ليس وثيق الصلة، لأن (وما لهم من ناصرين) ليس من تتمة عذابهم، إنما هو بيان أنه لا أحد ينصرهم من عذاب الله النازل عليهم، والله تعالى أعلم.

الآية الأخيرة: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) هل يصح الوقف هنا؟

الجواب: نعم، نص عليه عامة علماء الوقف والابتداء، ووجهه أن جملة النفي في قوله (لن تنالوا) قد انتهت مع غايتها هنا، ثم جاءت بعدها جملةٌ شرطيةٌ مبدوءةٌ بـ (ما) الشرطية، ويصح الابتداء بالشرط عادةً، فصح الوقف هنا، والله تعالى أعلم.

هذا آخر ما في هذا المقطع، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يعلّمنا ما ينفعنا، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملاً وهدًى وتقًى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله الرحمن الرحيم

فوائد ولطائف سورة آل عمران ٨٣-٩٢

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها):

قال ابن تيمية: كل ما في السماوات والأرض مسلم لله إما طوعا وإما كرها، وإذا كان لا بد من أحدهما فالإسلام له طوعا هو الذي ينفع العبد، فلا يجوز أن يتخذ غير هذا الدين دينا، فإنه ذكر هذا في تقرير أن كل دين سوى الإسلام باطل، فقال (أفغير دين الله يبغون) وذكر بعد ذلك ما يصير به العبد مسلما مؤمنا فقال (قل آمنا بالله وما أنزل علينا...) الآية. جامع الرسائل لابن تيمية (١/ ٢٤).

وقال أيضا: {أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون} وعامة السلف على أن المراد بالاستسلام استسلامهم له بالخضوع والذل لا مجرد تصريف الرب لهم، كما في قوله: {ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها}، وهذا الخضوع والذل هو أيضا لازم لكل عبد لا بد له من ذلك، وإن كان قد يعرض له أحيانا الإعراض عن ربه والاستكبار فلا بد له عند التحقيق من الخضوع والذل له؛ لكن المؤمن يسلم له طوعا فيحبه ويطيع أمره، والكافر إنما يخضع له عند رغبة ورهبة، فإذا زال عنه ذلك أعرض عن ربه. مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٠-٣١).

وقال ابن كثير: {وله أسلم من في السماوات والأرض} أي: استسلم له من فيهما طوعا وكرها، كما قال تعالى: {ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال}، وقال تعالى: {أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون. ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون}. فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه لله، والكافر مستسلم لله كرها، فإنه تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم، الذي لا يخالف ولا يمانع. تفسير ابن كثير (٢/ ٦٩).

وقال البغوي: واختلفوا في قوله: (طوعا وكرها):

قال الحسن: أسلم أهل السماوات طوعا وأسلم من في الأرض بعضهم طوعا وبعضهم كرها خوفا من السيف والسبي.

وقال مجاهد: طوعا المؤمن، وكرها ذلك الكافر، بدليل: (ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال).

وقيل: هذا يوم الميثاق حين قال لهم: (ألست بربكم قالوا بلى)، قال بعضهم: طوعا، وبعضهم: كرها.

وقال قتادة: المؤمن أسلم طوعا فنفعه الإسلام، والكافر أسلم كرها في وقت اليأس فلم ينفعه الإسلام، قال الله تعالى: (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا).

وقال الشعبي: هو استعاذتهم به عند اضطرارهم كما قال الله تعالى: (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين). تفسير البغوي (١/ ٤٦٥).

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا استصعبت دابة أحدكم أو كانت شموسا (شردت ونفرت) فليقرأ هذه الآية في أذنها {أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} . الدعوات الكبير للبيهقي (٢/ ٢٦٤).

وقال ابن القيم: قال يونس بن عبيد: ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقول في أذنها {أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون} إلا وقفت بإذن الله تعالى. قال شيخنا قدس الله روحه: وقد فعلنا ذلك فكان كذلك. الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص: ١٢٥).

(قل آمنا بالله وما أنزل علينا...):

قال ابن جماعة: قوله تعالى: (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا). وفي آل عمران: (قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا).

جوابه: لما صدّر آية البقرة بقوله: (قُولُوا) وهو خطاب المسلمين ردا على قول أهل الكتاب: (كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى) قال: (إلينا). ولما صدّر آية آل عمران بقوله: (قل) قال: (علينا).

والفرق بينهما: أن (إلى) ينتهى بها من كل جهة، و (على) لا ينتهى بها إلا من جهة واحدة وهي: العلو، والقرآن يأتي المسلمين من كل جهة يأتي مبلغه إياهم منها، وإنما أتى النبي صلى الله عليه وسلم من جهة العلو خاصة، فحسن وناسب قوله: (علينا) لقوله: (قل) مع فضل تنويع الخطاب.

وكذلك أكثر ما جاء في جهة النبي صلى الله عليه وسلم بـ (على)، وأكثر ما جاء في جهة الأمة بـ (إلى).

كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١٠٧-١٠٨).

(والأسباط):

قال ابن تيمية: وفُسر الأسباط بأنهم أولاد يعقوب، والصواب أنه ليس المراد بهم أولاده لصلبه، بل ذريته، كما يقال فيهم أيضا (بنو إسرائيل)، وكان في ذريته الأنبياء، فالأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل.

قال أبو سعيد الضرير: أصل السبط شجرة ملتفة كثيرة الأغصان. فسموا الأسباط لكثرتهم، فكما أن الأغصان من شجرة واحدة، كذلك الأسباط كانوا من يعقوب. ومثل السبط: الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأسباط حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر.

وقال تعالى: (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطا أمما)، فهذا صريح في أن الأسباط هم الأمم من بني إسرائيل، كل سبط أمة، لا أنهم بنوه الاثنا عشر، بل لا معنى لتسميتهم قبل أن تنتشر عنهم الأولاد أسباطا، فالحال أن السبط هم الجماعة من الناس.

ومن قال: الأسباط أولاد يعقوب، لم يرد أنهم أولاده لصلبه، بل أراد ذريته، كما يقال: بنو إسرائيل وبنو آدم. فتخصيص الآية ببنيه لصلبه غلط، لا يدل عليه اللفظ ولا المعنى، ومن ادعاه فقد أخطأ خطأ بينا.

جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٢٩٧).

(وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم):

قال ابن جماعة: قوله تعالى: (وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ)، وفي آل عمران: (والنَّبِيُّونَ).

جوابه: أن آل عمران تقدم فيها: (وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ)، فأغنى عن إعادة إيتائهم ثانيا، ولم يتقدم مثل ذلك في البقرة، فصرح فيه بإيتائهم ذلك. كشف المعاني في المتشابه من المثاني (ص: ١٠٨).

عن أبي هريرة، أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في ركعتي الفجر: {قل آمنا بالله وما أنزل علينا} في الركعة الأولى، وفي الركعة الأخرى بهذه الآية: {ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين}، أو {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا ولا تسأل عن أصحاب الجحيم}. سنن أبي داود (٢/ ٢٠).

(ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه...):

قال ابن القيم: وقد دل قوله {إن الدين عند الله الإسلام} على أنه دين جميع أنبيائه ورسله وأتباعه من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه، قال أول الرسل نوح {فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين}، وقال إبراهيم وإسماعيل {ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك}، {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون}، وقال يعقوب لبنيه عند الموت {ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك} إلى قوله {ونحن له مسلمون}، وقال موسى لقومه {إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين}، وقال تعالى {فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون}، وقالت ملكة سبأ {رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين}. فالإسلام دين أهل السماوات، ودين أهل التوحيد من أهل الأرض، لا يقبل الله من أحد دينا سواه. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٤٤١-٤٤٢).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة، فتقول: يا رب، أنا الصلاة، فيقول: إنك على خير، فتجيء الصدقة، فتقول: يا رب، أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الصيام، فيقول: يا رب، أنا الصيام، فيقول: إنك على خير، ثم تجيء الأعمال على ذلك، فيقول الله

عز وجل: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام، فيقول: يا رب، أنت السلام، وأنا الإسلام، فيقول الله: إنك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أعطي، قال الله عز وجل في كتابه: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين} . مسند أحمد (١٤/ ٣٥٥).

(كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم...):

سبب النزول: عن ابن عباس قال: (كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه: أرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، هل لي من توبة؟ قال: فنزلت: (كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم) إلى قوله: (وجاءَهم البيناتُ والله لا يهدي القوم الظالمين)، إلى (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم)، فأرسل إليه قومه فأسلم. تفسير الطبري (٦/ ٥٧٢)، ومسند أحمد (٤/ ٩٣)، سنن النسائي (٧/ ١٠٧).

وكان الحسن يقول في قوله: (كيف يهدي الله قومًا كفروا بعد إيمانهم) الآية، هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، رأوا نعتَ محمد صلى الله عليه وسلم في كتابهم وأقرّوا به، وشهدوا أنه حقٌّ، فلما بُعث من غيرهم حَسدوا العربَ على ذلك فأنكروه، وكفروا بعد إقرارهم، حسدًا للعرب، حين بُعثَ من غيرهم. تفسير الطبري (٦/ ٥٧٥).

قال الطبري: وأشبه القولين بظاهر التنزيل ما قال الحسن: منْ أنّ هذه الآية معنيٌّ بها أهل الكتاب على ما قال، غيرَ أنّ الأخبار بالقول الآخر أكثر، والقائلين به أعلم بتأويل القرآن. وجائز أن يكون الله عز وجل أنزل هذه الآيات بسبب القوم الذين ذُكر أنهم كانوا ارتدّوا عن الإسلام، فجمع قصّتهم وقصة من كان سبيلُه سبيلَهم في ارتداده عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم في هذه الآيات. ثم عرّف عباده سُنته فيهم، فيكون داخلا في ذلك كلّ من كان مؤمنًا بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل أن يُبعث، ثم كفر به بعد أن بُعث، وكلّ من كان كافرًا ثم أسلم على عهده صلى الله عليه وسلم، ثم ارتد وهو حيٌّ عن إسلامه. فيكون معنيًّا بالآية جميعُ هذين الصنفين وغيرُهما ممن كان بمثل معناهما. تفسير الطبري (٦/ ٥٧٥).

وقال ابن تيمية: إن القرآن قد بين توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع، كقوله تعالى: {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين. أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون. إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم} وقوله: {كيف يهدي الله} أي: أنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين؛ ولهذا قال: {والله لا يهدي القوم الظالمين}، فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالا لا يحصل له الهدى إلى أي دين ارتد. والمقصود أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا. وكذلك قال في قوله: {من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره}، ومن كفر بالله من بعد إيمانه من غير إكراه فهو مرتد، قال: {ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم}. وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين، ثم ذكر التائبين منهم، ثم ذكر من لا تقبل توبته، ومن مات كافرا. مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٧-٢٨).

وقال ابن القيم: الجاهل إذا عرف وعلم فهو قريب إلى الانقياد والاتباع، وأما المعاند فلا دواء فيه قال تعالى {كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين}. مفتاح دار السعادة (١/ ٩٥).

(والله لا يهدي القوم الظالمين):

قال السعدي: فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلما وبغيا واتباعا لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن ييسر الله له أسباب الهداية ويصونه من أسباب الغواية. تفسير السعدي (ص: ١٣٧).

(ولا هم يُنظرون):

قال السعدي: {ولا هم ينظرون} أي: يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعذر الله منهم وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم خير لوجد، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه. تفسير السعدي (ص: ١٣٧).

(إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم...):

قال البغوي: (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفر):

قال قتادة والحسن: نزلت في اليهود كفروا بعيسى عليه السلام والإنجيل بعد إيمانهم بأنبيائهم، ثم ازدادوا كفرا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن.

وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنصارى كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم لما رأوه بعد إيمانهم بنعته وصفته في كتبهم، ثم ازدادوا كفرا، يعني: ذنوبا في حال كفرهم.

قال مجاهد: نزلت في جميع الكفار أشركوا بعد إقرارهم بأن الله خالقهم، ثم ازدادوا كفرا، أي: أقاموا على أمرهم وما هم عليه من الكفر والطغيان حتى هلكوا عليه. تفسير البغوي (١/ ٤٦٦-٤٦٧).

وقال الطبري: وأولى هذه الأقوال بالصواب في تأويل هذه الآية، قولُ من قال: عنى بها اليهودَ، وأن يكون تأويله: إن الذين كفروا من اليهود بمحمد صلى الله عليه وسلم عند مَبعثه، بعد إيمانهم به قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفرًا بما أَصَابوا من الذنوب في كفرهم ومُقامهم على ضلالتهم، لن تقبل توبتهم من ذنوبهم التي أصابوها في كفرهم، حتى يتوبوا من كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويراجعوا التوبة منه بتصديقه بما جاء به من عند الله.

وإنما قلنا: ذلك أولى الأقوال في هذه الآية بالصواب، لأن الآيات قبلها وبعدها فيهم نزلت، فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها وبعدها، إذ كانت في سياق واحد.

وإنما قلنا: معنى ازديادهم الكفر: ما أصابوا في كفرهم من المعاصي، لأنه جل ثناؤه قال: (لن تقبل توبتهم)، فكان معلومًا أن معنى قوله: (لن تقبل توبتهم)، إنما هو معنيٌّ به: لن تقبل توبتهم مما ازدادوا من الكفر على كفرهم بعد إيمانهم، لا من كفرهم. لأن الله تعالى ذكره وعد أن يقبل التوبة من عباده فقال:

(وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ)، فمحالٌ أنْ يقول عز وجل: أقبل ولا أقبل في شيء واحد. وإذْ كان ذلك كذلك = وكان من حُكم الله في عباده أنه قابلٌ توبةَ كل تائب من كل ذنب، وكان الكفر بعد الإيمان أحدَ تلك الذنوب التي وعد قَبول التوبة منها بقوله: (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) = علم أنّ المعنى الذي لا يقبل التوبةَ منه، غيرُ المعنى الذي يَقبل التوبة منه. وإذْ كان ذلك كذلك، فالذي لا يَقبل منه التوبة، هو الازدياد على الكفر بعد الكفر، لا يقبل الله توبة صاحبه ما أقام على كفره، لأن الله لا يقبل من مشرك عملا ما أقام على شركه وضلاله. فأما إن تاب من شركه وكفره وأصلح، فإنّ الله - كما وصف به نفسه - غفورٌ رحيمٌ. تفسير الطبري (٦/ ٥٨١-٥٨٢).

وقال ابن تيمية: وهؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالا:
قيل: لنفاقهم، وقيل: لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل: لن تقبل توبتهم بعد الموت.
وقال الأكثرون كالحسن وقتادة وعطاء الخراساني والسدي: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، فيكون هذا كقوله: {وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار}. وكذلك قوله: {إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا} قال مجاهد وغيره من المفسرين: (ازدادوا كفرا): ثبتوا عليه حتى ماتوا. قلت: وذلك لأن التائب راجع عن الكفر، ومن لم يتب فإنه مستمر يزداد كفرا بعد كفر، فقوله: {ثم ازدادوا} بمنزلة قول القائل: ثم أصروا على الكفر واستمروا على الكفر وداموا على الكفر، فهم كفروا بعد إسلامهم، ثم زاد كفرهم ما نقص، فهؤلاء لا تقبل توبتهم، وهي التوبة عند حضور الموت؛ لأن من تاب قبل حضور الموت فقد تاب من قريب، ورجع عن كفره فلم يزدد بل نقص؛ بخلاف المصر إلى حين المعاينة فما بقي له زمان يقع لنقص كفره فضلا عن هدمه. مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٨-٢٩).

قال البقاعي: {لن تقبل توبتهم} أي إن تابوا، لأن الله سبحانه وتعالى يطبع على قلوبهم فلا يتوبون توبة نصوحا يدومون عليها ويصلحون ما فسد، أو لن توجد منهم توبة حتى يترتب عليها القبول لأنهم زادوا عن أهل القسم الأول بالتمادي، ولم يأت بالفاء الدالة على أنه مسبب عما قبله إعلاما بأن ذلك إنما هو

لأنهم مطبوع على قلوبهم، مهيؤون للكفر من أصل الجبلة، فلا يتوبون أبدا توبة صحيحة. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/ ٤٧٩).

قال السعدي: يخبر تعالى أن من كفر بعد إيمانه، ثم ازداد كفرا إلى كفره بتماديه في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل، بل يمدهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى {ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة}، {فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم}، فالسيئات ينتج بعضها بعضا، وخصوصا لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة. تفسير السعدي (ص: ١٣٧).

(إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به):

قال ابن كثير: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبا فيما يراه قربة، كما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن عبد الله بن جدعان -وكان يقري الضيف، ويفك العاني، ويطعم الطعام-: هل ينفعه ذلك؟ فقال: (لا، إنه لم يقل يوما من الدهر: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين).

وكذلك لو افتدى بملء الأرض أيضا ذهبا ما قبل منه، كما قال تعالى: {ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة}، وقال {لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة}، وقال: {لا بيع فيه ولا خلال}، وقال {إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم} . ولهذا قال تعالى هاهنا: {إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به}، فعطف {ولو افتدى به} على الأول، فدل على أنه غيره، وما ذكرناه أحسن من أن يقال: إن الواو زائدة، والله أعلم. ويقتضي ذلك ألا ينقذه من عذاب الله شيء، ولو كان قد أنفق مثل الأرض ذهبا، ولو افتدى نفسه من الله بملء الأرض ذهبا، بوزن جبالها وتلالها وترابها ورمالها وسهلها ووعرها وبرها وبحرها. تفسير ابن كثير (٢/ ٧٢).

عن أنس، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقول لأهون أهل النار عذابا: لو أن لك ما في الأرض من شيء كنت تفتدي به؟ قال: نعم، قال: فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم، ألّا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك). صحيح البخاري (٤/ ١٣٣)، صحيح مسلم (٤/ ٢١٦١).

عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالرجل من أهل الجنة، فيقول له: يا ابن آدم كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب خير منزل، فيقول: سل وتمنّ، فيقول: ما أسأل وأتمنى إلا أن تردني إلى الدنيا، فأُقتل في سبيلك عشر مرات، لما يرى من فضل الشهادة، ويؤتى بالرجل من أهل النار، فيقول له: يا ابن آدم، كيف وجدت منزلك؟ فيقول: أي رب، شر منزل، فيقول له: أتفتدي منه بطِلاع الأرض ذهبا؟ فيقول: أي رب، نعم، فيقول: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك وأيسر، فلم تفعل فيرد إلى النار). مسند أحمد (٢٠/ ٤٠٢).

(لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون):

قال ابن تيمية: فما كان أحب إلى المرء إذا تقرب به إلى الله تعالى كان أفضل له من غيره؛ وإن استويا في القيمة... قال بعض السلف: لا يهدي أحدكم لله تعالى ما يستحي أن يهديه لكريمه. وقد قال تعالى: {ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه}، وقد قرب ابنا آدم قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر. وقد ذُكر أن سبب ذلك أن أحدهما قرّب نفيس ماله والآخر قرّب الدون من ماله. مجموع الفتاوى (٣١/ ٢٥١).

وقال السعدي: {حتى تنفقوا مما تحبون} أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق، وبر قلوبكم، ويقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحبوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك. تفسير السعدي (ص: ١٣٨).

وقال ابن عثيمين: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون): ينبغي للإنسان أن يتأول هذه الآية ولو مرة واحدة، إذا أعجبه شيء من ماله فليتصدق به، لعله ينال هذا البر. تفسير سورة آل عمران (١/ ٥٢٦).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}، قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}، وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين» فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه. صحيح البخاري (٢/ ١٢٠)، صحيح مسلم (٢/ ٦٩٣).

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن عمر بن الخطاب أصاب أرضا بخيبر، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إني أصبت أرضا بخيبر لم أصب مالا قط أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ قال: «إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها» قال: فتصدق بها عمر، أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث، وتصدق بها في الفقراء، وفي القربى وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضيف لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم غير متمول. صحيح البخاري (٣/ ١٩٩)، صحيح مسلم (٣/ ١٢٥٥).

عن مجاهد في قول الله عز وجل: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)، قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أنْ يبتاع له جارية من جَلولاء يوم فُتحت مدائن كسرى في قتال سَعد بن أبي وقاص، فدعا بها عمر بن الخطاب فقال: إن الله يقول: (لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون)، فأعتقها عمر. تفسير الطبري (٦/ ٥٨٨).

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: تلوت هذه الآية {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} فذكرت ما أعطاني الله تعالى، فما وجدت شيئا أحب إليّ من جاريتي رضية فقلت: هي حرة لوجه الله عز وجل، فلولا أني لا أعود في شيء جعلته لله عز وجل لنكحتها، فأنكحها نافع فهي أم ولده. المستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٦٤٧)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٢٩٥)، الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ١٥٩).

وعن نافع، قال: كان ابن عمر إذا اشتد عجبه بشيء من ماله قرّبه لربه عز وجل. قال نافع: كان بعض رقيقه قد عرفوا ذلك منه، فربما شمر أحدهم فلزم المسجد، فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنة أعتقه، فيقول له أصحابه: يا أبا عبد الرحمن والله ما بهم إلا أن يخدعوك! فيقول ابن عمر: من خدعنا بالله انخدعنا له! التبصرة لابن الجوزي (٢/ ٢٤٠).

وعن أبي ذر، أنه قال: (في المال ثلاثة شركاء: القدر: لا يستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت، والوارث: ينتظر أن تضع رأسك ثم يستاقها، وأنت ذميم. فإن استطعت ألّا تكون أعجز الثلاثة فلا تكوننّ، فإن الله عز وجل يقول: {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون}، ألا وإن هذا الجمل مما كنت أحب من مالي، فأحببت أن أقدمه لنفسي. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ١٦٣)، الزهد لهناد بن السري (١/ ٣٤٨).

(وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم):

قال السعدي: ولما كان الإنفاق على أي وجه كان مثابا عليه العبد، سواء كان قليلا أو كثيرا، محبوبا للنفس أم لا وكان قوله {لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون} مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احترز تعالى عن هذا الوهم بقوله {وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم} فلا يضيق عليكم، بل يثيبكم عليه على حسب نياتكم ونفعه. تفسير السعدي (ص: ١٣٨).

بسم الله الرحمن الرحيم

العمل بالآيات من سورة آل عمران ٨٣-٩٢

١- تمسّك بدين الإسلام طوعا واختيارا، وعضّ عليه بالنواجذ، ولا تقبل المساومة فيه، واصبر على الأذى في سبيل ذلك، فإنك في زمن يعجّ بالفتن والشبهات، واعلم أن دين الإسلام رأسُ مالك ومصدر سعادتك وفلاحك في الدنيا والآخرة، وأن الله لا يقبل دينا غيره من أي أحد كائنا من كان، وأنّ دعوى وحدة الأديان مناقضة لدين الإسلام (إن الدين عند الله الإسلام)، (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون)، (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين).

٢- جدّد إيمانك و (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون).

٣- مما يثبّت الإيمان في قلبك ويعزّزه ويقوّيه: ذوق طعم الإيمان، وذلك بأن تخالط بشاشته القلوب، ومعرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه وأمانته وبذله الغالي والنفيس لنشر دين الله، وهداية الناس، والاطّلاع على حجج الإسلام الظاهرة، ومعجزاته القاهرة، وآياته الباهرة، فإن حقّقت ذلك فلن تضرّك عواصف الفتن، ولن تُثنيك رياح الشبهات، لكن من ختم الله على قلبه فإن هذا كله لا يزيده إلا كفرا وعنادا واستكبارا، فلذلك يستحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين والخلود في النار والعياذ بالله (كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين * أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم يُنظرون).

٤- الله سبحانه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات مهما عظُم ذنبك، ومهما كثرت معاصيك، ولو بلغت عنان السماء، فما أرحمه بعباده! وما أعظم مغفرته! فتُب إليه سبحانه توبة نصوحا صباحا ومساء، سرا وجهارا، من كل معصية وذنب وتقصير، ومع التوبة أصلح ما بينك وبين ربك، وما بينك وبين الناس، وأبشر برب غفور رحيم (إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم).

٥- لا يقبل الله توبة من أساء في حياته وأسرف على نفسه واستمرّ على ذلك حتى معاينة الموت والغرغرة، فإنه لا توبة حينئذ، ولا ينفع حينها الندم، فبادر بالتوبة قبل أن يفجأك الأجل، وقبل أن تبلغ الروح الحلقوم (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون).

٦- من مات على الكفر لا ينفعه ما عمل من أعمال صالحة في حياته، ولو أنفق ملء الأرض ذهبا في وجوه الخير والبر والإحسان، لأن الإيمان شرط لقبول الأعمال، والله سبحانه لا يظلمه من عمله شيئا، بل يعطيه ثواب عمله في الدنيا من صحة وسعادة وعافية وسعة رزق، وليس له في الآخرة إلا النار، ولو أراد هذا الكافر يوم القيامة أن يفتدي نفسه بملء الأرض ذهبا من عذاب الله فلن ينفعه أيضا، بل له عذاب أليم لكفره، ولن يجد أحدا ينصره أو يشفع له أو ينجيه من عذاب الله، ولذلك لم يجُز لمسلم أن يستغفر لمن مات على الكفر (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يُقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين).

٧- كلما كان المال محبوبا إليك أكثر كانت الصدقة به أفضل، والناس يتفاوتون في هذا تفاوتا عظيما، فمنهم من يُنفق ما لا يحب، ومنهم من يُنفق ما يحبه محبة عادية، لكنّ أهل البر ينفقون أحبّ ما يملكون من ذهب وفضة وعقار وحيوان ومأكول ومشروب وملبوس، فانظر في أحب أموالك إليك وأخرج منه صدقة لله لعلك تبلغ بذلك درجة الأبرار (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون).